

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعراف

وهي مكية، إلا ثمان آيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمَ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الآية: ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَإِذْ نُنَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الآية: ١٧١] (١).

وروى النسائي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فَرَقَّهَا فِي رَكَعَتَيْنِ (٢). صحَّحه أبو محمد عبد الحق (٣).

قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ ① كُنْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ②﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ تقدّم في أوّل «البقرة» (٤)، وموضعه رفع بالابتداء. و﴿كُنْتُ﴾ خبره. كأنه قال: «المص» حروف ﴿كُنْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. وقال الكسائي:

(١) المحرر الوجيز ٣٧٢/٢، وزاد المسير ١٦٤/٣ وفيهما أن الآيات المدنية من قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمَ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الآية: ١٦٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الآية: ١٧٢]. ونسباً هذا القول لمقاتل، وأورد ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقناة أنها مكية إلا خمس آيات أولها قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمَ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سورة الأعراف نزلت بمكة.

(٢) سنن النسائي ١٧٠/٢، وأخرج البخاري (٧٦٤)، وأبو داود (٨١٢)، والنسائي ١٧٠/٢، عن مروان ابن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: مالك تقرأ في المغرب بقصار، وقد سمعتُ النبي ﷺ يقرأ بطُولِي الطُولَيْنِ. زاد أبو داود: قال: قلت: ما طُولِي الطُولَيْنِ، قال: الأعراف، والأخرى: الأنعام. ونحو هذه الزيادة عند النسائي. وينظر فتح الباري ٢٤٧/٢.

(٣) في الأحكام الصغرى ١/٢٣٤ - ٢٣٥.

(٤) ١/٢٣٧.

أي: هذا كتابٌ^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيقٌ؛ أي: لا يضيِّقُ صدركُ بالإبلاغ؛ لأنه رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إني أخافُ أن يثُلِّغُوا رأسي فَيَدْعُوهُ حُبْرَةٌ». الحديث. خرَّجه مسلم^(٢).

قال الكيا^(٣): فظاهرُه النهي، ومعناه نفي^(٤) الحَرَج عنه؛ أي: لا يضيِّقُ صدركُ ألا يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغُ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيء من إيمانهم أو كُفرهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبُرَ بَعْضُ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الكهف: ٦]. وقال: ﴿لَمَّا كَبُرَ بَعْضُ أَنفُسِكُمْ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

ومذهبُ مجاهد وقتادة أنَّ الحَرَجَ هنا الشُّكُّ^(٥)، وليس هذا شُكُّ الكُفْرِ، إنما هو شُكُّ الضِّيق. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَطَلَّوْا نَكَرًا يَظُنُّونَ أَنَّ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]. وقيل: الخطابُ للنبي ﷺ والمرادُ أمته. وفيه بُعْدٌ.

والهاء في «مِنْهُ» للقرآن. وقيل: للإنذار، أي: أنزل إليك الكتابُ لِتُنذِرَ به فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه. فالكلامُ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ. وقيل: للتكذيب الذي يُعطيهِ قوَّة الكلام. أي: فلا يكن في صدرك ضيقٌ من تكذيبِ المُكذِّبين له^(٦).

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٣/٢، والمحرم الوجيز ٣٧٢/٢. والقول الأول للفرَّاء، وقد ردَّه الزجاج.

(٢) (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المُجاشعي ؓ، ولفظه: «... وإن الله أمرني أن أحرِّقَ قريشاً، فقلت: رب، إذا يثُلِّغُوا رأسي...» وهو عند أحمد (١٧٤٨٤). قوله: «يثلِّغُوا»، قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٩٨/١٧: أي: يشدوه ويثُلِّغوه كما يُشدخ الخبز، أي: يكسر.

(٣) في أحكام القرآن ١٣١/٣.

(٤) في (د) و(ظ): رفع، والمثبت من (ز) و(م).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٥٤ - ٥٥.

(٦) تفسير الطبري ١٠/٥٥ - ٥٦، وتفسير أبي الليث ١/٥٣٠، والمحرم الوجيز ٣٧٢/٢، وزاد المسير

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَذَكَّرَى﴾ يجوزُ أن يكونَ في موضعِ رَفَعٍ وَنَصْبٍ وَخَفْضٍ. فالرفع من وجهين؛ قال البصريون: هي رَفَعٌ على إضمارِ مبتدأ. وقال الكسائي: عطفتُ على «كتاب». والنصبُ من وجهين؛ على المصدر، أي: وذكَّر به ذكَّري؛ قاله البصريون. وقال الكسائي: عطفتُ على الهاء في «أنزلناه»^(١). والخَفْضُ حَمَلًا على موضعِ «لِتُنذِرَ به». والإنذارُ للكافرين، والذِّكْرُ للمؤمنين؛ لأنهم المتشفعون به.

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني الكتابَ والسنة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آءَانَكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقالت فرقة: هذا أمرٌ يعمُ النبي ﷺ وأُمَّته. والظاهرُ أنه أمرٌ لجميعِ الناسِ دونَه^(٢). أي: اتَّبِعُوا مِلَّةَ الإِسْلَامِ والقرآن، وأَجِلُّوا حلالَه وَحَرِّمُوا حرامَه، وامثلوا أمرَه، واجتنبوا نَهْيَه^(٣).

ودلَّت الآيةُ على تركِ اتِّباعِ الآراءِ مع وجودِ النصِّ فيه^(٤).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ «مِن دونه»: من غيره. والهاء تعودُ على الربِّ سبحانه، والمعنى: لا تعبدوا معه غيره، ولا تَتَّخِذُوا مَن عَدَلَ عن دينِ اللهِ وَلِيًّا، وكلُّ من رَضِيَ مذهباً فأهلُ ذلك المذهبُ أولياؤه.

وروي عن مالك بن دينار أنه قرأ: «ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» أي: ولا

(١) يعني - والله أعلم - على تقدير قوله تعالى: «كتاب أنزل» - وهو لفظ الآية - بـ «أنزلناه» - وينظر إعراب القرآن للنحاس ١١٤/٢، وينظر الدر المصون ٢٤٤/٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣٧٣/٢ دون لفظة: دونه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٧٦٦/٢.

(٤) لفظ: فيه، من (د) و(ز).

تطلبوا^(١).

ولم ينصرف «أولياء» لأن فيه ألف التانيث.

وقيل: تعود^(٢) على «ما» من قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ «ما» زائدة. وقيل: تكون مع الفعل مصدرًا^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ فَمَا

كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾: «كم» للتكثير، كما أن «رَبٌّ» للتقليل. وهي

في موضع رَفْعٍ بالابتداء، و«أهْلَكْنَا» الخبر. أي: وكثيرٌ مِنَ الْقَرْيِ - وهي مواضع

اجتماع الناس - أهلكتناها. ويجوزُ النصب بياضمارٍ فعلٍ بعدها، ولا يُقدَّرُ قبلها؛ لأنَّ

الاستفهام لا يعملُ فيه ما قبله^(٤). ويُقوِّي الأوَّلُ قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ

نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ولولا اشتغال «أهْلَكْنَا» بالضمير لانصبَّ به موضعُ «كم».

ويجوز أن يكون «أهْلَكْنَا» صفةً للقرية، و«كَمْ» في المعنى هي القرية، فإذا

وصفتَ القريةَ فكأنَّك قد وصفتَ «كَمْ». يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي

السَّمَوَاتِ لَا تَعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٦]، فعاد الضميرُ على «كَمْ» على المعنى، إذ

كانت الملائكة في المعنى. فلا يصحُّ على هذا التقدير أن تكون «كَمْ» في موضع نصبٍ

بياضمارٍ فعلٍ بعدها.

﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه إشكالٌ للعطف بالفاء. فقال الفراء: الفاء بمعنى الواو، فلا

(١) معاني القرآن للنحاس ٩/٣، وقراءة مالك بن دينار أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٢ وزاد نسبتها للجحدري، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٣٧٣ لمجاهد.

(٢) أي: الهاء، من قوله تعالى: «من دونه». ينظر المحرر الوجيز ٢/٣٧٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١١٤/٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١١٤/٢، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/٢٨١ - ٢٨٢.

يَلْزَمُ التَّرْتِيبَ^(١). وقيل: أي: وكم من قرية أردنا إهلاكها، فجاءها بأسنا، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] ^(٢). وقيل: إِنَّ الْهَلَاكَ واقعٌ ببعض القوم، فيكون التقدير: وكم من قرية أهلكتنا بعضها فجاءها بأسنا، فأهلكنا الجميع. وقيل: المعنى: وكم من قرية أهلكتناها في حُكْمِنا فجاءها بأسنا. وقيل: أهلكتناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا، وهو الاستئصال ^(٣). والبأسُ: العذابُ الآتي على النفس. وقيل: المعنى: أهلكتناها، فكان إهلاكنا إيَّاهم في وقت كذا، فمجيءُ البأسِ على هذا هو الإهلاك. وقيل: البأسُ غيرُ الإهلاك؛ كما ذكرنا.

وحكى الفراء أيضاً أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً، أو كالواحد؛ قَدَّمتَ أيَّهما شئت؛ فيكون المعنى: وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها؛ مثل: دَنَا فَقَرُبَ، وَقَرُبَ فَدَنَا، وَشْتَمَنِي فَأَسَاءَ، وَأَسَاءَ فَشْتَمَنِي؛ لَأَنَّ الْإِسَاءَةَ وَالشُّتْمَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ^(٤). وكذلك قوله: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. المعنى - والله أعلم - انشقَّ القمرُ فاقتربت ^(٥) الساعةُ. والمعنى واحد.

﴿يَبْتَئَاتُ﴾ أي: ليلاً، ومنه البيت، لأنه يُبَاتُ فيه. يقال: بَاتَ بَيْتٌ بَيْتًا وَيَبْتَئَاتُ. ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: أو وهم قائلون، فاستثقلوا، فحذفوا الواو؛ قاله الفراء ^(٦).

(١) معاني القرآن للفراء ١/٣٧١ - ٣٧٢، وضعف هذا القول السمين في الدر المصون ٥/٢٤٨.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/٢٨٢.

(٣) النكت والعيون ٢/٢٠٠، ومجمع البيان للطبرسي ٨/١٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/٣٧١ ولفظه فيه: أن الهلاك والبأس يقعان معاً، كما تقول: أعطيتي فأحسننت، فلم يكن الإحسان بعد العطف ولا قبله، وإنما وقعا معاً، وينظر تفسير الطبري ١٠/٥٩، والمحزر الوجيز ٢/٣٧٤، والدر المصون ٥/٢٤٩.

(٥) في (ظ): واقتربت.

(٦) في معاني القرآن ١/٣٧٢.

وقال الزجاج^(١): هذا خطأ، إذا عادَ الذكرُ استُغنيَ عن الواو، تقول: جاءني زيدٌ ركباً أو هو ماشٍ، ولا يحتاج إلى الواو.

قال المهدوي: ولم يُقَلْ: بيئاتاً أو وهم قائلون؛ لأن في الجملة ضميراً يرجعُ إلى الأول، فاستغنى عن الواو. وهو معنى قولِ الزجاجِ سواء.

وليس «أو» للشك، بل للتفصيل؛ كقولك: لأكرمَنَّكَ منصفاً لي أو ظالماً. وهذه الواو تُسمَّى عند النحويين واو الوقت^(٢).

و«قَائِلُونَ» من القائلة، وهي القَيْلولة؛ وهي نومُ نصف النهار. وقيل: الاستراحةُ نصفَ النهار إذا اشتدَّ الحرُّ وإن لم يكن معها نومٌ. والمعنى: جاءهم عذابنا وهم غافلون إما ليلاً وإما نهاراً^(٣).

والدعوى: الدعاء، ومنه قوله: ﴿وَأَجْرٌ دَعْوَاهُمْ﴾ [يونس: ١٠]. وحكى النحويون: اللهم أشركنا في دعوى صالح من دعاك. وقد تكون الدعوى بمعنى الأدعاء. والمعنى: أنهم لم يحصلوا^(٤) عند الإهلاك إلا على الإقرارِ بأنهم كانوا ظالمين.

و﴿دَعْوَاهُمْ﴾ في موضع نصبٍ خبرُ كان، واسمها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، نظيره ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [النمل: ٥٦] ويجوزُ أن تكونَ الدعوى رفعاً، و«أنَّ قَالُوا» نصباً؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] برفع «البرِّ»^(٥)،

(١) في معاني القرآن له ٣١٧/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١١٤/٢.

(٢) قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط (باب الألف اللينة): وتقرب من واو الحال.

(٣) تهذيب اللغة ٣٠٩/٩، وتفسير البغوي ١٤٨/٢.

(٤) في النسخ: لم يخلصوا، والمثبت من معاني القرآن للنحاس ١٠/٣، والكلام منه.

(٥) هي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية شعبة والكسائي. وسلف ذكرها ٥٣/٣ - ٥٤.

وينظر تفسير الرازي ٢١/١٤.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأَوْا السَّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا﴾ [الروم: ١٠] برفع «عاقبة»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أَزْسِلُ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أَزْسِلُ إِلَيْهِمْ﴾ دليل على أن الكفار يُحاسِبون^(٢). وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٦]. وفي سورة القصص: ﴿وَلَا يُسْتَلَّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٧٨]، يعني إذا استقرؤا في العذاب^(٣).

والآخرة مواطنٌ: مواطنٌ يُسألون فيه للحساب، وموطنٌ لا يُسألون فيه، وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفصاح، وسؤال الرُّسل سؤال استشهادٍ بهم وإفصاح، أي: عن جوابِ القوم لهم^(٤). وهو معنى قوله: ﴿لَيْسَتَكُ الْأَصْدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]^(٥) على ما يأتي.

وقيل: المعنى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أَزْسِلُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأنبياء، ﴿وَلَنَسْتَأَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الملائكة الذين أرسلوا إليهم^(٦).

واللام في «فلنسالن» لام القسم، وحققتها التوكيد. وكذا ﴿فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾^(٧). قال ابن عباس: ينطقُ عليهم^(٨). ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ أي: كنا شاهدين لأعمالهم. ودلت الآية على أن الله تعالى عالم بعلم^(٩).

(١) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١١٥/٢.

(٣) في تفسير هذه الآية أقوال ذكرها المصنف في موضعها.

(٤) تفسير الطبري ٦٦/١٠، وتفسير الرازي ٢٣/١٣، ومجمع البيان ١٤/٨ - ١٥.

(٥) تفسير أبي الليث ٥٣١/١.

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦٧/٣ - ٦٨ لعبد بن حميد.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١١٥/٢.

(٨) أخرجه الطبري بنحوه ٦٤/١٠ - ٦٥ و ٦٧.

(٩) في (د) و(ظ): يعلم، وينظر تفسير الرازي ٢٣/١٣ والبحر المحيط ٢٧٠/٤.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ ابتداءً وخبر. ويجوز أن يكون «الحق» نعته، والخبر: «يومئذ». ويجوز نصب «الحق» على المصدر^(١).

والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان. قال ابن عمر: تُوزَنُ صحائفُ أعمالِ العباد^(٢). وهذا هو الصحيح، وهو الذي ورد به الخبر على ما يأتي.

وقيل: الميزان: الكتاب الذي فيه أعمال الخلق. وقال مجاهد: الميزان: الحسنات والسيئات بأعيانها. وعنه أيضاً والضحاك والأعمش: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء^(٣)، وذكر الوزن ضرب مَثَلٍ؛ كما تقول: هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه، أي: يُعَادِلُهُ ويُساويه وإن لم يكن هناك وزن.

قال الزجاج^(٤): هذا سائغ من جهة اللسان، والأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. قال القشيري: وقد أحسن فيما قال، إذ لو حُمِلَ الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة. وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل. وإذا أجمعوا على منع التأويل؛ وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً.

قال ابن فورك: وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٥/٢.

(٢) النكت والعيون ٢٠١/٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٥/١٣.

(٤) في معاني القرآن له ٣١٩/٢.

وَزُنُهَا، إِذْ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا^(١). وَمِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْلِبُ الْأَعْرَاضَ أَجْسَامًا فَيَزِنُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ عِنْدَنَا، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَوَازِينَ تَثْقُلُ بِالْكَتَبِ الَّتِي فِيهَا الْأَعْمَالُ مَكْتُوبَةٌ، وَبِهَا تَخْفُتُ. وَقَدْ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ مَا يُحَقِّقُ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُ رُوِيَ «أَنَّ مِيزَانَ بَعْضِ بَنِي آدَمَ كَادَ يَخْفُتُ بِالْحَسَنَاتِ، فَيُوضَعُ فِيهِ رَقٌّ مَكْتُوبٌ فِيهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَثْقُلُ»^(٢). فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى وَزْنِ مَا كُتِبَ فِيهِ الْأَعْمَالُ، لَا نَفْسِ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ يُخَفِّفُ الْمِيزَانَ إِذَا أَرَادَ، وَيَثْقُلُهُ إِذَا أَرَادَ؛ بِمَا يُوضَعُ فِي كَفَّتَيْهِ مِنَ الصُّحُفِ الَّتِي فِيهَا الْأَعْمَالُ.

وفي «صحيح» مسلم عن صفوان بن مُحَرِّزٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَمْرٍو: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يُذْنِي الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرَّرُهُ بِذَنُوبِهِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ؛ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ»^(٣). فَقَوْلُهُ: «فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ» دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ تُكْتَبُ فِي الصُّحُفِ وَتُوزَنُ.

وروى ابنُ ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُصَاحُّ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مَدُّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَيْكَ عُذْرٌ، أَلَيْكَ

(١) زاد المسير ٣/ ١٧٠.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وسيذكر المصنف نحوه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقوله: رَقٌّ: وهو ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق. مختار الصحاح (رقق).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٦٨)، وأخرجه أحمد (٥٤٣٦)، والبخاري (٢٤٤١). وقوله: «كنفه»، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٨٧/١٧: هو ستره وعفوه.

حسنة؟ فيهابُ الرجلُ فيقول: لا، فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنة^(١)، وإنه لا ظلمَ عليك اليوم، فتُخرج له بطاقةً فيها: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسوله، فيقول: يا رب^(٢)، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِّلاتِ؟ فيقول: إنك لا تُظلم. فتوضع السِّجِّلاتُ في كِفَّةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السِّجِّلاتُ وثقلتِ البطاقةُ^(٣). زاد الترمذي: «فلا يثقلُ مع اسمِ الله شيء» وقال: حديثٌ حسنٌ غريب^(٤). وسيأتي لهذا البابِ مزيدُ بيانٍ في «الكهف» و«الأنبياء» إن شاء اللهُ تعالى^(٥). قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ﴾.

«مَوَازِينُهُ» جمعُ ميزان، وأصله: مِوزان، قَلِبَتِ الواو ياءً لكسرة ما قبلها^(٦).

وقيل: يجوزُ أن يكون هناك موازينٌ للعامل الواحد؛ يُوزَنُ بكل ميزان منها صِنْفٌ من أعماله. ويمكن أن يكونَ ذلك ميزاناً واحداً عُبِّرَ عنه بلفظ الجمع؛ كما نقول: خرج فلانٌ إلى مكةَ على البغال، وخرج إلى البصرة في السفن، وفي التنزيل: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْأُمِّيِّينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وإنما هو رسولٌ واحدٌ في أحد التأويلين.

وقيل: المَوَازِينُ جمعُ مَوَزُون، لا جمعَ ميزان. أراد بالموازين الأعمالَ الموزونة^(٧). «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» مثله.

وقال ابن عباس: تُوزَنُ الحسناتُ والسيئاتُ في ميزانٍ له لسانٌ وكِفَّتَان؛ فأما

(١) في (م) وهامش (خ): حسنات.

(٢) قوله: يا رب، من (م) ومصادر الحديث.

(٣) سنن ابن ماجه (٤٣٠٠)، وأخرجه أحمد (٦٩٩٤).

(٤) سنن الترمذي (٢٦٣٩).

(٥) عند تفسير الآية (١٠٥) من الكهف، والآية (٤٧) من الأنبياء.

(٦) الصحاح (وزن).

(٧) تفسير الرازي ٢٦/١٣.

المؤمنُ فيؤتَى بعمله في أحسن صورة، فيؤضَع في كِفَّة الميزان، فتثقلُ حسناته على سيئاته؛ فذلك قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ويؤتَى بعمل الكافر في أقبَح صورة، فيؤضَع في كِفَّة الميزان، فيخفُّ وزنه حتى يقع في النار^(١).

وما أشار إليه ابنُ عباس قريبٌ مما قيل: يخلقُ اللهُ تعالى كلَّ جُزءٍ من أعمال العبادِ جوهراً، فيقع الوزنُ على تلك الجواهر. وردّه ابنُ فورك وغيره.

وفي الخبر: إذا خَفَّتْ حسناتُ المؤمن؛ أخرجَ رسولُ الله ﷺ بِطَاقَةً كَالْأَنْمَلَةِ، فيلقِيها في كِفَّة الميزان اليمنى التي فيها حسناته، فترجعُ الحسناتُ، فيقول ذلك العبدُ المؤمن للنبي ﷺ: بأبي أنت وأُمِّي، ما أحسنَ وجهك، وما أحسنَ خَلْقَكَ، فمن أنت؟! فيقول: «أنا محمدٌ نبيُّك، وهذه صلواتك التي كنت تُصَلِّي عليّ؛ قد وقَّيتك أحوجَ ما تكونُ إليها». ذكره القشيريُّ في «تفسيره»^(٢)؛ وذكر أن البطاقة - بكسر الباء - رُقعةٌ فيها رَقْمُ المَتَاعِ بلغة أهل مصر. وقال ابن ماجه: قال محمدُ بن يحيى^(٣): البطاقة الرُقعة، وأهل مصر يقولون لِلرُقعة: بِطَاقَةٌ.

وقال حذيفة: صاحبُ الموازين يومَ القيامة جبريلُ عليه السلام، يقول اللهُ تعالى: «يا جبريلُ، زنْ بينهم، فَرُدَّ من بعضِ على بعضٍ». قال: وليس ثمَّ ذهبٌ ولا فضةٌ؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أُخِذَ من حسناته فَرُدَّ على المظلوم، وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات المظلوم؛ فَتَحْمَلُ على الظالم؛ فيرجع الرجلُ وعليه مثلُ الجبال^(٤).

(١) أورده الواحدي في الوسيط ٣٥٠/٢، وأخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢٨٢)، وفي إسناده الكلبي، وهو مُتهم بالكذب كما في تقريب التهذيب ص ٤١٥.

(٢) وأورده الرازي في تفسيره ٢٧/١٣، وعزاه للواحدي في الوسيط.

(٣) الذهلي، أبو عبد الله النيسابوري الحافظ، وهو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (٤٣٠٠) السالف قريباً. وقوله هذا ذكره ابن ماجه عقب الحديث.

(٤) أخرجه الطبري ٦٩/١٠، وفي إسناده عبد العزيز بن أبان الأموي، تركه أحمد، وقال فيه ابن معين: كذاب خبيث يضع الحديث، كما في تهذيب التهذيب ٥٨١/٢ =

وروي عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، أُبْرِزْ إِلَى جَانِبِ الْكُرْسِيِّ عِنْدَ الْمِيزَانِ، وَانظُرْ مَا يُرْفَعُ إِلَيْكَ مِنْ أَعْمَالِ بَنِيكَ، فَمَنْ رَجَحَ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ رَجَحَ شَرُّهُ عَلَى خَيْرِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ فَلَهُ النَّارُ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنِّي لَا أُعَذِّبُ إِلَّا ظَالِمًا»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا نَشْكُرُونَ﴾^(١٥)

أي: جعلناها لكم قراراً ومهاداً، وهياًنا لكم فيها أسباب المعيشة. والمعاش جمع معيشة، أي: ما يُعَيِّشُ به من المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وما تكون به الحياة. يقال: عاش يَعِيشُ عَيْشاً وَمَعاشاً وَمَعِيشاً وَمَعِيشَةً وَعَيْشَةً.

وقال الزجاج^(٢): المَعِيشَةُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى العَيْشِ. ومَعِيشَةٌ في قول الأخفش وكثير من النحويين: مَفْعِلَةٌ^(٣).

وقرأ الأعرج: «مَعَائِشَ» بالهمز. وكذا روى خارجة بن مُضْعَب عن نافع^(٤).

قال النحاس^(٥): والهمزُ لِحْنٌ لا يجوز؛ لأنَّ الواحدةَ معيشة، أصلها مَعِيشَةٌ،

= والصحيح في باب رد المظالم عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مَظْلَمَةٌ لأحد من عِرْضِهِ أو شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُجِّلَ عَلَيْهِ». أخرجه أحمد (٩٦١٥) والبخاري (٢٤٤٩)، وسلف ٧٦/٢. وحديث المُفْلَسِ المشهور أخرجه أحمد (٨٠٢٩)، ومسلم (٢٥٨١) وسلف ٢٧٣/٤.

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٥٦) بنحوه مطولاً من حديث أبي هريرة ؓ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤٧/١٠، وقال: فيه الفضل بن عيسى الرقاشي، وهو كذاب. وقال فيه الحافظ ابن حجر في التقریب ص ٣٨٢: منكر الحديث، رُمي بالقدر. وينظر التذكرة للمصنف ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٢) في معاني القرآن ٣٢٠/٢ - ٣٢١.

(٣) معاني القرآن للأخفش ٥١١/٢ - ٥١٢، ومشكل إعراب القرآن ٢٨٣/١.

(٤) القراءات الشاذة ص ٤٢. وهذه القراءة عن نافع ليست المشهورة عنه، وقراءته لهذه اللفظة كقراءة الجماعة.

(٥) في إعراب القرآن ١١٥/٢.

فَزِيدَتْ أَلْفُ الْجَمْعِ^(١)، وهي ساكنة والياء ساكنة، فلا بد من تحريك؛ إذ لا سبيل إلى الحذف، والألف لا تُحَرِّك، فَحَرَّكَ الْيَاءَ بِمَا كَانَ يَجِبُ لَهَا فِي الْوَاحِدِ. ونظيره من الواو: مَنَارَةٌ وَمَنَاورٍ، وَمَقَامٌ وَمَقَاورٍ؛ كما قال الشاعر:

وَأُنِّي لِقَواً مَقَاورٍ لَمْ يَكُنْ جَرِيرٌ وَلَا مَوْلى جَرِيرٍ يَقُومُها^(٢)

وكذا: مُصيبةٌ وَمَصَوابٍ. هذا الجيد، ولغة شاذة: مصائب. قال الأخفش^(٣): إنما جاز مصائب؛ لأنَّ الواحدة مُعْتَلَّةٌ. قال الزجاج^(٤): هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول: مقائم. ولكن القول أنه مثل: وسادة وإسادة.

وقيل: لم يَجْزِ الهمزُ في مَعايِشَ لأنَّ المعيشة مَفْعَلَةٌ؛ فالياء أصلية، وإنما يُهْمَزُ إذا كانت الياء زائدة؛ مثل مدينة ومدائن^(٥)، وصحيفة وصحائف، وكريمة وكرائم، ووصيفة ووصائف^(٦)، وشبهه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ لما ذَكَرَ نِعَمَهُ؛ ذَكَرَ ابتداءَ خَلْقِهِ. وقد تقدّم معنى الخَلْقِ في غير موضع^(٧). «ثم صوّرناكم» أي: خلقناكم نُطْفَأً، ثم صوّرناكم، ثم إننا نُخبركم أنا قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. وعن ابن عباس والضحاك

(١) في النسخ: ألف الوصل، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص ١٢٣.

(٣) معاني القرآن ٥١٢/٢.

(٤) في معاني القرآن ٣٢٠/٢.

(٥) هذا على رأي من جعل مدائن من مدَن، وأما من جعلها من دانَ يَدِينُ فلم يهمز لأن الياء حينئذ أصلية.

ينظر معاني القرآن للأخفش ٥١٢/٢ والحجة للقراء السبعة ٨/٤ - ٩.

(٦) في (م): ووظيفة ووظائف.

(٧) ينظر ٣٤١/١ و٣٧٦.

وغيرهما: المعنى: خلقنا آدم، ثم صورناكم في ظهره^(١).

وقال الأخفش: «ثم» بمعنى الواو^(٢).

وقيل: المعنى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعني آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة:

اسجدوا لآدم، ثم صورناكم؛ على التقديم والتأخير.

وقيل: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعني آدم؛ ذُكِرَ بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، «ثُمَّ

صَوَّرْنَاكُمْ» راجع إليه أيضاً. كما يقال: نحن قتلناكم؛ أي: قتلنا سيّدكم. «ثم قلنا

للملائكة اسجدوا لآدم». وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير. عن ابن عباس أيضاً^(٣).

وقيل: المعنى: ولقد خلقناكم، يريد آدم وحواء؛ فآدم من التراب؛ وحواء من

ضلع من أضلعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك. فالمعنى: ولقد خلقنا أبويكم، ثم

صورناهما^(٤). قاله الحسن.

وقيل: المعنى: خَلَقْنَاكُمْ فِي ظَهْرِ آدَمَ، ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق.

هذا قول مجاهد. رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح^(٥). قال النحاس: وهذا أحسنُ

الأقوال. يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صورهم حين أخذ عليهم

الميثاق، ثم كان السجود بعد. ويقوي هذا: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ» [الأعراف: ١٧٢]، والحديث «أنه أخرجهم أمثال الذر، فأخذ عليهم

الميثاق»^(٦).

(١) أخرجه الطبري ٧٥/١٠ - ٧٧.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٥١٢/٢، وخطأه الزجاج في معاني القرآن له ٣٢١/٢، والنحاس في معاني

القرآن له ١٢/٣.

(٣) تفسير البيهقي ١٥٠/٢.

(٤) ذكر الزجاج نحوه في معاني القرآن ٣٢١/٢ - ٣٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ٧٨/١٠ بلفظ: قال مجاهد: «ولقد خلقناكم» قال: آدم، «ثم صورناكم» قال: في ظهر

آدم.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٥٥)، والسنائي في الكبرى (١١١٢٧) من حديث ابن عباس ؓ.

وقيل: «ثم» للإخبار، أي: ولقد خَلَقْنَاكُمْ، يعني في ظَهْر آدَمَ ﷺ، ثم صَوَّرْنَاكُمْ أي: في الأرحام. قال النحاس: هذا صحيحٌ عن ابن عباس^(١).

قلت: كلُّ هذه الأقوال مُحْتَمِلٌ، والصحيحُ منها ما يَعْضُدُهُ التنزيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يعني آدم. وقال: ﴿وَوَضَعْنَا رُءُوسَهُمْ عَلَى أَسْفَلِ السُّجُودِ﴾ [النساء: ١]، ثم قال: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جَعَلْنَا نَسْلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٣]. فآدَمُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ، ثم صُوِّرَ وَأُكْرِمَ بالسجود، وَذُرِّيَّتُهُ صُوِّرُوا فِي أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ بعد أن خُلِقُوا فِيهَا وفي أصْلابِ الآباء.

وقد تقدَّم في أول سورة الأنعام^(٢) أن كلَّ إنسان مخلوقٌ من نُطفةٍ وَتُرْبَةٍ؛ فتأمَّله.

وقال هنا: ﴿خَلَقْتُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، وقال في آخر «الحشر»: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الآية: ٢٤]. فذكر التصويرَ بعد البرء. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

وقيل: معنى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتُمْ﴾ أي: خَلَقْنَا الْأَرْوَاحَ أَوْلًا، ثم صَوَّرْنَا الْأَشْبَاحَ آخِرًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهِسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ استثناءٌ من غير الجنس. وقيل: من الجنس^(٣). وقد اختلف العلماء: هل كان من الملائكة أم لا؟ كما سبق بيانه في «البقرة»^(٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا نَسَجْدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ

مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾

فيه أربع مسائل:

(١) معاني القرآن للنحاس ١٢/٣ - ١٣، وأثر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٧٥/١٠.

(٢) ٣١٨/٨ - ٣١٩.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢٨٤/١.

(٤) ٤٣٨/١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ «ما» في موضع رَفْعٍ بالابتداء؛ أي: أيُّ شيء مَنَعَكَ؟ وهذا سؤالٌ توبيخ. ﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾ في موضع نَصْبٍ، أي: مِنْ أَنْ تَسْجُدَ. و«لا» زائدة^(١). وفي «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [الآية: ٧٥]، وقال الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلَ فَاسْتَعْجَلْتُ بِهِ نَعَمٌ مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُودَ نَائِلَهُ^(٢)

أراد: أَبَى جُودُهُ الْبُخْلَ، فزاد «لا».

وقيل: ليست بزائدة؛ فَإِنَّ الْمَنَعَ فِيهِ طَرَفٌ مِنَ الْقَوْلِ وَالِدَعَاءِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَالَ لَكَ أَلَا تَسْجُدُ؟ أَوْ مَنْ دَعَاكَ إِلَى أَلَا تَسْجُدُ؟ كَمَا تَقُولُ: قَدْ قَلْتُ لَكَ أَلَا تَفْعَلُ كَذَا.

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أَلَا تَسْجُدُ^(٣).

قال العلماء: الذي أحوجَه إلى تَرْكِ السُّجُودِ هُوَ الْكِبَرُ وَالْحَسَدُ؛ وَكَانَ أَضْمَرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ إِذَا أَمَرَ بِذَلِكَ. وَكَانَ أَمْرُهُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]. فَكَأَنَّهُ دَخَلَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾. فَإِنَّ فِي الْوُقُوعِ تَوْضِيحَ الْوَاقِعِ وَتَشْرِيفًا لِمَنْ وُقِعَ لَهُ؛ فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَلَا يَسْجُدُ إِذَا أَمْرُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ؛ وَقَعَتِ الْمَلَائِكَةُ سُجَّدًا، وَبَقِيَ هُوَ قَائِمًا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ؛ فَأَظْهَرَ بَقِيَامَهُ وَتَرَكَ السُّجُودَ مَا فِي ضَمِيرِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ﴾ أي: ما منعك من الانقياد

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٤.

(٢) تفسير الطبري ٨٣/١٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣٢٣/٢، وأمالى ابن السجري ٥٣٧/٢، والمحرم الوجيز ٣٧٨/٢، واللسان (نعم)، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٦٣٤/٢، وعندهم: قاتله، بدل: نائله. وعند الطبري والزجاج وابن منظور: الجوع، بدل: الجود.

قال السيوطي: قوله: لا يمنع الجود قاتله: أراد: الجود وإن قتله لا يمنعه، فقاتله منصوب على الحال، أي: لا يمنع الجود في حال قتله إياه، لأن الجود يُفقره، ويجوز أن ينتصب قاتله على أنه مفعول، أي أنه لا يمنع من يريد أن يقتله الجود بذلك عليه.

(٣) تفسير الطبري ٨٢/١٠ - ٨٤، وزاد المسير ١٧٤/٣.

لأمري؟ فأخرج سِرَّ ضميره فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاكَ﴾ يدلُّ على ما يقوله الفقهاء من أنَّ الأمر يقتضي الوجوب بمطلقه من غير قرينة؛ لأنَّ الذَّمَّ عُلِقَ على تَرْكِ الأمر المُطْلَق الذي هو قوله عزَّ وجلَّ للملائكة: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وهذا بيِّن^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فَضَلِّي عليه. فهذا من إبليس جوابٌ على المعنى. كما تقول: لمن هذه الدار؟ فيقول المخاطب: مالِكُها زيدٌ. فليس هذا عينَ الجواب، بل هو كلامٌ يرجعُ إلى معنى الجواب^(٢).

﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ فرأى أن النارَ أشرفُ من الطين؛ لِغُلُوها وَصُعودها وَخِفَّتِها، ولأنها جوهرٌ مُضِيءٌ.

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أوَّلُ مَنْ قاسَ إبليسُ، فأخطأ القياسَ. فمن قاسَ الدينَ برأيه قرَّنه اللهُ مع إبليس. قال ابن سيرين: وما عُبدتِ الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييس.

وقالت الحكماء: أخطأ عدوُّ الله من حيث فَضْلُ النارِ على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جمادٌ مخلوق^(٣). فإنَّ الطينَ أفضلُ من النار من وجوه أربعة:

أحدها: أن من جوهر الطين الرِّزَانَةُ والسُّكُونُ، والوَقَارُ والأناة، والحِلْمُ والحياء، والصبر. وذلك هو الدَّاعي لآدمَ عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرُّع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخِفَّةُ والطَّيْشُ، والحِدَّةُ والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الدَّاعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإضرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعة

(١) أحكام القرآن للكميا الهراسي ١٣٢/٣.

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للنحاس ١٥/٣، وزاد المسير ١٧٤/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣٧٦/٢، وتفسير البغوي ١٥٠/٢ وأخرج الأقوال السالفة الطبري ٨٧/١٠.

وَالشَّقَاءِ^(١)؛ قاله القمّال.

الثاني: أن الخبرَ ناطقٌ بأن ترابَ الجنةِ مسكٌ أذفر^(٢)، ولم ينطق الخبرُ بأن في الجنةِ ناراً وأن في النارِ تراباً.

الثالث: أن النارَ سببُ العذاب، وهي عذابُ الله لأعدائه؛ وليس الترابُ سبباً للعذاب.

الرابع: أن الطينَ مستغنٍ عن النار، والنارُ محتاجةٌ إلى المكان، ومكانها التراب^(٣).

قلت: ويحتَمِل قولاً خامساً: وهو أن الترابَ مسجداً وظهوراً؛ كما جاء في صحيح الحديث^(٤). والنار تخويّفٌ وعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال ابن عباس: كانت الطاعةُ أولى إبليسَ من القياس، فعصى ربّه، وهو أوّل من قاسَ برأيه. والقياسُ في مخالفةِ النصِّ مردودٌ^(٥).

الرابعة: واختلف الناسُ في القياسِ إلى قائل به، وراؤ له؛ فأما القائلون به فهم الصحابة والتابعون، وجمهور من بعدهم، وأن التعبّد به جائز عقلاً واقع شرعاً، وهو

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٨٦/١٠، وتفسير البغوي ١٥٠/٢ - ١٥١.

(٢) أخرج مسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك ؓ - ضمن حديث الإسراء - قال: قال رسول الله ﷺ: «...ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». وأخرج أحمد (١٢٥٤٢)، والبخاري (٦٥٨١) عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدُرّ المُجَوَّف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيئه مسكٌ أذفر». والمسك الأذفر: هو الطيب الريح. النهاية (ذفر).

(٣) ذكر نحو هذه المعاني وغيرها في فضل الطين على النار ابن الجوزي في زاد المسير ١٧٤/٣.

(٤) كما في قوله ﷺ: «...جعلت لي الأرض مسجداً وظهوراً...» أخرجه أحمد (١٤٢٦٤) والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر ؓ.

(٥) تفسير أبي الليث ٥٣٢/١ - ٥٣٣، وقول ابن عباس رضي الله عنهما سلف قريباً.

الصحيح. وذهب القفال من الشافعية وأبو الحسين البصري^(١) إلى وجوب التعبد به عقلاً^(٢). وذهب النظام إلى أنه يستحيل التعبد به عقلاً وشرعاً، وردّه بعض أهل الظاهر^(٣). والأوّل الصحيح. قال البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: المعنى: لا عِزْمَةٌ لأحدٍ إلا في كتاب الله، أو سنة نبيّه، أو في إجماع العلماء؛ إذا وُجِدَ فيها الحكم، فإن لم يُوجَدْ فالقياس^(٤). وقد ترجم على هذا: باب من شبه أصلًا معلوماً بأصلٍ مبيّن قد بيّن الله حكمهما^(٥) ليفهم السائل. وترجم بعد هذا: باب الأحكام التي تُعرف بالدلائل، وكيف معنى الدلالة وتفسيرها^(٦).

وقال الطبري: الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ وإجماع الأمة هو الحقّ الواجب، والفرض اللازم لأهل العلم، وبذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ، وعن جماعة الصحابة والتابعين.

وقال أبو تمام المالكي^(٧): أجمعت الأمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والورق في الزكاة. وقال أبو بكر: أقيّلوني بيعتي. فقال عليّ: والله، لا نُقيّلُك ولا نَسْتقيّلُك^(٨)، رَضِيكَ رسولُ الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاك

(١) محمد بن علي بن الطيّب، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف الكلامية، له كتاب المعتمد في أصول الفقه. توفي سنة (٤٣٦هـ). السير ٥٨٧/١٧.

(٢) المحصول في علم أصول الفقه للرازي ٢٢/٥.

(٣) وكذا نسب ابن قدامة المقدسي في روضة الناظر ٣/٨٠٦ ردّ القياس العقلي والشرعي للنظام وأهل الظاهر، لكن الجويني نسب ذلك في البرهان ٢/٤٩٠ - ٤٩١ لأهل الظاهر فقط، وذكر أن مذهب النظام هو القول بالقياس العقلي وجحد القياس الشرعي.

(٤) أشار البخاري رحمه الله إلى كتابه الاعتصام بإثر الحديث (٧٢٧١) حيث قال: ينظر في أصل كتاب الاعتصام. وقد أورد الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/٢٤٦ نحو كلام البخاري أعلاه، ونسبه لابن بطال.

(٥) في (د) و(ز) و(م): حكمها، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري في ترجمة الحديث (٧٣٥٦).

(٦) ترجمة الحديث (٧٣٥٦).

(٧) لعله علي بن محمد بن أحمد المصري، صاحب الأبهري، له مختصر في الخلاف يُسمّى نكت الأدلة وكتاب في أصول الفقه. الديباج المذهب ١/١٠٠.

(٨) قوله: ولا نستقيلك، من (م).

لدينا^(١)؟! ففاسَ الإمامةَ على الصلاة. وقاسَ الصديقُ الزكاةَ على الصلاة، وقال: والله لا أفرِّق بين ما جمع الله^(٢). وصرَّحَ عليٌّ بالقياس في شارب الخمر بمحضَرٍ من الصحابة، وقال: إنه إذا سَكِرَ هَدَى، وإذا هَدَى افترى فحدَّه حدَّ القاذف^(٣). وكتبَ عمرُ إلى أبي موسى الأشعري كتاباً فيه: الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يَخْتَلِجُ في صدرك مما لم يَبْلُغْكَ في الكتاب والسنة، إعرِفَ الأمثالَ والأشباه، ثم قِسِ الأمورَ عند ذلك، فاعمِدْ إلى أحبِّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحقِّ فيما تَرى. الحديثَ بطوله. ذكره الدارقطني^(٤). وقد قال أبو عُبيدة لعمر رضي الله عنهما في حديث الوَبَاء، حين رَجَعَ عمرٌ من سَرَخ^(٥): نَفِرُ^(٦) من قَدَرِ الله؟ فقال عمرٌ: نعم، نَفِرُ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله. ثم قال له عمر: أرايتَ^(٧). فقايَسَه وناظرَه بما يُشبهه من مسألته بمحضَرِ المهاجرين والأنصار، وحَسْبُكَ.

وأما الآثارُ وآيُ القرآن في هذا المعنى فكثير، وهو يدلُّ على أن القياس أصلٌ من أصول الدين، وعِصْمَةٌ من عِصْمِ المسلمين، يرجعُ إليه المجتهدون، وَيَفْرَعُ إليه العلماءُ العاملون، فيستنبطون به الأحكام، وهذا قولُ الجماعة الذين هم الحُجَّة، ولا يُلْتَفَتُ إلى من شدَّ عنها. وأما الرأي المذمومُ والقياسُ المُتكلِّفُ المنهِيٌّ عنه فهو ما لم

(١) سلف ٤٠٦/١ - ٤٠٧.

(٢) أخرجه أحمد (٦٧)، والبخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ؓ، بلفظ: قال أبو بكر ؓ: والله، لأقاتِلُنَّ من فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٨٤٢/٢ عن ثور بن زيد الدبلي، أن عمر ؓ استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال له علي ؓ: نرى أن تجلده ثمانين... وذكره. قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير ٧٥/٤: هو منقطع؛ لأن ثوراً لم يلحق عمر بلا خلاف، لكن وصله النسائي في الكبرى [٥٢٦٩] من وجه آخر عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس. وينظر فتح الباري ٦٩/١٢.

(٤) برقم (٤٤٧١).

(٥) مدينة افتتحها أبو عُبيدة، وهي اليرموك والجابية مُتصِلات. فتح الباري ١٠/١٨٤.

(٦) في (ظ): أفرار، وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم (والحديث فيهما كما سيأتي): أفراراً.

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) مطولاً، وهو في مسند أحمد (١٦٨٣) مختصراً.

يكن على هذه الأصول المذكورة؛ لأن ذلك ظنٌّ ونَزْعٌ^(١) من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكلُّ ما يُورِدُهُ الْمُخَالِفُ من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذمِّ القياس؛ فهي محمولةٌ على هذا النوع من القياس المذموم؛ الذي ليس له في الشرع أصلٌ معلوم. وتتميمُ هذا البابِ في كتب الأصول^(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنهَا﴾ أي: من السماء. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنَّ أهلها الملائكة المتواضعون. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: من الأدلِّين. ودلُّ هذا أنَّ مَنْ عَصَى مَوْلَاهُ فهو ذليلٌ. وقال أبو رَوْقٍ وَالبَجَلِيُّ: «فاهبِطْ منها» أي: من صورتك التي أنت فيها^(٣)؛ لأنه افتخر بأنه من النار، فسُوِّهت صورته بالإظلام وزوالِ إشراقه.

وقيل: «فاهبِطْ منها» أي: انتقلْ من الأرض إلى جزائر البحار، كما يقال: هَبَطْنَا أرضَ كذا، أي: انتقلنا إليها من مكانٍ آخر، فكأنه أُخْرِجَ من الأرض إلى جزائر البحار، فسُلْطَانُهُ فِيهَا، فلا يدخلُ الأرضَ إلا كهَيْئَةِ السَّارِقِ؛ يخافُ فيها حتى يخرج منها^(٤). والقولُ الأوَّلُ أظهرٌ، وقد تقدَّم في «البقرة»^(٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٤﴾

سأل النَّظْرَةَ والإمهالَ إلى يومِ البعث والحساب؛ طلبَ ألا يموتَ؛ لأنَّ يومَ

(١) في (د) و(ز): وبعد.

(٢) البرهان للجويني ٤٨٧/٢ وما بعدها، والمحصول للرازي ٥/٥ وما بعدها.

(٣) أورد نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥١٥/٤، وذكر أن الثعلبي حكاه عن الحسن وأبي العالية. أبو روق: هو عطية بن الحارث الهمداني. والبجلي: هو الحسين بن الفضل، أبو علي الكوفي المفسر.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٥٣٣/١، وتفسير البغوي ١٥١/٢.

(٥) ٤٨٦/١.

الْبَعْثِ لَا مَوْتَ بَعْدَهُ، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾. قال ابن عباس والسُّدِّي وغيرهما: أَنْظَرَهُ إِلَى النَّفْخَةِ الْأُولَى حَيْثُ يَمُوتُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ. وَكَانَ طَلَبُ الْإِنظَارِ إِلَى النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ حَيْثُ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَبَى اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ^(١).
وقال: ﴿إِلَّا يَوْمَ يَبْعَثُونَ﴾، ولم يتقدّم ذِكْرُ مَنْ يُبْعَثُ؛ لِأَنَّ الْقِصَّةَ فِي آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، فَدَلَّتِ الْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الْمَبْعُوثُونَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾
فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِيمَا آغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء: إيقاع الغي في القلب، أي: فيما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار. وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار. وقد تقدّم في «البقرة»^(٢).

قيل: معنى الكلام القَسَمُ، أي: فبإغوائك إِيَّاي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ عَلَى صِرَاطِكَ، أَوْ فِي صِرَاطِكَ، فَحُذِفَ. دَلِيلُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ فِي «ص»: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية: ٨٢]، فَكَأَنَّ إِبْلِيسَ أَعْظَمَ قَدْرَ إِغْوَاءِ اللَّهِ إِيَّاهُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْلِيطِ عَلَى الْعِبَادِ، فَأَقْسَمَ بِهِ إِعْظَاماً لِقَدْرِهِ عِنْدَهُ.

وقيل: الباء بمعنى اللّام، كأنه قال: فلإغوائك إِيَّاي. وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى: فمع إغوائك إِيَّاي. وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شيء أغواه؟. وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبِمَ آغْوَيْتَنِي؟ وقيل: المعنى: فيما أهلكتني بلعنيك إِيَّاي.

والإغواء: الإهلاك، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [مريم: ٥٩] أي: هلاكاً. وقيل: فيما أضللتني - والإغواء: الإضلال والإبعاد - قاله ابن عباس^(٣). وقيل:

(١) أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٩٩/٤، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ٤٤٤/١.

(٣) أخرجه الطبري ٩١/١٠.

خَيَّبْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ^(١)، ومنه قولُ الشاعر:

وَمَنْ يَغْوِ لَا يَغْدَمُ عَلَى الْغَيِّ لَأْتَمًا^(٢)

أي: مَنْ يَخْبُ.

وقال ابن الأعرابي: يقال: غَوَى الرجلُ يَغْوِي غَيًّا: إذا فسَدَ عليه أمرُه، أو فسَدَ هو في نفسه، وهو أحدُ معاني قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، أي: فسَدَ عَيْشُهُ في الجنة. ويقال: غَوِيَ الفَصِيلُ: إذا لم يَدْرَ لَبَنُ أُمِّهِ^(٣).

الثانية: مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ أن الله تعالى أضلَّهُ وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواءَ في هذا إلى الله تعالى، وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادرٌ عن إرادته تعالى.

وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليسَ الذي طاعوه في كلِّ ما زَيَّنَه لهم، ولم يُطاعوه في هذه المسألة، ويقولون: أخطأ إبليسُ، وهو أهلٌ للخطأ، حيث نسبَ الغوايةَ إلى ربِّه، تعالى الله عن ذلك.

فيقال لهم: وإبليس؛ وإن كان أهلاً للخطأ، فما تصنعون في نبيِّ مُكْرَمٍ معصوم، وهو نوحٌ عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤) [هود: ٣٤]. وقد روي أن طاووساً جاءه رجلٌ في المسجد الحرام، وكان مُتَهَمًا بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه، فقال له طاووس: تقومُ أو تُقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه؟! فقال: إبليسُ

(١) تنظر هذه المعاني في المحرر الوجيز ٢/٣٨٠، والنكت والعيون ٢/٢٠٦، وتفسير البغوي ٢/١٥١، وزاد المسير ٣/١٧٦، وتفسير الرازي ١٣/٣٨.

(٢) قائله المُرقَّش الأصغر، وصلده: فمن يلقَ خيراً يحمده الناسُ أمره. وهو في المفضليات ص ٢٤٧، والشعر والشعراء ١/٢١٥.

(٣) تهذيب اللغة ٨/٢١٨ بنحوه.

(٤) خز الغلاصم لشيث بن إبراهيم ص ٢٨.

أفقه منه، يقول إبليسُ: رَبِّ بما أُغْوَيْتَنِي، ويقول هذا: أنا أُغْوِي نفسي^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالصدِّ عنه، وتزيين الباطل حتى يَهْلِكُوا كما هَلَكَ، أو يضلُّوا كما ضلَّ، أو يُخَيَّبُوا كما خَيَّبَ؛ حَسَبَ ما تقدَّم من المعاني الثلاثة في «أغويتني»^(٢).

والصراط المستقيم: هو الطريقُ الموصلُ إلى الجنة. و«صراطك» منصوبٌ على حذفٍ على أو في من قوله: «صراطك المستقيم»؛ كما حكى سيبويه^(٣) «ضرب زيد الظهرَ والبطنَ». وأنشد:

لَدُنْ بِهَرِّ الكَفِّ يَغْسِلُ مَثْنَهُ فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ^(٤)

ومن أحسن ما قيل في تأويل: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: لأُصَدِّتَهُمْ عن الحقِّ، وأُرَغَّبُهُمْ في الدنيا، وأشكَّكُهُمْ في الآخرة^(٥). وهذا غاية في الضلالة، كما قال: ﴿وَلَأَضِلَّ لَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] حسب ما تقدَّم^(٦).

وروى سفيان، عن منصور، عن الحكم بن عتيبة قال: «من بين أيديهم»: من دنياهم، «ومن خلفهم»: من آخرتهم، «وعن أيمانهم» يعني حسناتهم، «وعن شمائلهم» يعني سيئاتهم^(٧).

(١) ذكرها الزمخشري في كشافه ٧٠/٢، وجعلها من تكاذيب المجتبره وردَّ عليه ابن المنير في الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال.

وللتوسُّع في مسألة خلق الأفعال ينظر الإنصاف للباقلاني ص ١٤٤ والإرشاد للجويني ص ١٧٣.

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) الكتاب ٣٦/١ و ١٥٨ و ٢١٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١١٧/٢، والبيت لساعدة بن جُوَيْهَة الهذلي، يصف فيه رُمحه، وهو في شرح ديوان الهذليين ١١٢٠/٣. وفيه: لُدُّ، بدل: لَدُنْ. قال شارحه: قوله: لُدُّ، أي: تَلَدُّ الكَفِّ بهزّه. وقوله: يعسل مثنه فيه، أي: في كَفِّه، يعسل، أي: يضطرب. كما عسل الطريقُ الثعلبُ، أي: في الطريق، وهو اضطرابه.

(٥) أخرجه الطبري ٩٩/١٠ بنحوه من قول الحكم والسدي.

(٦) ١٣٥/٧.

(٧) أخرجه الطبري ٩٨/١٠.

قال النحاس^(١): وهذا قولٌ حسنٌ، وشرُّه: أن معنى «ثم لآتينهم من بين أيديهم»: من دنياهم؛ حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة، «ومن خلفهم»: من آخرتهم؛ حتى يكذبوا بها، «وعن أيماهم»: من حسناتهم وأموال دينهم. ويدلُّ على هذا قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٣٨]، «وعن شمائلهم» يعني سيئاتهم، أي: يتبعون الشهوات، لأنه يُزيئها لهم.

﴿وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: مؤحدين طائعين؛ مظهرين الشكر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَمَّا نَبَاكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ

أَجْمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من الجنة. ﴿مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾. «مَذْمُومًا» أي: مذمومًا، والذَّمُّ: العيب^(٢)، بتخفيف الميم. قال ابن زيد: مذمومًا ومذمومًا سواء^(٣)؛ يقال: ذأمته، وذممته، وذمته؛ بمعنى واحد.

وقرأ الأعمش: «مَذْمُومًا»^(٤)، والمعنى واحد؛ إلا أنه خفف الهمزة. وقال مجاهد: المَذْمُومُ: المنفي. والمعنيان متقاربان. والمدحور: المُبْعَدُ المطرود^(٥)؛ عن مجاهد وغيره. وأصله الدَّفْع.

﴿لَمَّا نَبَاكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾ اللام لام القسم، والجواب: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ». وقيل: «لَمَّا نَبَاكَ» لام توكيد. «لَأَمْلَأَنَّ» لام قسم، والدليل على هذا أنه يجوز في غير القرآن^(٦) حذف اللام الأولى، ولا يجوز حذف الثانية. وفي الكلام

(١) في معاني القرآن ١٦/٣ - ١٧، وما قبله منه.

(٢) الصحاح (ذام)، قال الجوهري: يُهْمَز ولا يُهْمَز.

(٣) أخرجه الطبري ١٠٤/١٠.

(٤) القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحتسب ٢٤٣/١.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٢١/٣، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٠٣/١٠.

(٦) في (د) و(ز) و(م): القراءة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١١٧/٢ - ١١٨، والكلام منه.

معنى الشرط والمجازاة، أي: مَنْ تَبِعَكَ عَذَّبْتَهُ. ولو قلت: مَنْ تَبِعَكَ أَعَذَّبَهُ، لم يُجْزَ، إلا أن تريد: لأَعَذَّبْتَهُ.

وقرأ عاصمٌ من رواية أبي بكر بن عيَّاش^(١): «لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» بكسر اللام. وأنكره بعضُ النحويين. قال النحاس^(٢): وتقديره - والله أعلم -: مِنْ أَجْلِ مَنْ تَبِعَكَ، كما يقال: أكرمتُ فلاناً لك. وقد يكون المعنى: الدَّخْرُ لِمَنْ تَبِعَكَ.

ومعنى ﴿وَمِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾ أي: منكم ومن بني آدم؛ لأنَّ ذِكْرَهُمْ قد جرى، إذ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] خاطبَ ولدَ آدم.

قوله تعالى: ﴿وَبِهَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

قال لآدمَ بعد إخراج إبليسَ من موضِعِهِ من السماء: اسْكُنْ أَنْتَ وَحِوَاءُ الْجَنَّةِ. وقد تقدَّم في البقرة^(٣) معنى الإسكانِ، فأغنى عن إعادته. وتقدَّم معنى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هناك^(٤). والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: إليهما. قيل: داخلَ الجنةَ بإدخال الحية إِيَّاه. وقيل: من خارج، بالسلطنة التي جعلت له. وقد مضى هذا في «البقرة»^(٥).

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢، والكشاف ٧١/٢، والبحر المحيط ٧٧/٤، والقراءة المشهورة عن أبي بكر ابن عيَّاش - وهو شعبة - عن عاصم كقراءة الجماعة.

(٢) في إعراب القرآن ١١٧/٢، وما قبله منه.

(٣) ٤٤٥/١.

(٤) ٤٥٢/١ وما بعدها.

(٥) ٤٦٤/١ وما بعدها، وسلف الكلام أن ذكر الحية من الإسرائيليات.

وَالْوَسْوَسةُ: الصوتُ الخَفِيّ، وَالْوَسْوَسةُ: حديثُ النفس؛ يقال: وَسْوَستَ إليه نفسه وَسْوَسةً وَوَسْوَاساً، بكسر الواو. وَالْوَسْوَاسُ؛ بالفتح: الاسم، مثل الزَّلْزَالِ وَالزَّلْزَالِ^(١). ويقال لهمس الصائِد والكَلابِ وَأصواتِ الحَلْيِ: وَسْوَاس. قال الأَعشى:

تَسْمَعُ لِلحَلْيِ وَسْوَاساً إِذَا انصرفتُ كما استعانَ بِرِيحِ عِشْرِقٍ رَجَلُ
وَالْوَسْوَاسُ: اسمُ الشيطان^(٢)، قال الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾
[الناس: ٤].

﴿يُبْدِي لَمَنَّا﴾ أي: لِيُظهِرَ لهما. وَاللَّامُ العاقبة، كما قال: ﴿لِيَكُونَ لَهُنَّ
عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وقيل: لَامُ كِي.
و﴿وُورِي﴾ أي: سَتِرَ وَغُطِّيَ عنهما^(٣). ويجوز في غير القرآن: أُوْرِي، مثل:
أَقْتَتْ^(٤).

و﴿مِن سَوَاءَ تِهَمًا﴾ من عوراتهما. وَسُمِّيَ الفرجُ عورةً لأن إظهاره يسوءُ صاحبه. ودلَّ
هذا على قُبْحِ كَشْفِهَا، فقيل: إنما بدتُ سوءاتهما لهما لا لِغيرهما؛ كان عليهما نُورٌ؛
لا تُرى عوراتهما، فزال النُّورُ^(٥). وقيل: ثوبٌ؛ فتهافت، والله أعلم.
﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ﴾ «أن» في موضع نصب، بمعنى: إِلَّا كراهيةً أَنْ؛ فحذف

(١) لفظ: والزَّلْزَالِ، ليس في (د) و(م).

(٢) الصحاح (وسوس)، والبيت في ديوان الأَعشى ص ١٠٥، وهو من معلقته. قال النحاس في شرح
القصاصد المشهورات ١٣١/٢: قوله: إِذَا انصرفت: يريد إِذَا انقلبت إلى فراشها، قال الأصمعي:
العشريق: شجيرة مقدار ذراع؛ لها أكام فيها حُبٌ صغار، إِذَا جَعَّتْ فمرَّت به الريح تحرك الحُبَّ، فشبهه
صوت الحَلْيِ بخشخشته على الحصى. اه. وفي اللسان (زجل): نبت رَجُلٌ: صَوَّتت فيه الريح.

(٣) تفسير البغوي ١٥٢/٢، والمحرم الوجيز ٣٨٤/٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١١٨/٢.

(٥) أخرجه الطبري ١١٤/١٠ بنحوه من قول وهب بن منبه، وصحَّح إسناده ابن كثير في تفسيره ٣٩٨/٣.
والنُّورُ: الزُّهر، أو الأبيض منه. القاموس المحيط (نور).

المضاف. هذا قول البصريين. والكوفيون يقولون: لئلا تكونا. وقيل: أي: إلا أن لا تكونا مَلَكَينِ تَعْلَمَانِ الخَيْرَ وَالشَّرَّ^(١).

وقيل: طَمِعَ آدمُ في الخُلُودِ؛ لَأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الملائكةَ لا يموتون إلى يوم القيامة^(٢).

قال النحاس: وبيّن الله عزّ وجلّ فضلَ الملائكة على جميع الخَلْقِ في غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ﴾، ومنه: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]، ومنه: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمَقْرُونُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال الحسن: فَضَّلَ اللهُ الملائكةَ بالصُّورِ والأجنحةِ والكرامة. وقال غيره: فَضَّلَهُمْ جَلًّا وَعِزًّا بالطاعة وتَرْكِ المعصية، فهذا^(٣) يقع التفضيل في كلِّ شيء^(٤).

وقال ابن فورك^(٥): لا حُجَّةَ في هذه الآية؛ لَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مَلَكَينِ في أن لا يكون لهما شهوةٌ في طعام.

واختيارُ ابن عباس والزجاج^(٦) وكثيرٍ من العلماء تفضيلُ المؤمنين على الملائكة، وقد مضى في «البقرة»^(٧).

وقال الكلبيُّ: فَضَّلُوا على الخلائق كلِّهم، غيرَ طائفةٍ من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت؛ لأنَّهم من جُملة رُسُلِ الله. وتمسَّك كلُّ فريق بظواهر من الشريعة، والفضلُ بيد الله.

وقرأ ابن عباس: «مَلَكَينِ» بكسر اللام، وهي قراءة يحيى بن أبي كثير

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٨/٢، والمحرر الوجيز ٣٨٥/٢.

(٢) ذكر نحوه الرازي في تفسيره ٤٧/١٤.

(٣) في (م): فلهاذا.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١١٨/٢ - ١١٩، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٢٩١).

(٥) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٨٥/٢.

(٦) في معاني القرآن للزجاج ١٣٦/٢: والملائكة - والله أعلم - أكرم من النبيين، ألا ترى أن نوحاً عليه السلام قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ آفَاقٍ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١].

(٧) ٤٣٠/١ - ٤٣١ و ٤٣٦.

الضحَّاك^(١). وأنكرَ أبو عمرو بن العلاء كسرَ اللَّامِ، وقال: لم يكنْ قبلَ آدمَ ﷺ مَلِكٌ فيصيراً مَلِكَيْنِ. قال النحَّاس^(٢): ويجوز على هذه القراءة إسكانُ اللَّامِ، ولا يجوز على القراءة الأولى لِحِفَّةِ الفتحَةِ.

قال ابن عباس: أتاهما الملعونُ من جهة المُلْكِ؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وزعم أبو عُبيد أن احتجاج يحيى بن أبي كثير بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ، ولكن الناس على تركها، فلهذا تركناها.

قال النحَّاس^(٣): «إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ» قراءةٌ شاذَّةٌ. وقد أنكرَ على أبي عُبيد هذا الكلامُ، وجُعِلَ من الخطأ الفاحش. وهل يجوز أن يتوهم آدمُ عليه السلام أنه يصلُّ إلى أكثر من ملك الجنة، وهي غاية الطالبين. وإنما معنى «وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى»: المُقام في مُلكِ الجنة، والخلودُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: حلفَ لهما؛ يقال: أقسمَ إقساماً، أي: حلفَ. قال الشاعر:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم^(٤) ألدُّ من السلوى إذا ما نشورها^(٥)

وجاء «فاعلت» من واحد، وهو يردُّ على مَنْ قال: إِنَّ الْمُفَاعِلَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ اثْنَيْنِ، وقد تقدَّم في «المائدة»^(٦).

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحور الوجيز ٢/٣٨٥، وأخرجها الطبري ١٠/١٠٨.

(٢) معاني القرآن ٣/٢٠ - ٢١.

(٣) في إعراب القرآن ٢/١١٨ وما قبله منه.

(٤) في النسخ الخطية: وقاسمها بالله جهداً لأنتما. والمثبت من (م) والمصادر.

(٥) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وقوله: السلوى: العسل. ونشورها، أي: نجتها، وسلف ٢/١١٩.

(٦) ١٢٦/٨، وينظر ١/٢٧ - ٢٨.

﴿إِنِّي لَكَمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ ليس «لكما» داخلاً في الصلّة، والتقدير: إنّي ناصحٌ لكما لمن الناصحين، قاله هشام النّحوي^(١). وقد تقدّم مثله في «البقرة»^(٢). ومعنى الكلام: اتّبعاني أرسدكما، ذكره قتادة^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَدَلَلْنَاهَا بِرُؤُوسِهِمْ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطُفِقَا بِيَخْتَصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْتُهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّآ تَتَفَرَّرْنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَلَلْنَاهَا بِرُؤُوسِهِمْ﴾: أوقعهما في الهلاك. قال ابن عباس: غرّهما باليمين. وكان يظنُّ آدمُ أنه لا يحلفُ أحدٌ بالله كاذباً^(٤)، فغرّهما بوسوسته وقسمه لهما. وقال قتادة: حلف بالله لهما حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله. كان بعض العلماء يقول: مَنْ خادعنا بالله خَدَعْنَا^(٥). وفي الحديث عنه ﷺ: «المؤمنُ غرٌّ كريمٌ، والفاجرُ خبٌّ لئيمٌ»^(٦). وأنشد نبطويه:

إِنَّ الْكِرِيمَ إِذَا تَشَاءَ خَدَعْتَهُ وَتَرَى السَّيِّئَ مُجْرِباً لَا يُخَدَعُ^(٧)

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٩/٢. وهشام النحوي: هو ابن معاوية.

(٢) ٤٠٦/٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٠٩/١٠.

(٤) زاد المسير ١٨٠/٢، وأخرجه الطبري ١١١/١٠ - ١١٢ بنحوه مطولاً.

(٥) أخرجه الطبري ١٠٩/١٠ - ١١٠.

(٦) أخرجه أحمد (٩١١٨)، وأبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤) من حديث أبي هريرة ؓ. وقوله: «غرٌّ كريمٌ»: قال ابن الأثير في النهاية (غرر): أي: ليس بذئ نكر فهو ينخدع لانقياده ولينه، وهو ضدُّ الخَبِّ. يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقِلَّةُ الفطنة للشرِّ، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً، ولكنه كرمٌ وحسنٌ خلق. وقوله: «خبٌّ»: قال ابن الأثير في النهاية (خبب): الخَبُّ - بالفتح -: الخداع، وقد تكسر خاؤه، فأما المصدر فبالكسر لا غير.

(٧) لم نقف عليه.

﴿فَدَلَّهُمَا﴾ يقال: أدلَى دَلْوَهُ: أرسلها. ودَلَّها: أخرجها. وقيل: «دَلَّاهُمَا» أي: دلَّلهما، من الدَّالَّة، وهي الجُرْأَة. أي جرَّأهما على المعصية، فخرجا من الجنة^(١).
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رِّقِّ الْجِنَّةِ﴾
فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أي: أكلا منها. وقد مضى في «البقرة»^(٢) الخلاف في هذه الشجرة، وكيف أكل آدم منها. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ أكلت حواءَ أولاً فلم يُصْنِبها شيء، فلما أكل آدم حلَّت العقوبة؛ لأنَّ النَّهْيَ ورد عليهما كما تقدَّم في «البقرة»^(٣). قال ابن عباس: تقلَّص النَّورُ الذي كان لباَسهما، فصار أظفاراً في الأيدي والأرجل^(٤).

الثانية: ﴿وَطَفِقَا﴾ ويجوز إسكانُ الفاء^(٥). وحكى الأخفش^(٦): طَفِقَ يَطْفِقُ، مثل ضَرَبَ يَضْرِبُ؛ يقال: طَفِقَ، أي: أخذ في الفعل.

﴿يَخْصِفَانِ﴾ قرأ الحسن بكسر الخاء وشدَّ الصاد^(٧)، والأصلُ: «يَخْتَصِفَانِ»

(١) ينظر تهذيب اللغة ١٤/١٧١ - ١٧٢ .

(٢) ٤٥٤/١ - ٤٥٥ .

(٣) ٤٥٧/١ - ٤٥٨ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٠٠) عنه ﷺ قال: لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال، فبقي في أطراف أصابعه. و(٨٣٤٥) بلفظ: كان لباس آدم عليه السلام الظفر بمنزلة الريش على الطير، فلما عصى سقط عنه لباسه، وتركت الأظفار زينةً ومنافع. في إسناده الأول الحسن بن أبي جعفر الجُفري، قال فيه البخاري: منكر الحديث، وضعَّفه أحمد والنسائي، كما في تهذيب الكمال ٦/٧٣. وفي إسناده الثاني النضر بن عبد الرحمن أبو عمر الخزاز، وضعَّفه أحمد وقال: ليس بشيء، وقال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروي عنه، وقال البخاري: منكر الحديث، كما في تهذيب التهذيب ٤/٢٢٥ .

(٥) يعني في غير القرآن، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/١١٩، ولعله يريد بجواز إسكان الفاء طلب الخفَّة، فقد ذكر نحوه النحاس في إعراب القرآن ١/٤٩٩ في قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» [النساء: ١٤٨] فقال: يجوز إسكان اللام. وسلف نحوه قريباً في الآية (٢٠) في قوله: «مَلَكَيْنِ».

(٦) في معاني القرآن له ٢/٥١٥ .

(٧) المحتسب ١/٢٤٥ .

فأدغم، وكُسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابنُ بُريدة ويعقوبُ بفتح الخاء، ألقيا حركة التاء عليها. ويجوز: «يُخَصِّفَانِ» بضم الياء، من خَصَّفَ يُخَصِّفُ^(١). وقرأ الزُّهريُّ: «يُخَصِّفَانِ» مِنْ أَخَصَّفَ^(٢)، وكلاهما منقولٌ بالهمز أو التضعيف.

والمعنى: يقطعان الورقَ ويلزقانه لِيَسْتترا به، ومنه خَصَّفَ النَّعْلَ. وَالخَصَّافُ الذي يُرْقِعُهَا، والمِخَصِّفُ: المِثْقَبُ^(٣).

قال ابن عباس: وهو ورقُ التين^(٤). ويُروى أَنَّ آدَمَ عليه السلام لما بدتْ سوائته وظهرتْ عورته طاف على أشجار الجنة يسأل^(٥) منها ورقةً يُغطي بها عورته؛ فزجرته أشجارُ الجنة حتى رَحِمته شجرةُ التين فأعطته ورقةً. ف «طَفِقًا» يعني: آدم وحواء «يُخَصِّفَانِ» عليهما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ»، فكافأ الله التينَ بأنَّ سَوَى ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة، وأعطاه ثمرتين في عام واحد، مرتين^(٦).

الثالثة: وفي الآية دليلٌ على قُبْحِ كَشْفِ العورة، وأنَّ الله أوجب عليهما الستر؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها^(٧)، ولا يمتنع أن يُؤمرا بذلك في الجنة، كما قيل لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾. وقد حكى صاحب «البيان»^(٨) عن الشافعي^(٩) أن مَنْ لم يجد

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٩/٢. وقراءة: «يُخَصِّفَانِ» بفتح الخاء ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٢، ونسبها للزهري، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢٤٥/١ دون نسبة. وقراءة يعقوب - وهو من العشرة - المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

وقراءة: «يُخَصِّفَانِ» بضم الياء، نسبها ابن جني لابن بُريدة والحسن والزهري والأعرج.

(٢) المحتسب ٢٤٥/١، والمحزر الوجيز ٣٨٦/٢.

(٣) تهذيب اللغة ١٤٧/٧.

(٤) أخرجه الطبري ١١٣/١٠. وصحَّحه إليه ابن كثير في تفسيره ٣٩٨/٣.

(٥) في (د) وعرائس المجالس ص ٣٣ (والخبر فيه): يسأل.

(٦) لفظ: مرتين، ليس في عرائس المجالس، وسلف نحو هذا الخبر ٤٦٥/١، وهو من الإسرائيليات.

(٧) تفسير أبي الليث ٥٣٤/١، وتفسير الرازي ٤٩/١٤.

(٨) هو يحيى بن أبي الخير بن سالم العِمْراني اليماني، توفي سنة (٥٥٨هـ). طبقات الشافعية ٣٣٦/٧.

(٩) الأم ٧٩/١.

ما يسترُّ به عورته إلا ورقَ الشجر؛ لزمه أن يسترَّ بذلك؛ لأنه سترٌ ظاهرةٌ يُمكنه التسترُّ بها، كما فعل آدمُ في الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْبُهُمَا رِيْهُمَا أَلْوُ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنَا مَغْفِرَةٌ لَّنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: قال لهما: ألم أنهكما؟ قال: «رَبِّنَا» نداءٌ مضاف. والأصل: يا رَبِّنَا. وقيل: إنَّ في حذف «يا» معنى التعظيم^(١). فاعترفوا بالخطيئة وتابا، وقد مضى في «البقرة»^(٢). ومعنى قوله: ﴿قَالَ أَهَيْطُوا﴾ تقدَّم أيضاً إلى آخر الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿١٥﴾

الضمائر كلها للأرض، ولم يذكر الواو في «قال»، ولو ذكرها لجاز أيضاً، وهو كقولك: قال زيدٌ لعمرو كذا، قال له كذا.

قوله تعالى: ﴿يَبْنَیْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِدْشًا وَيَلِاسَ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٦﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَبْنَیْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرِي سَوَاءَ تَكُمُ﴾ قال كثيرٌ من العلماء: هذه الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة؛ لأنه قال: ﴿يؤْرِي سَوَاءَ تَكُمُ﴾. وقال قوم: إنه ليس فيها دليلٌ على ما ذكروه، بل فيها دلالةٌ على الإنعام فقط^(٤).

قلت: القول الأول أصحُّ، ومن جملة الإنعام ستر العورة، فبيِّن أنه سبحانه

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٩/٢. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن ٢٨٥/١: وذلك أن النداء فيه طرف من معنى الأمر، لأنك إذا قلت: يا زيد، فمعناه: تعال يا زيد، أدعوك يا زيد، فحذفت «يا» من نداء الربِّ ليزول معنى الأمر وينقص، لأن «يا» تؤكد وتُظهر معناه.

(٢) ٤٨١/١ - ٤٨٢.

(٣) ٤٧٤/١ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن للكميا الهراسي ١٣٤/٣.

وتعالى جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم، ودلّ على الأمر بالتستر.
ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس.

واختلفوا في العورة ما هي؟ فقال ابن أبي ذئب: هي من الرجل الفرج نفسه؛ القُبْلُ والدُّبُرُ دون غيرهما، وهو قول داود، وأهل الظاهر، وابن عُليّة^(١) والطبري؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَأْسَا يَأْسَىٰ سَوَاءً تَكُمُ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ﴿بَدَتْ لَهَا سَوَاءُ تَهْمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوَاءً تَهْمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، وفي البخاري عن أنس: فَأَجْرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي زُقَاقٍ خَيْبِرٍ. وفيه: ثُمَّ حَسَرَ الْإِزَارَ عَنْ فَخِذِهِ؛ حَتَّىٰ إِنِّي أَنْظَرْتُ إِلَىٰ بِيَاضِ فَخِذِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ^(٢).

وقال مالك: السُّرَّةُ ليست بعورة، وأكره للرجل أن يكشف فَخِذَهُ بحضرة زوجته^(٣). وقال أبو حنيفة: الرُّكْبَةُ عورة، وهو قول عطاء. وقال الشافعي: ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح، وحكى أبو حامد الترمذي^(٤) أن للشافعي في السرة قولين.

وحجّة مالك قوله عليه الصلاة والسلام لَجْرَهْدٍ: «عَطَّ فَخِذَكَ، فَإِنَّ الْفَخِذَ عورة»، خرّجه البخاري تعليقاً وقال: حديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط حتى يُخرَجَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ^(٥). وحديث جرهد هذا يدلّ على خلاف ما قال أبو حنيفة. وروى أن أبا هريرة قَبَلَ سُرَّةَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَقَالَ: أَقْبَلَ مِنْكَ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقْبَلُ مِنْكَ^(٦)، فلو كانت السرة عورة ما قبلها أبو هريرة، ولا مكّنه الحسن منها.

(١) في (د) و(م): ابن أبي عيلة، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق للتمهيد ٦/٣٨٠، والاستذكار ٤٣٩/٥، والكلام منهما.

(٢) صحيح البخاري (٣٧١)، وأخرجه أحمد (١١٩٩٢)، ومسلم ٢/١٠٤٣ (١٣٦٥) (كتاب النكاح).

(٣) قال ابن عبد البر في الاستذكار ٤٣٩/٥: وهذا ما لا أعلم أن أحداً قاله غيره.

(٤) في الاستذكار: ابن حامد، ولم نعرفه.

(٥) صحيح البخاري (قبل الحديث: ٣٧١)، وأخرجه أحمد (١٥٩٣٢). وجرهد: هو ابن خويلد بن بكرة، كان من أهل الصُّفَّة، مات آخر خلافة يزيد. الإصابة ٢/٧٤.

(٦) أخرجه أحمد (٧٤٦٢).

وأما المرأة الحرة، فعورةٌ كلها إلا الوجه والكفين، على هذا أكثر أهل العلم^(١). وقد قال النبي ﷺ: «من أراد أن يتزوج امرأةً فلينظر إلى وجهها وكفيها»^(٢)، ولأن ذلك واجبٌ كشفه في الإحرام.

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كلُّ شيء من المرأة عورةٌ حتى ظفرها. ورُوِيَ عن أحمد بن حنبل نحوه.

وأما أمُّ الولد؛ فقال الأثرم: سمعته - يعني أحمد بن حنبل - يُسأل عن أمِّ الولد: كيف تُصلي؟ فقال: تُغطي رأسها وقدميها؛ لأنها لا تُباع، وتُصلي كما تصلي الحرة^(٣).

وأما الأمة؛ فالعورة منها ما تحت ثدييها^(٤) ولها أن تُبدي رأسها ومِعصمَيها، وقيل: حُكمها حُكم الرجل، وقيل: يُكره لها كشفُ رأسها وصدرها، وكان عمرُ ﷺ يضربُ الإماماء على تغطيتهن رؤوسهن، ويقول: لا تشبهن بالحرائر^(٥). وقال أصبغ: إن انكشف فخذها أعادت الصلاة في الوقت^(٦).

(١) التمهيد ٦/٣٧٩ - ٣٨١ و ٣٦٤، والاستذكار ٥/٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (١٤٥٨٦) عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظرَ منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعَل»، وقال النبي ﷺ للمغيرة بن شعبة ﷺ: «اذهب فانظر إليها...» أخرجه أحمد (١٨١٣٧)، وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً خطب امرأة، فقال النبي ﷺ: «انظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً»، أخرجه أحمد (٧٨٤٢)، ومسلم (١٤٢٤). وترجم البخاري: باب النظر إلى المرأة قبل التزويج. وذكر حديث سهل بن سعد ﷺ (٥١٢٦)، أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله فصعد النظر إليها وصوبه...

(٣) التمهيد ٦/٣٦٤ - ٣٦٦، والاستذكار ٥/٤٤٤ - ٤٤٥.

(٤) في (خ): بدنها، وفي (ظ): يديها، وفي (ز) و(م): ثديها، والمثبت من المفهم ١/٥٩٧، والكلام منه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٠٦٤)، وابن أبي شيبة في المصنف ٢/٢٣١.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٧١.

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كلُّ شيء من الأمة عورة حتى ظفرها^(١).

وهذا خارجٌ عن أقوال الفقهاء؛ لإجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلِّي المكتوبة ويدها ووجهها مكشوفٌ ذلك كله، تُباشر الأرض به^(٢)، فالأمة أولى، وأمُّ الولد أغلظُ حالاً من الأمة. والصبيُّ الصغير لا حُرمة لعورته. فإذا بلغت الجارية إلى حدِّ تأخذها العين، وتُشْتَهَى سترت عورتها.

وحُجَّةُ أبي بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيُكَ وَبَنَاتِكَ وَرِسَالَةٌ الْمُؤْمِنِينَ يَدْنِينَكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وحديثُ أمِّ سلمة أنها سُئِلت: ماذا تصلِّي فيه المرأة من الثياب؟ فقالت: تُصلِّي في الدرِّع والخِمار السابغ الذي يُعَيِّب ظهورَ قدميها، وقد رُوي مرفوعاً، والذين أوقفوه على أمِّ سلمة أكثرُ وأحفظُ، منهم مالك^(٣) وابن إسحاق وغيرهما. قال أبو داود: ورفعهُ عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن محمد بن زَيْد، عن أمِّه، عن أمِّ سلمة، أَنَّهَا سَأَلت رسولَ الله ﷺ^(٤). قال أبو عمر^(٥): عبد الرحمن هذا ضعيفٌ عندهم، إلا أَنَّهُ قد خَرَجَ البخاريُّ بعضَ حديثه، والإجماعُ في هذا الباب أقوى من الخبر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ يعني: المطرَ الذي يُنبِت القطن والكثان، ويُقيِم البهائم الذي منها الأصواف والأوبار والأشعار^(٦)، فهو مجاز مثل: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَمِنْهُ حَبُّ بَدْرٍ وَمِنْهُ حَبُّ كَثِيرٍ﴾ [الزمر: ٦] على ما يأتي.

وقيل: هذا الإنزالُ إنزالُ شيء من اللباس مع آدم وحواء؛ ليكون مثلاً لغيره.

(١) المفهم ٥٩٨/١. وسلف القول نفسه في المرأة.

(٢) التمهيد ٣٦٥/٦، وذكر ابن عبد البر هذا الكلام تعقباً على القول الأول لأبي بكر بن عبد الرحمن.

(٣) الموطأ ١٤٢/١، ومن طريق مالك أخرجه أبو داود (٦٣٩).

(٤) سنن أبي داود (٦٤٠).

(٥) في التمهيد ٣٦٨/٦ وما قبله منه.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢٨٦/١.

وقال سعيد بن جبير: «أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ» أي: خلقنا لكم؛ كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَنَئِيهَ أَنْزَلْنَا﴾ أي: خلق. على ما يأتي. وقيل: ألهمناكم كيفية صنّعه^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قرأ أبو عبد الرحمن والحسن وعاصم من رواية الْمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ، وأبو عمرو من رواية الحسين بن علي الجعفي: «وريشاً». ولم يحكه أبو عبيد إلا عن الحسن، ولم يُفسر معناه^(٢).

وهو جمع ريش. وهو ما كان من المال واللباس. وقال الفراء^(٣): ريشٌ ورياش، كما يقال: لبس ولباس. وريشُ الطائر: ما ستره الله به. وقيل: هو الخضب ورفاهية العيش^(٤).

والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. وأنشد سيبويه: فريشي منكم وهواي مغمكم وإن كانت زيارتكم لماما^(٥) وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهبت له دابة بريشها؛ أي: بكسوتها وما عليها من اللباس^(٦).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ بين أن التقوى خير لباس؛ كما قال:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى
تقلب عرياناً وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا خير فيمن كان لله عاصياً^(٧)

(١) زاد المسير ٣/١٨١، ومجمع البيان ٨/٣٦ - ٣٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٠، وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٣، وابن جني في المحتسب ١/٢٤٦. والقراءة المتواترة عن عاصم وأبي عمرو بن العلاء قراءة الجماعة.

(٣) في معاني القرآن ١/٣٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٠.

(٤) تفسير الطبري ١٠/١٢٣.

(٥) الكتاب ٣/٢٨٧، ونسبه سيبويه للراعي، وليس في ديوانه، وهو في ديوان جرير ١/٢٢٥، وصدده فيه: وريشي منكم وهواي فيكم.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/٢٣، وينظر مجاز القرآن ١/٢١٣.

(٧) البيت الأول لأبي العاتية، وهو في ديوانه ص ٤٣٤، ولم نقف على البيت الثاني.

وروى قاسم بن مالك، عن عوف، عن مَعْبَدِ الْجُهَيْنِيِّ قَالَ: «لِبَاسُ التَّقْوَى الْحَيَاءُ»^(١). وقال ابن عباس: «لِبَاسُ التَّقْوَى» هو العمل الصالح. وعنه أيضاً: السَّمْتُ الْحَسَنُ فِي الْوَجْهِ»^(٢). وقيل: ما عَلَّمَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهَدَى بِهِ، وَقِيلَ: «لِبَاسُ التَّقْوَى»: لُبْسُ الصُّوفِ وَالْحَشِينِ مِنَ الثِّيَابِ؛ مِمَّا يُتَوَاضَعُ بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَيُتَعَبَّدُ لَهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ»^(٣)، وقال زيد بن علي: «لِبَاسُ التَّقْوَى»: الدَّرْعُ وَالْمِغْفَرُ، وَالسَّاعِدَانُ»^(٤)، وَالسَّاقَانُ؛ يُتَّقَى بِهِمَا فِي الْحَرْبِ»^(٥)، وقال عروة بن الزبير: هو الخشيئة لله، وقيل: هو استشعارُ تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه»^(٦).

قلت: وهو الصحيح، وإليه يَرْجِعُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُرْوَةَ، وَقَوْلُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ حَسَنٌ؛ فَإِنَّهُ حَضَّ عَلَى الْجِهَادِ.

وقال ابن زيد: هو ستر العورة»^(٧)، وهذا فيه تَكَرُّارٌ؛ إِذْ قَالَ أَوَّلًا: «قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ ذِكْرِكُمْ». وَمِنْ قَالَ: إِنَّهُ لُبْسُ الْحَشِينِ مِنَ الثِّيَابِ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى التَّوَاضُعِ وَتَرْكِ الرُّغُونَاتِ، فَدَعَاؤِي؛ فَقَدْ كَانَ الْفَضْلَاءُ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَلْبَسُونَ الرِّفِيعَ مِنَ الثِّيَابِ مَعَ حُصُولِ التَّقْوَى، عَلَى مَا يَأْتِي مَبِينًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»^(٨).

وقرأ أهل المدينة والكسائي: «ولباس» بالنصب»^(٩) عطفاً على «لباساً» الأول، وقيل: انتصب بفعل مُضْمَرٍ، أَي: وَأَنْزَلْنَا لِبَاسَ التَّقْوَى.

(١) معاني القرآن للنحاس ٢٤/٣، وأخرجه الطبري ١٢٥/١٠ - ١٢٦.

(٢) أخرجهما الطبري ١٢٦/١٠ - ١٢٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٢٠/٢.

(٤) في (ظ): والساعد.

(٥) تفسير البغوي ١٥٥/٢.

(٦) تفسير الطبري ١٢٧/١٠ و ١٣٠.

(٧) أخرجه الطبري ١٢٨/١٠ بنحوه.

(٨) ص ٢٠٣ وما بعدها من هذا الجزء.

(٩) وقرأ بها ابن عامر الشامي أيضاً، كما في السبعة ص ٢٨٠، والتيسير ص ١٠٩.

والباقون بالرفع على الابتداء، و«ذلك» نعته، و«خَيْرٌ» خبر الابتداء. والمعنى: ولباسُ التقوى المُشار إليه، الذي عَلِمْتُمُوهُ، خَيْرٌ لَكُمْ من لُبْسِ الثياب التي تُؤاري سوءَاتِكُمْ، ومن الرِّياش الذي أنزلنا إليكم، فالبسوه. وقيل: ارتفع بإضمار هو، أي: وهو لباسُ التقوى، أي: وهو ستر العورة، وعليه يُخْرَجُ قولُ ابن زيد. وقيل: المعنى: ولباسُ التقوى هو خَيْرٌ، ف«ذلك» بمعنى هو، والإعرابُ الأوَّلُ أحسنُ ما قيل فيه^(١).
وقرأ الأعمش: «ولباسُ التقوى خَيْرٌ»، ولم يقرأ: «ذلك»^(٢)، وهو خلافُ المصحف.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: مما يدلُّ على أنَّ له خالفاً^(٣).

و«ذلك»^(٤) رفع على الصِّفة، أو على البدل، أو عطف بيان.

قوله تعالى: ﴿يَنْبَغُ ءَادَمَ لَا يَفْنَنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْمَامًا إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَنْوَرُونَ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا يَفْنَنَكُمْ﴾ أي: لا يَضْرِفَنَّكُمْ الشيطانُ عن الدِّينِ كما فَتَنَ أَبَوَيْكُمْ بالإخراج من الجنة. «أَبٌ» للمذكَّر، و«أَبَةٌ» للمؤنَّث، فعلى هذا قيل: أبوان.

﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في موضع نصب على الحال، ويكون مستأنفاً فيوقف على «مِنَ الْجَنَّةِ».

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٠ - ١٢١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/٢٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٣، ونسبها لابن مسعود.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢١.

(٤) يعني في قوله: «ذلك خير». مشكل إعراب القرآن ١/٢٨٦، والكشف عن وجوه القراءات ١/٤٦١.

﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ نصب بلام كي. ﴿إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ الأصل: «يَرَأَاكُم»، ثم خُفِّفَت الهمزة، «وَقَبِيلُهُ» عطف على المضمَر، و«هو» توكيدٌ لِيَحْسِنَ العطف، كقوله: ﴿أَسْكَنْتَ أَنْتَ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وهذا يدلُّ على أَنَّهُ يَقْبُحُ رَأْيُكَ وَعَمْرُو، وَأَنَّ المُضْمَرَ كالمُظْهِر^(١).

وفي هذا أيضاً دليلٌ على وجوب ستر العورة؛ لقوله: «يَتَزَوَّجُ عَنْهُمَا لِيَأْسَهُمَا»، قال الآخرون: إنما فيه التحذيرُ من زوال النعمة كما نزل بآدم ﷺ، هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك^(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ «قَبِيلُهُ»: جنوده، قال مجاهد: يعني الجنَّ والشياطين. ابن زيد: «قَبِيلُهُ»: نَسْلُهُ، وقيل: جَيْلُهُ^(٣).

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

قال بعض العلماء^(٤): في هذا دليلٌ على أَنَّ الجنَّ لا يُرَوْنَ؛ لقوله: «مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ». وقيل: جائزٌ أن يُرَوْا؛ لأنَّ الله تعالى إذا أراد أن يُرِيَهُمْ كَشَفَ أَجْسَامَهُمْ حَتَّى تَرَى.

قال النحاس^(٥): «مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ» يدلُّ على أَنَّ الجنَّ لا يُرَوْنَ إِلَّا فِي وَقْتِ نَبِيِّ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ دَلَالَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ خَلَقَهُمْ خَلْقًا لَا يُرَوْنَ فِيهِ، وَإِنَّمَا يُرَوْنَ إِذَا نُقِلُوا عَنْ صُورِهِمْ، وَذَلِكَ مِنَ المَعْجَزَاتِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا فِي وَقْتِ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٢١/٢، وفيه: وأنه ليس المضمَر كالمُظْهِر.

(٢) أحكام القرآن للكميا الهراسي ١٣٤/٣.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣٦/١٠، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢١٣/١، ومعاني القرآن للنحاس ٢٤/٣، والنكت والعيون ٢١٦/٢. وقوله: جَيْلُهُ، يعني جنسه، كما في اللسان (جيل)، ووقع في (د) و(ز): خَيْلُهُ.

(٤) الكشف ٧٤/٢ - ٧٥، ومجمع البيان ٣٨/٨.

(٥) في إعراب القرآن ١٢١/٢.

قال القشيري: أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم. وفي الخبر: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(١)، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن للملك لمة وللشيطان لمة - أي: بالقلب - فأما لمة الملك: فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، وأما لمة الشيطان: فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق». وقد تقدّم في «البقرة»^(٢).

وقد جاء في رؤيتهم أخبارٌ صحيحة، وقد خرّج البخاري عن أبي هريرة قال: وكَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصّةً طويلة؛ ذكر فيها أنه أخذ الجني الذي كان يأخذ التمر، وأن النبي ﷺ قال له: «ما فعل أسيرك البارحة»، وقد تقدّم في «البقرة»^(٣). وفي «صحيح» مسلم أن النبي ﷺ قال: «والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح مؤثقا يلعب به ولدان أهل المدينة»^(٤)؛ في العفريت الذي تفلّت عليه. وسيأتي في «ص» إن شاء الله تعالى^(٥).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: زيادة في عقوبتهم، وسوّينا بينهم في الذهاب عن الحق^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين: طوافهم بالبيت عُراة، وقال الحسن: هي

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٩٢)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ؓ، وسلف ٤٤٩/١، وأخرجه البخاري (٢٠٣٥) من حديث صفية رضي الله عنها.

(٢) ٣٥٥/٤، واللّمة: الخطرة تقع في القلب، أراد إمام الملك أو الشيطان به والقرب منه. النهاية (لم).

(٣) ٢٦٤/٤، والحديث في صحيح البخاري (٢٣١١).

(٤) صحيح مسلم (٥٤٢) وهو من حديث أبي الدرداء ؓ، وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ؓ أخرجه أحمد (١١٧٨٠)، وعن أبي هريرة ؓ أخرجه البخاري (٤٦١).

(٥) عند تفسير الآية (٣٥) منها.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٢٩ - ٣٣٠.

الشُّرك والكفر^(١). واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم، وبأن الله أمرهم بها. وقال الحسن: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قالوا: لو كره الله ما نحن عليه لقلنا عنه^(٢).

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ بيّن أنهم متحكّمون، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادّعوا. وقد مضى ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم^(٣). وهذا منها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله^(٤)، وقيل: القِسْط: العَدْل^(٥)، أي: أمر بالعدل فأطيعوه، ففي الكلام حذف ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: توجّهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: في أي مسجد كنتم. ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: وحده ولا تُشركوا به.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقد تقدّم^(٦). والكاف في موضع نصب، أي: تعودون كما بدأكم، أي: كما خلقكم أول مرة يُعيدكم. وقال الزجاج: هو متعلّق بما قبله، أي: ومنها تُخرجون كما بدأكم تعودون^(٧).

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ «فريقاً» نصبٌ على الحال من المضمَر في «تَعُودُونَ» أي: تعودون فريقين: سعداء وأشقياء، يُقوي هذا قراءة أبيّ: «تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً

(١) أورده الماوردي في النكت والعيون ٢/٢١٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/١٨٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٨/٣٩.

(٣) ٣/١٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٢/١٥٦، وتفسير الرازي ١٤/٥٧.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/١٣٩ من قول مجاهد والسدي.

(٦) ٨/٤٦٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٢، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/٣٣١.

حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةَ»، عن الكسائي^(١).

وقال [محمد بن] كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: مَنْ ابتدأ الله خَلَقَهُ للضلالة صَيَّرَهُ إلى الضلالة وإن عَمِلَ بأعمال أهل الهدى^(٢)، وَمَنْ ابتدأ الله خَلَقَهُ على الهدى صَيَّرَهُ إلى الهدى وإن عَمِلَ بأعمال الضلالة، ابتدأ الله خَلَقَ إبليس على الضلالة، وَعَمِلَ بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم رَدَّهُ الله إلى ما ابتدأ عليه خَلَقَهُ، قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]^(٣).
وفي هذا ردٌّ واضحٌ على القدرية ومن تابعهم.

وقيل: «فَرِيقًا» نُصِبَ بـ «هَدَىٰ»، «وفَرِيقًا» الثاني نُصِبَ بإضمار فعل، أي: وأضلَّ فريقًا، وأنشد سيويه^(٤):

أصَبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمَلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَقَرَا
والذُّئْبَ أَخشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ وحدي وَأخشى الرِّيحَ والمَطْرَا
قال الفراء^(٥): ولو كان مرفوعاً لجاز.

﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقرأ عيسى بن عمر: «أنهم» بفتح الهمزة، بمعنى لأنهم^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾

فيه سبع مسائل:

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٢٢/٢، وينظر مشكل إعراب القرآن لمكي ٢٨٧/١ - ٢٨٨، والمحرر الوجيز ٣٩٢/٢، وقراءة أبيّ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٣٧٦/١.

(٢) في (ز): السعادة.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٤٣/١٠، وابن أبي حاتم (٨٣٦٧) وما بين حاصرتين منهما.

(٤) في الكتاب ٨٩/١، ونسبهما للربيع بن ضُبَيْع الفزاري، وأوردهما أبو علي القالي في أماليه ١٨٥/٢.

(٥) في معاني القرآن ٣٧٦/١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١٢٢/٢ - ١٢٣، والمحرر الوجيز ٣٩٢/٢.

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ﴾ هو خطابٌ لجميع العالم، وإن كان المقصودُ بها مَنْ كان يطوفُ من العرب بالبيتِ عُرياناً، فإنه عامٌّ في كلِّ مسجدٍ للصلاة؛ لأنَّ العِبْرَةَ للعموم لا للسبب. ومن العلماء من أنكروا أن يكون المرادُ به الطواف؛ لأنَّ الطواف لا يكونُ إلا في مسجدٍ واحد، والذي يعمُّ كلَّ مسجد هو الصلاة، وهذا قولٌ من خفيِّ عليه مقاصدُ الشريعة.

وفي «صحيح» مسلم^(١) عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوفُ بالبيت وهي عُريانة وتقول: مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوِّفًا؟ تجعله على فرجها، وتقول: اليومَ يَبْدُو بعضه أو كلُّه وما بدأ منه فلا أجله فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٢). التَّطَوُّفُ بكسر التاء، وهذه المرأة هي ضباعة بنتُ عامر بن قُرط، قاله القاضي عياض^(٣).

وفي «صحيح» مسلم^(٤) أيضاً عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: كانت العربُ تطوفُ بالبيتِ عُراً إلا الحُمس - والحُمسُ: قريشٌ وما ولدت - كانوا يطوفون بالبيت عُراً إلا أن تُعطيهم الحُمسُ ثياباً، فيُعطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ، وكانت الحُمسُ لا يخرجون من المُزدلفة، وكان الناس كلُّهم يَيقُفون^(٥) بعرفات.

في غير مسلم^(٦): ويقولون: نحن أهلُ الحَرَمِ، فلا ينبغي لأحدٍ من العرب أن يطوفَ إلا في ثيابنا، ولا يأكلَ إذا دخلَ أرضنا إلا مِن طعامنا. فمن لم يكن له من

(١) الحديث (٣٠٢٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٧٦٧/٢ و ٧٦٩.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة المفهم لأبي العباس القرطبي ٣٤٦/٧، وينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٥٨٩/٨.

(٤) الحديث (١٢١٩): (١٥٢)، وهو في صحيح البخاري (١٦٦٥) بنحوه.

(٥) في صحيح مسلم: يبلغون عرفات. وسُموا الحُمس لأنهم شدُّدوا على أنفسهم، وكانوا إذا أهلوا بحجٍّ أو عمرة لا ياكلون لحماً، ولا يضرِّبون ويراً ولا شعراً. فتح الباري ٥١٦/٣.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٧٦٧/٢ - ٧٦٨، والكلام منه إلا آخر المسألة.

العربِ صديقٌ بمكَّةَ يُعيرُهُ ثوباً، ولا يَسَارُ يَسْتَأْجِرُهُ به؛ كان بين أحدِ أمرين: إمَّا أن يطوفَ بالبيتِ عُرياناً، وإمَّا أن يطوفَ في ثيابه، فإذا فَرَّغَ من طوافه ألقى ثوبه عنه؛ فلم يمسه أحدٌ، وكان ذلك الثوبُ يُسَمَّى اللقي، قال قائلٌ من العرب:

كَفَى حَزْناً كَرِيًّا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقِيَ بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيمٌ^(١)

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَبَيْتِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ الآية، وأذن مؤذنٌ رسولِ الله ﷺ: «ألا لا يطوفُ بالبيتِ عُرياناً»^(٢).

قلت: ومن قال بأن المراد الصلاة؛ فزيتها النعال، لِمَا رواه كُرْزُ بن وَبَرَةَ، عن عطاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم: «خذوا زينة الصلاة»، قيل: وما زينة الصلاة؟ قال: «إلبسوا نعالكم فصلوا فيها»^(٣).

الثانية: دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدم^(٤)، وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرضٌ من فروض الصلاة، وقال الأبهري: هي فرضٌ في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها، وهو الصحيح؛ لقوله عليه الصلاة والسلام للمِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ: «ارْجِعْ إِلَى ثوبِكَ فَخُذْهُ، وَلَا تَمْشُوا عُرَاةً»، أخرجه مسلم^(٥). وذهب إسماعيلُ القاضي إلى أن ستر العورة من سنن الصلاة،

(١) أورده أبو العباس في المفهم ٣٤٦/٧، وابن منظور في اللسان (حرم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٧٧)، والبخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢١٧١/٦، وفي إسناده محمد بن الفضل بن عطية قال ابن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه، وقال النسائي: متروك الحديث، فيما ذكره ابن عدي. وأخرجه أيضاً في الكامل ١٨٢٩/٥ من طريق آخر عن أبي هريرة ؓ، وفيه علي بن أبي علي القرشي، قال ابن عدي: مجهول ومتكرر الحديث. وأورده ابن أبي حاتم في العلل ١٤٩/١، وقال: قال أبي: هذا حديث منكر. وسيذكر المصنف في المسألة الثالثة أنه مروى عن أنس ؓ، وقال: لم يصح.

(٤) ص ١٨١ من هذا الجزء.

(٥) الحديث (٣٤١).

واحتجَّ بأنه لو كان فرضاً في الصلاة لكان العريان لا يجوز له أن يُصلي؛ لأنَّ كلَّ شيء من فروض الصلاة يجب الإتيانُ به مع القدرة عليه، أو بدله مع عدمه، أو تسقط الصلاة جملةً، وليس كذلك^(١).

قال ابن العربي: وإذا قلنا: إنَّ سترَ العورة فرضٌ في الصلاة، فسقط ثوبُ إمام، فانكشفَ دُبُرُه وهو راکعٌ، فرفع رأسه فغطَّاهُ؛ أجزاءه؛ قاله ابنُ القاسم. وقال سُحنون: وكلُّ مَنْ نظَرَ إليه من المأمومين أعاد. وروي عن سحنون أيضاً: أنه يُعيدُ ويُعيدون؛ لأنَّ سترَ العورة شرطٌ من شروط الصلاة، فإذا ظهرت بطلت الصلاة. أصله الطهارة.

قال القاضي ابن العربي^(٢): أمَّا مَنْ قال: إنَّ صلاتهم لا تبطل؛ فإنهم لم يَفقدوا شرطاً، وأمَّا مَنْ قال: إنَّ أخذَهُ مكانه صحَّت صلاتُهُ، وتبطل صلاةٌ مَنْ نظَرَ إليه؛ فصحيفةٌ يجبُ محوُّها، ولا يجوزُ الاشتغالُ بها.

وفي البخاريِّ والنسائيِّ: عن عمرو بن سلمة قال: لَمَّا رَجَعَ قومي من عند النبي ﷺ قالوا: قال: «ليؤمَّكم أكثركم قراءةً للقرآن»، قال: فدعوني، فعلموني الركوع والسجود، فكننتُ أصلي بهم، وكانت عليَّ بُردةٌ مفتوفةٌ، وكانوا يقولون لأبي: ألا تُعْطِي عَنَّا اسْتِ ابْنِكَ. لفظ النسائي^(٣).

وثبت عن سهل بن سعد قال: لقد كانت الرجالُ عاقدي أُرْهم في أعناقهم من ضيقِ الأُزْرِ خلفَ رسولِ الله ﷺ في الصلاة كأمثالِ الصُّبيان، فقال قائلٌ: يا معشرَ النساءِ، لا ترفَعنَّ رؤوسكنَّ حتى يرفعَ الرجالُ. أخرجه البخاريُّ والنسائيُّ وأبو داود^(٤).

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٢، والتمهيد ٦/٣٧٦ - ٣٧٩، والاستذكار ٥/٤٣٧، والمنتقى ١/٢٤٧، وعقد الجواهر الثمينة ١/١٥٨.

(٢) في أحكام القرآن ٢/٧٧٠.

(٣) في المجتبى ٢/٧١، وصحيح البخاري (٤٣٠٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٣٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٣٦٢)، والمجتبى ٢/٧٠، وسنن أبي داود (٦٣٠). وأخرجه أيضاً أحمد (١٥٥٦٢)، ومسلم (٤٤١).

الثالثة: واختلفوا إذا رأى عورة نفسه، فقال الشافعي: إذا كان الثوب ضيقاً؛ يزره أو يخلله بشيء؛ لئلا يتجافى القميص فيرى من الجيب العورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه؛ أعاد الصلاة، وهو قول أحمد. ورخص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار^(١)، ليس عليه سراويل، وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور. وكان سالم يصلي محلول الأزرار^(٢). وقال داود الطائي^(٣): إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به، وحكى معناه الأثرم عن أحمد.

فإن كان إماماً فلا يصلي إلا بردائه؛ لأنه من الزينة.

وقيل: من الزينة الصلاة في الثعلين، رواه أنس عن النبي ﷺ، ولم يصح^(٤).

وقيل: زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه. قال ابن عمر^(٥): لكل شيء زينة، وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي.

وقال عمر رضي الله عنه: إذا وسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم، جمع رجل عليه ثيابه؛ صلى في إزار ورداء، في إزار وقيص، في إزار وقباء، في سراويل ورداء، في سراويل وقيص، في سراويل وقباء، وأحسبه قال: في ثبان وقيص، في ثبان ورداء، في ثبان وقباء. رواه البخاري والدارقطني^(٦).

(١) في (خ) و(ز) والتمهيد ٦/٣٧٥ (والكلام منه): الإزار، والمثبت من (د) و(ظ) و(م)، وهو الموافق للاستذكار ٤٣٦/٥ - ٤٣٧ (والكلام منه أيضاً).

(٢) في (ز) والتمهيد: الإزار، والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) و(م) والاستذكار.

(٣) داود بن نصير، أبو سليمان الكوفي، كان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة. توفي سنة (١٦٢هـ)، وقيل: (١٦٥هـ). السير ٧/٤٢٢.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٧٠، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/١٤٣، وفي إسناده عبادة بن جويرية، كذبه أحمد والبخاري. ميزان الاعتدال ٢/٣٦٥. وسلف نحوه في المسألة الأولى.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): قال أبو عمر، وفي (ظ): قاله ابن عمر، والمثبت من التمهيد ٧/٨٣ و ٩/٢٢٥.

(٦) صحيح البخاري (٣٦٥)، وسنن الدارقطني (١٠٩١) واللفظ له. وقوله: وأحسبه، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١/٤٧٥: قائل ذلك أبو هريرة (وهو راوي الحديث) والضمير في أحسبه راجع إلى عمر. اهـ. والقباء من الثياب، سمي به لاجتماع أطرافه، وهو في الغالب من لباس الأعاجم، ويعرف اليوم عندنا بالقباز. معجم متن اللغة (قبى). والنبان: سراويل صغير يستر العورة المغلطة فقط، النهاية (تب).
بالتباز. معجم متن اللغة (قبى). والنبان: سراويل صغير يستر العورة المغلطة فقط، النهاية (تب).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال ابن عباس: أحلَّ الله في هذه الآية الأكلَ والشربَ ما لم يكن سرفاً أو مَخِيلَةً^(١).

فأمَّا ما تدعو الحاجة إليه - وهو ما سدَّ الجوعَ وسكَّنَ الظمَّ - فمندوبٌ إليه عقلاً وشرعاً؛ لما فيه من حفظِ النفسِ، وحِراسةِ الحواسِّ، ولذلك وردَ الشرعُ بالنهي عن الوصال^(٢)؛ لأنَّه يُضعِفُ الجسدَ، ويُميتُ النفسَ، ويُضعِفُ عن العبادةِ، وذلك يمنعُ منه الشرعُ ويدفعُهُ العقلُ. وليس لمن مَنَعَ نفسه قَدْرَ الحاجةِ حَظٌّ من برٍّ، ولا نصيبٌ من زُهدٍ؛ لأنَّ ما حرَمَها من فعلِ الطاعةِ بالعجزِ والضعفِ أكثرُ ثواباً وأعظمُ أجراً^(٣).

وقد اختلِفَ في الزائدِ على قَدْرِ الحاجةِ على قولين؛ فقيل: حرام، وقيل: مكروه، قال ابن العربي^(٤): وهو الصحيح؛ فإنَّ قَدْرَ الشَّبَعِ يَختلِفُ باختلافِ البُلدانِ والأزمانِ والأسنانِ والطَّعمانِ.

ثمَّ قيل: في قِلَّةِ الأكلِ منافعٌ كثيرةٌ؛ منها أن يكونَ الرجلُ أصحَّ جسمًا، وأجودَ حِفْظًا، وأذكى^(٥) فهُمَا، وأقلَّ نومًا، وأخفَّ نفسًا. وفي كثرةِ الأكلِ كُظُّ المعدةِ، وتَنُّ الثُّخْمَةِ، ويتولَّدُ منه الأمراضُ المختلفةُ، فيحتاجُ من العلاجِ أكثرَ ممَّا يحتاجُ إليه القليلُ الأكلِ.

وقال بعضُ الحكماء: أكبرُ الدوائِ تقديرُ الغِذاءِ^(٦). وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ هذا المعنى بيانًا شافيًا يُغني عن كلامِ الأطباءِ فقال: «ما ملأَ آدميٌّ وعاءَ شراً من بطن، بحسبِ ابنِ آدمَ لقيماتٍ يُقِمَّنَ صُلْبَهُ، فإنَّ كانَ لا مَحَالَةَ؛ فثَلْثُ لِعَاطِمِهِ، وثَلْثُ لَشَرَابِهِ، وثَلْثُ

(١) أخرجه الطبري ١٥٥/١٠، والبيهقي في الشعب (٦٥٧٢).

(٢) سلفت أحاديث النهي عن الوصال ٢١٠/٣ - ٢١١.

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٧٧١/٢.

(٥) في (د) و(م): أذكى، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ).

(٦) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين ص ٣٢٠.

لِنَفْسِهِ». خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ^(١).

قال علماؤنا: لو سمع بقراط هذه القِسْمَةَ لَعَجَبَ مِنْ هَذِهِ الْحِكْمَةِ^(٢).

وَيُذَكِّرُ أَنَّ الرَّشِيدَ كَانَ لَهُ طَبِيبٌ نَصْرَانِيٌّ حَازِقٌ، فَقَالَ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ^(٣): لَيْسَ فِي كِتَابِكُمْ مِنْ عِلْمِ الطَّبِّ شَيْءٌ، وَالْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمُ الْأَدْيَانِ وَعِلْمُ الْأَبْدَانِ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ: قَدْ جَمَعَ اللَّهُ الطَّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِنَا، فَقَالَ لَهُ: مَا هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: وَلَا يُؤَثِّرُ عَنْ رَسُولِكُمْ شَيْءٌ مِنَ الطَّبِّ؟ فَقَالَ عَلِيُّ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّبَّ فِي الْفَافِظِ يَسِيرَةً، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: «الْمَعْدَةُ بَيْتُ الْأَدْوَاءِ، وَالْحِمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ، وَأَعْطَى كُلَّ جَسَدٍ مَا عَوَّدْتَهُ». فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: مَا تَرَكَ كِتَابِكُمْ وَلَا نَبِيَّكُمْ لَجَالِينُوسِ طَبًّا^(٤).

قلت: ويُقال: إِنَّ مَعَالَجَةَ الْمَرِيضِ نِصْفَانِ: نِصْفُ دَوَاءٍ، وَنِصْفُ حِمِيَّةٍ، فَإِنْ اجْتَمَعَا، فَكَأَنَّكَ بِالْمَرِيضِ قَدْ بَرِيءَ وَصَحَّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى^(٥)، وَإِلَّا فَالْحِمِيَّةُ بِهِ أَوْلَى، إِذْ لَا يَنْفَعُ دَوَاءٌ مَعَ تَرْكِ الْحِمِيَّةِ، وَلَقَدْ^(٦) تَنَفَّعَ الْحِمِيَّةُ مَعَ تَرْكِ الدَّوَاءِ، وَلَقَدْ قَالَ

(١) سنن الترمذي (٢٣٨٠)، وأخرجه أحمد (١٧١٨٦) وفيهما: أكلات، بدل: لقيمات. وأكلات، بالضم: جمع أكلة، كلقمة، لفظاً ومعنى. قاله السندي في حاشية المسند.

(٢) تلبس إبليس ص ٢٠٨، وبقراط: هو ابن إبراقلس، سيد الطبيعيين في عصره، كان قبل الاسكندر بنحو مئة سنة، له في الطب تأليف شريفة. أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٦٤.

(٣) علي بن الحسين بن واقد، أبو الحسن المروزي، المحدث، مولى أمير خراسان عبد الله بن عامر بن كرز القزقي، توفي سنة (٢١١هـ)، السير ١٠/٢١١.

(٤) ذكر هذه القصة الزمخشري في الكشاف ٧٦/٢، وابن الجوزي في زاد المسير ١٨٨/٣، وقال: هكذا نُقِلَتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ، إِلَّا أَنَّ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ فِيهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَثْبُتُ. اهـ. وقال البخاري في المقاصد الحسنة ص ٣٨٩: لَا يَصِحُّ رَفْعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، بَلْ هُوَ مِنْ كَلَامِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ طَبِيبِ الْعَرَبِ أَوْ غَيْرِهِ. وجالينوس: هو الحكيم الفيلسوف الطبيعي اليوناني، إمام الأطباء في عصره، مؤلف الكتب الجليلة في صناعة الطب وغيرها، قال المسعودي: كان جالينوس بعد المسيح بنحو مئتي سنة وبعد بقراط بنحو ست مئة سنة. أخبار العلماء للقفطي ص ٨٦.

(٥) قوله: بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ (ظ).

(٦) فِي (ظ): وَقَدْ، وَفِي (خ) وَ(د) وَ(ز): وَلِعَمْرِي، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م).

رسولُ الله ﷺ: «أصلُ كلِّ دواءٍ الحِمْيَةُ»^(١)، والمَعْنِي بِهَا - والله أعلم - أنها تُعْنِي عن كلِّ دواءٍ، ولذلك يُقال: إنَّ الهنْدَ جُلُّ معالِجَتِهِم الحِمْيَةُ، يَمْتَنِعُ المَرِيضُ عن الأكلِ والشُّرْبِ والكلامِ عِدَّةَ أَيَّامٍ، فَيَبْرَأُ وَيَصْحُ.

الخامسة: روى مسلم عن ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الكافرُ يأكلُ في سَبْعَةِ أَمْعاء، والمؤمنُ يأكلُ في مَعَى واحدٍ»^(٢). وهذا منه ﷺ حضُّ على التقليلِ مِنَ الدنيا والرُّهْدِ فِيهَا والقنَاعَةِ بالبُلْغَةِ. وقد كانت العربُ تَمْتَدِّحُ بقلَّةِ الأكلِ وتَذمُّ بكثرتِهِ، كما قال قائلُهُم:

تَكْفِيهِ فَلذَّةُ كِبْدٍ إنَّ أَلَمَّ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيُرْوِي شُرْبَهُ العُمَرُ^(٣)
وقالت أمُّ زَرْعٍ فِي ابنِ أَبِي زَرْعٍ: وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ^(٤). وقال حاتمُ الطائي يذمُّ بكثرةِ الأكلِ:

فإنَّكَ إنَّ أعطيتَ بطنَكَ سُؤْلَهُ وفرجَكَ نالا مُنتهى الذَّمِّ أجمَعاً^(٥)
وقال الحَظَّابِيُّ^(٦): معنَى قوله ﷺ: «المؤمنُ يأكلُ في مَعَى واحدٍ» أَنَّهُ يتناولُ دونَ شِيعِهِ، وَيؤثِّرُ على نَفْسِهِ، وَيُبْقِي مِن زادِهِ لغيرِهِ، فَيَقْنَعُهُ ما أَكَلَ.
والتأويلُ الأوَّلُ أَوْلَى، والله أعلم.

وقيل في قوله عليه الصلاة والسلام: «والكافرُ يأكلُ في سبعةِ أَمْعاء»: ليس على

(١) قطعة من الحديث الذي سلف الكلام عليه.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٦٠)، وأخرجه أحمد (٤٧١٨)، والبخاري (٥٣٩٣).

(٣) البيت لأعشى باهلة من قصيدة يرثي بها المُتَشَرِّفَ بن وهب الباهلي، وهو في الكامل ٤٥٩/١ و ١٤٣١/٣، والعُمَرُ: هو القدح الصغير. اللسان (غمر).

(٤) قطعة من حديث أم زرع الطويل الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨). والجفرة: الأنثى من ولد المَعَز، إذا كان ابن أربعة أشهر وقُصِلَ عن أمه وأخذ في الرعي. فتح الباري ٩/٢٧٠.

(٥) ديوان حاتم ص ٦٨، وصدده فيه: وإنك مهما تعط بطنك سؤله.

(٦) أعلام الحديث ٣/٢٠٤٥.

عمومه؛ لأنَّ المُشَاهِدَةَ تدفعُهُ، فَإِنَّه قد يوجدُ كافرٌ أَقلُّ أَكَلًا مِن مؤمن، وَيُسَلِّمُ الكافرُ فلا يَقِلُّ أَكَلُهُ ولا يَزِيدُ.

وقيل: هو إشارة إلى معيّن؛ ضافَ النبي ﷺ ضيفتُ كافرٌ - يقال: إِنَّه الجَهْجَاهُ الغِفاريُّ، وقيل: ثُمَامَةُ بن أَثَال، وقيل: نَضَلَةُ بن عمرو الغِفاريُّ، وقيل: بَصْرَةُ بن أبي بصرَةَ الغِفاريُّ^(١) - فشرَبَ حِلَابَ سبعِ شياهِ، ثم إِنَّه أَصْبَحَ فأسَلِمَ، فَشَرِبَ حِلَابَ شاةٍ، فلم يَسْتَمَّهُ، فقال النبي ﷺ ذلك^(٢). فكأنَّه قال: هذا الكافر. والله أعلم.

وقيل: إِنَّ القلبَ لَمَّا تنوَّرَ بنورِ التوحيدِ نظرَ إلى الطعامِ بعينِ التقويِّ على الطاعة، فأخذَ منه قَدْرَ الحاجة، وحين كان مُظْلِماً بالكفرِ كان أَكَلُهُ كالبهيمَةِ ترتعُ حتى تَثَلِطَ^(٣).

واختلِفَ في هذه الأمعاء، هل هي حقيقةٌ أم لا؟ فقيل: حقيقةٌ، ولها أسماءٌ معروفةٌ عند أهلِ العلمِ بالطبِّ والتشريحِ^(٤). وقيل: هي كنايةٌ عن أسبابِ سبعةٍ يأكلُ بها النَّهْمُ^(٥): يأكلُ للحاجة، وللخَبَرِ، والشَّمِّ، والنظرِ، واللَّمْسِ، والذوقِ، ويزيدُ استغناماً^(٦). وقيل: المعنى أن يأكلَ أَكلَ مَنْ له سبعةٌ أمعاء، والمؤمنُ بخفَّةٍ أَكَلِه يأكلُ أَكلَ مَنْ ليس له إلا مَعَى واحدٌ، فيشارِكُ الكافرَ بجزءٍ مِن أجزاءِ أَكَلِه، ويزيدُ الكافرُ

(١) المفهم ٣٤٣/٥.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٩٢٤/٢، ومسلم (٢٠٦٣)، والترمذي (١٨١٩) من حديث أبي هريرة ؓ دون تعيين الرجل. وقد أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٥٢) من حديث جهجاه الغفاري، وأحمد (١٨٩٦٢) من حديث نضلة بن عمرو الغفاري، وأخرجه أحمد أيضاً (٢٧٢٢٦) من حديث أبي بصرة الغفاري، وهؤلاء الثلاثة ؓ هم أصحاب القصة، وذكر ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٦٣٨/٢) من حديث أبي هريرة أن ثمامة بن أثال لما أسر ثم أسلم وقعت له قصة تشبه قصة جهجاه، فيجوز أن يُقَسَّرَ الضيف بشمامة فيما ذكره الحافظ ابن حجر، وقوى أن تكون القصة متعددة. وينظر فتح الباري ٥٣٨/٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧١/٢. وقوله: تثلط: تثلط البعير إذا ألقى بعره رقيقاً. الصحاح (ثلط).

(٤) الكلام بنحوه في إكمال المعلم ٥٥٧/٦.

(٥) في النسخ الخطية: البهيم، والمثبت من (م).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧١/٢.

عليه بسبعة أمثاله. والمعى في هذا الحديث هو المعده^(١).

السادسة: وإذا تقرّر هذا فاعلم أنه يستحب للإنسان غسل اليد قبل الطعام وبعده؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الوضوء قبل الطعام وبعده بركة»، وكذا في التوراة، رواه زاذان عن سلمان^(٢)، وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة^(٣)، والافتداء بالحديث أولى.

ولا يأكل طعاماً حتى يعرف أحرّ هو أم بارد؟ فإنه إن كان حاراً فقد يتأذى. ورؤي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أبردوا بالطعام، فإن الحارّ غير ذي بركة». حديث صحيح^(٤)، وقد تقدّم في «البقرة»^(٥). ولا يشمه، فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يعدّ شراً.

ويُسَمِّي الله تعالى في أوّله ويحمده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن في رفع الصوت منعا لهم من الأكل. وآداب الأكل كثيرة، هذه جملة منها، وسيأتي بعضها في سورة هود إن شاء الله تعالى^(٦).

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥٤٠/٩: ونقل الكرمانى عن الأطباء في تسمية الأمعاء السبعة أنها المعده.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٢)، وأبو داود (٣٧٦١)، والترمذي (١٨٤٦) بلفظ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده»، قال أبو داود: وهو ضعيف، وقال الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث قيس بن الربيع، وقيس بن الربيع يضعف في الحديث. وسلمان: هو الفارسي.

(٣) المفهم ٣٠٠/٥.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٢٠٥) من حديث أبي هريرة، وفي إسناده عبد الله بن يزيد البكري، ضعفه أبو حاتم، وقال: ذاهب الحديث، كما في الجرح والتعديل ٢٠١/٥، وأخرجه الحاكم في المستدرک ١١٨/٤. من حديث جابر، وسكت عنه، وفي إسناده محمد بن عبيد الله العززمي، قال البخاري: تركه ابن المبارك ويحيى، وقال ابن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. كما في تهذيب الكمال ٤١/٢٦ - ٤٣. وينظر المقاصد الحسنة ص ١١، وفيض القدير ٧٧/١.

(٥) ٣٦٦/٢، وهو حديث أسماء رضي الله عنها؛ أنها كانت إذا نردت غطته شيئاً حتى يذهب قوؤه، وتقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه أعظم للبركة».

(٦) عند تفسير الآية (٩٩) منها.

وللشَّرابِ^(١) أيضاً آدابٌ معروفةٌ، تركنا ذكرها لِشهرتها. وفي «صحيح» مسلم^(٢) عن ابن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أكلَ أحدُكم فليأكلْ بيمينه، وإذا شربَ فليشربَ بيمينه؛ فإنَّ الشيطانَ يأكلُ بشماله ويشربُ بشماله».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: في كثرة الأكل، وعنه يكونُ كثرةُ الشُّرب، وذلك يُثقلُ المَعِدَّةَ، ويثبُطُ الإنسانَ عن خدمةِ ربِّه والأخذِ بحظِّه من نوافلِ الخير، فإنَّ تعدُّى ذلك إلى ما فوقه ممَّا يمنعه القيامَ بالواجبِ^(٣)، حرِّمَ عليه، وكان قد أسرفَ في مَطْعَمِهِ ومَشْرِبِهِ.

روى أسدُ بن موسى من حديثِ عون بن أبي جُحيفةَ، عن أبيه قال: أكلتُ ثريداً بلحمِ سمين، فأتيتُ النبيَّ ﷺ وأنا أتجشأ^(٤)، فقال: «أكفَّفَ عليك من جُشائك أبا جُحيفةَ، فإنَّ أكثرَ الناسِ شَبَعاً في الدنيا أطولُهم جوعاً يومَ القيامةِ». فما أكلَ أبو جُحيفةَ بملءِ بطنه حتى فارقَ الدنيا، وكان إذا تغدَّى لا يتعشى، وإذا تعشى لا يتغدى^(٥).

قلتُ: وقد يكونُ هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ يأكلُ في معى واحد» أي: التامُّ الإيمان؛ لأنَّ مَنْ حَسَنَ إسلامه وكَمَلَ إيمانه كأبي جُحيفةَ تفكَّرَ فيما يصيرُ إليه من أمرِ الموت وما بعده، فيمنعُه الخوفُ والإشفاقُ من تلك الأهوالِ من استيفاءِ شهواته، والله أعلم.

(١) في (ظ): وللشرب.

(٢) الحديث (٢٠٢٠)، وهو في مسند أحمد (٤٥٣٧).

(٣) بعدها في (خ) و(د) و(ز) و(م): عليه، والمثبت من (ظ).

(٤) في (خ) و(د): أتجشأ، ولم تجرِّد في (ظ)، والمثبت من (ز)، وهو الموافق للمصادر.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٢٤)، والبيهقي في الشعب (٥٦٤٤) من طريق أسد بن موسى، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٧/٢٥٣٧، وفي إسناده الوليد بن عمرو بن ساج، قال ابن عدي: مع ضعفه يُكتب حديثه. وأخرج المرفوع منه - دون ذكر أبي جُحيفة - الترمذي (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٣٣٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ابن زيد: معنى «ولا تُسْرِفُوا»: لا تأكلوا حراماً^(١). وقيل: «مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكَلَ كُلَّ مَا اسْتَهَيْتَ»، رواه أنسُ بن مالك عن النبي ﷺ، خرَّجه ابنُ ماجه في «سننه»^(٢). وقيل: مِن الإسرافِ الأكلُ بعدَ الشَّبَعِ، وكلُّ ذلك محظورٌ^(٣). وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ، لا تأكلُ شِبَعاً فوقَ شِبَعٍ، فَإِنَّكَ إِنْ تَنَبَّذَهُ لِلْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَأْكُلَهُ^(٤). وسأل سَمُرَةُ بن جُنْدُب عن ابنه ما فعل. قالوا: بِشَمِ البارحة، قال: بِشَمِ! فقالوا: نعم، قال: أما إنَّه لو مات ما صلَّيتُ عليه^(٥). وقيل: إِنَّ العَرَبَ في الجاهلية كانوا لا يأكلون دَسماً في أيام حَجَّهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عِراءً، فقيل لهم: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تُسْرِفُوا في تحريم ما لم يُحرِّم عليكم^(٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ بين أنهم حرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يُحرّمه الله عليهم. والزينة هنا: الملبس الحسن؛ إذا قدر عليه صاحبه، وقيل:

(١) أخرجه الطبري ١٠/١٥٦.

(٢) الحديث (٣٣٥٢)، وفي إسناده نوح بن ذكوان، قال فيه أبو حاتم: ليس بشيء وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. ميزان الاعتدال ٤/٢٧٧.

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/١٣٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٩٥٣٩)، وأحمد بن حنبل في الزهد ص ٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٩١) و(٥٦٩٨) عن الحسن.

(٥) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٤٨، وفي الورع ص ١٠٢، والبخاري في الجعديات (٣٢٢١). والبشَم: الثخمة عن الدسم. النهاية (بشم).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/١٥٥ عن السدي.

جميع الثياب، كما روي عن عمر: إذا وسع الله عليكم فأوسعوا، وقد تقدم^(١).

وروي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب شيخ مالك^(٢) ﷺ أنه كان يلبس كساء خزّ بخمسين ديناراً، يلبسه في الشتاء، فإذا كان في الصيف تصدق به، أو باعه، فتصدق بثمانه، وكان يلبس في الصيف ثوبين من متاع مصر ممشقين، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٣).

الثانية: وإذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الجُمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان، قال أبو العالوية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا^(٤)، وفي «صحيح» مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلّة سبّاء ثبّاع عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلَقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ»^(٥)، فما أنكر عليه ذكر التجمل، وإنما أنكر عليه كونها سبّاء، وقد اشترى تميم الدّاري حُلّة بألف درهم كان يُصلي فيها، وكان مالك بن أنس^(٦) يلبس الثياب العدنئة الجياد، وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشترى بنحو الدينار.

(١) ١٩١/٧.

(٢) في هذا الكلام نظر فهو من شيوخ أشياخ مالك فقد ولد الإمام مالك سنة (٩٣هـ) كما في السير ٤٩/٨، وتوفي الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ (وهو الملقب بزین العابدين) في هذه السنة، وقيل: (٩٤هـ)، وقيل: (٩٢هـ)، وقيل: (١٠٠)، كما في التمهيد ١٥٨/٩، والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢١٨/٥، وابن عبد البر في التمهيد ١٥٨/٩ - ١٥٩. وقوله: ممشقين: المَشَّق: المغفرة، وهو صبيغ أحمر، وثوب ممشوق وممشق: مصبوغ بالمشق. اللسان (مشق). ووقع في الطبقات: أشمونيين بدل: ممشقين.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١١٥/٧، والبخاري في الأدب المفرد (١/٣٤٨).

(٥) صحيح مسلم (٢٠٦٨)، وأخرجه أحمد (٤٧١٣)، والبخاري (٨٨٦)، وقوله: حلة سبّاء، أي: حلة حرير. النهاية ٤٣٣/٢.

(٦) في النسخ: مالك بن دينار، والمثبت من تلبس إبليس ص ١٩٣ (والكلام منه)، وطبقات ابن سعد (القسم المتعم) ٤٣٤/١، والسير ٧٠/٨.

أين هذا مَمَّنْ يَرِغْبُ عَنْهُ وَيُؤْتِرُ لِبَاسِ الْحَخِشِينَ مِنَ الْكَثَّانِ وَالصَّوْفِ مِنَ الثِّيَابِ، ويقول: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؟! هيهات! أترى مَنْ ذَكَرْنَا تَرَكَوْا لِبَاسَ التَّقْوَىٰ، لا والله! بل هم أهلُ التقوى وأولو المعرفة والنهي، وغيرهم أهلُ دَعْوَى، وقلوبهم خالية من التقوى.

قال خالد بن سُوذَب^(١): شَهِدْتُ الحَسَنَ وَأَتَاهُ فَرَقْدٌ، فَأَخَذَهُ الحَسَنُ بِكَسَائِهِ فَمَدَّهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: يَا فُرَيْقِدُ، يَا ابْنَ أُمِّ فُرَيْقِدٍ، إِنَّ البِرَّ لَيْسَ فِي هَذَا الكِسَاءِ، إِنَّمَا البِرُّ مَا وَقَرَ فِي الصَّدْرِ وَصَدَّقَهُ العَمَلُ^(٢).

ودخَلَ أبو محمد ابن أخي معروف الكرخي على أبي الحسن بن بشار^(٣) وعليه جَبَّةٌ صَوْفٌ، فقال له أبو الحسن: يَا أبا مُحَمَّدٍ، صَوِّفْتُ قَلْبَكَ أَوْ جَسْمَكَ؟ صَوِّفْ قَلْبَكَ، وَالبَسِ القُوْهِيَّ عَلَى القُوْهِيَّ^(٤).

وقال رجلٌ للشُّبْلِيِّ: قَدْ وَرَدَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِكَ وَهُمْ فِي الجَامِعِ، فمَضَى فَرَأَى عَلَيْهِمُ المُرْقَعَاتِ وَالْفُوطَ، فَأَنشَأَ يَقُولُ:

أَمَّا الخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا^(٥)

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله^(٦): وَأَنَا أَكْرَهُ لُبْسَ الفُوطِ وَالمُرْقَعَاتِ لِأَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ لُبْسِ السَّلَفِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُرْقِعُونَ ضَرُورَةً. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ ادِّعَاءَ الفَقْرِ، وَقَدْ أَمَرَ الإِنْسَانُ أَنْ يُظَهَرَ نِعْمَةٌ^(٧) اللَّهُ عَلَيْهِ.

(١) أبو عبد الرحمن الجشمي البصري، الجرح والتعديل ٣/٣٣٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٣٢٧، وابن الجوزي في تلييس إبليس ص ١٨٩.

(٣) في (د) و(ز) و(س)، والكلام في تلييس إبليس ص ١٩٢. وأبو الحسن بن بشار هو علي بن محمد بن بشار الزاهد، توفي سنة (٣١٣هـ). طبقات الحنابلة ٥٧/٢، والقصة فيه.

(٤) القوهي: ضرب من الثياب بيض، فارسي منسوبة إلى قوهستان. اللسان (قوه).

(٥) أخرجه ابن الجوزي في تلييس إبليس ص ١٨٤. والبيت لأبي الحسن الفالي، كما في معجم الأدباء ٢٢٧/١٢.

(٦) في تلييس إبليس ص ١٨٤.

(٧) في (د) و(ز) و(م): أثر نعم، والمثبت من (خ) و(ظ)، وتلييس إبليس.

والثالث: إظهارُ التزهد، وقد أمرنا بستره. والرابع: أنه تشبهُ بهؤلاء المترحِّزين عن الشريعة، ومَن تشبهُ بقومٍ فهو منهم.

وقال الطبري^(١): ولقد أخطأ من آثر لباسَ الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل^(٢) إليه من جلّه، ومَن أكل البُقُولَ والعدسَ واختارَهُ على خبز البر، ومَن تركَ أكلَ اللحمِ خوفاً من عارضِ شهوةِ النساء.

وسئل بشر بن الحارث^(٣) عن لبسِ الصوف، فشقَّ عليه، وتبيّنت الكراهةُ في وجهه، ثم قال: لبسُ الخُرِّ والمُعَصْفَرِ أحبُّ إليَّ من لبسِ الصوف في الأمصار.

وقال أبو الفرج: وقد كان السلفُ يلبسون الثيابَ المتوسّطة، لا المترقّعة ولا الدونَ، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيير^(٤) الأجود عندهم قبيحاً. وأمّا اللباسُ الذي يُزري بصاحبه فإنّه يتضمّنُ إظهارَ الزهد وإظهارَ الفقر، وكأنّه لسانُ شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقارَ اللّابس، وكلُّ ذلك مكروهٌ منهيٌّ عنه.

فإن قال قائلٌ: تجويدُ اللباسِ هوى النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزيّن للخلق، وقد أمرنا أن تكونَ أفعالنا لله لا للخلق.

فالجواب: أنّه ليس كلُّ ما تهواه النفسُ يُذمُّ، وليس كلُّ ما يُتزيّنُ به للناس يُكره، وإنّما يُنهي عن ذلك إذا كان الشرعُ قد نهى عنه، أو على وجه الرياء في باب الدين، فإنّ الإنسانَ يُحبُّ^(٥) أن يُرى جميلاً، وذلك حظُّ للنفس لا يلامُ فيه، ولهذا يُسرَّحُ

(١) نقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في تلييس إبليس ص ١٩٣، وسلف ٦/٢٦٢.

(٢) في النسخ الخطية: النيل، والمثبت من (م) وتلييس إبليس.

(٣) أبو نصر المروزي، البغدادي، المحدث، كان رأساً في الورع والإخلاص توفي سنة (٢٢٧هـ). السير ٤٦٩/١٠.

(٤) في تلييس إبليس ص ١٩٣: ولم يكن غير.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م) ومطبوع تلييس إبليس ص ١٩٥: يجب، والمثبت من (خ).

شعره، وينظر في المرأة ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الحشينة إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم.

وقد روى مكحول عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوي لحيته وشعره، فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟! قال: «نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه؛ فليهيئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال»^(١).

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس»^(٢). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة.

وقد روى محمد بن سعد: أخبرنا الفضل بن دكين قال: حدثنا مندل، عن ثور، عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ يسافر بالمشط والمرآة، والدهن والسواك والكحل. وعن ابن جريج: مشط عاج يمشط به.

قال ابن سعد: وأخبرنا قبيصة بن عقبة قال: حدثنا سفيان، عن ربيع بن صبيح، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه ويسرّح

(١) قوله منه: «إن الله جميل يحب الجمال» صحيح، وسيأتي بعده. وأما باقي الحديث فقد أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/٦٨٧ من طريق أيوب بن مردك، وأخرجه في تليس إبليس ص ١٩٥ من طريق العلاء بن كثير الدمشقي، كلاهما عن مكحول عن عائشة رضي الله عنها، به. وأيوب بن مردك كذبه ابن معين، وقال أبو حاتم والنسائي: متروك، وقال ابن حبان: روى أيوب عن مكحول بنسخة موضوعة. ولم يره. ميزان الاعتدال ١/٢٩٣. والعلاء بن كثير الدمشقي، قال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: له عن مكحول نسخ عن الصحابة كلها غير محفوظة. ومكحول لم يدرك عائشة رضي الله عنها. ينظر تنزيه الشريعة ٢/٢٧٨.

(٢) صحيح مسلم (٩١)، وأخرجه أحمد (٣٧٨٩) بنحوه. قال أبو العباس القرطبي في المفهم ١/٢٨٨-٢٨٩: بطر الحق: إبطاله. وغمط الناس: احتقارهم واستصغارهم.

لحيته بالماء، أخبرنا يزيد بن هارون، حدثنا عبّاد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت لرسول الله ﷺ مَكْحَلَةٌ يَكْتَحِلُ بِهَا عِنْدَ النَّوْمِ ثَلَاثًا فِي كُلِّ عَيْنٍ^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الطَّيِّبَاتُ: اسْمٌ عَامٌّ لِمَا طَابَ كَسْبًا وَطَعْمًا. قال ابن عباس وقتادة: يعني بالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ: مَا حَرَّمَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِ وَالْوَصَائِلِ وَالْحَوَامِي^(٢). وقيل: هي كُلُّ مُسْتَلَذٍّ مِنَ الطَّعَامِ^(٣).

وقد اختلف في ترك الطَّيِّبَاتِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ اللَّذَاتِ، فقال قومٌ: ليس ذلك مِنَ الْقُرْبَاتِ، وَالْفِعْلُ وَالتَّرْكُ يَسْتَوِي فِي الْمَبَاحَاتِ. وقال آخرون: ليس قُرْبَةً فِي ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ سَبِيلٌ إِلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَقَصْرِ الْأَمَلِ فِيهَا، وَتَرْكِ التَّكَلُّفِ لِأَجْلِهَا، وَذَلِكَ مَدْنُوبٌ إِلَيْهِ، وَالْمَدْنُوبُ قُرْبَةٌ. وقال آخرون: وَنُقِلَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَوْلُهُ: لَوْ شِئْنَا لَأَتَّخَذْنَا صَلَاةً وَصَلَاتٍ وَصِنَابًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَذُمُّ أَقْوَامًا فَقَالَ: ﴿أَذْهَبَتْ طَيِّبَاتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا﴾^(٤) [الأحقاف: ٢٠]، وَيُرْوَى: صَرَائِقُ، بِالرَّاءِ، وَهُمَا جَمِيعًا الْجَرَادِقُ. وَالصَّلَاتُ؛ بِاللَّامِ: مَا يُضَلَّقُ مِنَ اللَّحُومِ وَالْبُقُولِ. وَالصَّلَاءُ بِكسْرِ الصَّادِ وَالْمَدِّ: الشُّوَاءُ. وَالصَّنَابُ: الْخَرْدَلُ بِالزَّيْبِ^(٥).

وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكُلْفَةٍ وَبِغَيْرِ كُلْفَةٍ، قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْمُفَضَّلِ الْمُقَدِّسِيِّ^(٦) شَيْخُ أَشْيَاخِنَا: وَهُوَ الصَّحِيحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ

(١) طبقات ابن سعد ٤٨٤/١ وخير خالد بن معدان مرسل، وحديث أنس ﷺ أخرجه البيهقي في الشعب (٦٤٦٣)، والترمذي بنحوه في الشمائل (٣٢)، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٣٣١٨)، والترمذي (٢٠٤٨)، وابن ماجه (٣٤٩٩).

(٢) أخرجه الطبري ١٥٨/١٠، وسلف شرح هذه الألفاظ ٦/٣٣٥ - ٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ٢/٢١٩.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٧٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/٤٩ بنحوه.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/٢٦٤، والفائق ٢/٢٩٦ و ٣١١. والصلائق تروى أيضاً: السلائق، بالسین. والجرادق: جمع جردقة: الرغيف، فارسية معربة، اللسان (جرق).

(٦) ثم الإسكندراني، برع في المذهب المالكي، وتوفي سنة (٦١١هـ). السير ٢٢/٦٦.

عن النبي ﷺ أنه امتنع من طعام لأجل طيبه قَطُّ، بل كان يأكلُ الحلوى والعسل، والبَطِيخَ والرُّطْبَ^(١)، وإنما يكره التكلُّف؛ لما فيه من التشاغُلِ بشهواتِ الدنيا عن مهمَّاتِ الآخرة، والله تعالى أعلم.

قلت: وقد كره بعضُ الصوفيَّةِ أكلَ الطيبات، واحتجَّ بقولِ عمر ﷺ: «إياكم واللَّحْمَ، فإنَّ له ضَرَاوَةً كضَرَاوَةِ الخمر»^(٢). والجواب: أنَّ هذا من عمر قولٌ خرجَ على مَنْ خُشِيَ منه إثَارُ التَّنَعُّمِ في الدنيا، والمداوِمَةُ على الشهوات، وشِفَاءُ النفس من اللَّذات، ونسيانُ الآخرة، والإقبالُ على الدنيا، ولذلك كان يكتبُ^(٣) إلى عُمَّالِهِ: «إياكم والتَّعَنُّمَ وزِيَّ أَهْلِ العَجَمِ، واخشَوْشِنُوا»^(٤)، ولم يُرِدْ ﷺ تحريمَ شيءٍ أحلَّهُ الله، ولا تحظيرَ ما أباحَهُ الله تبارك اسمه، وقولُ الله عزَّ وجلَّ أولى ما امْتَلَأَ واعتَمَدَ عليه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «سَيِّدُ إِدَامِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّحْمُ»^(٥)، وقد روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنَّ النبي ﷺ كان يأكلُ الطَّبِيخَ بالرُّطْبِ، ويقول: «يَكْسِرُ حَرُّ هَذَا بَرْدَ هَذَا، وَبَرْدُ هَذَا حَرُّ هَذَا»^(٦)، والطَّبِيخُ لغةٌ في البَطِيخِ، وهو من المقلوب، وقد مضى

(١) أخرج أحمد (٢٤٣١٦)، والبخاري (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحبُّ الحَلْواءَ والعسل... وسيأتي حديث أكله ﷺ البطيخ والرطب قريباً.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٩٣٥/٢.

(٣) بعدها في (د) و(م): عمر.

(٤) أخرجه أحمد (٩٢)، ومسلم (٢٠٦٩): (١٢)، وابن حبان (٥٤٥٤)، ولفظ: واخشوشنوا، عند ابن حبان وحده. وقد سلف نحوه ٥٦/٥.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣) من حديث بُرَيْدَةَ ﷺ، وفي إسناده سعيد بن عنبسة الرازي، كذَّبه ابن معين وابن الجنيد، كما في لسان الميزان ٣/٣٩. وأخرجه ابن ماجه (٣٣٠٥) من حديث أبي الدرداء ﷺ بلفظ: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم»، وفيه سليمان بن عطاء الجزري، وهو منكر الحديث، فيما قاله الحافظ ابن حجر في تحرير التقریب ٧٤/٢. وينظر المقاصد الحسنة ص ٢٤٤.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٨٣٦)، وأخرجه الترمذي (١٨٤٣) مختصراً دون الطرف القولي منه. وفي الباب عن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يأكل الرُّطْبَ بالقِثَاءِ. أخرجه أحمد (١٧٤١)، والبخاري (٥٤٤٧)، ومسلم (٢٠٤٣)، وينظر فتح الباري ٥٧٣/٩.

في «المائدة»^(١) الرُّدُّ عَلَى مَنْ آثَرَ أَكْلَ الْخَشِينِ مِنَ الطَّعَامِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَرُدُّ عَلَيْهِ وَغَيْرُهَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: بِحَقِّهَا مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّصْدِيقِ لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْعِمُ وَيَرْزُقُ، فَإِنْ وَحَّدَهُ الْمَنَعَمُ عَلَيْهِ وَصَدَّقَهُ، فَقَدْ قَامَ بِحَقِّ النِّعْمَةِ، وَإِنْ كَفَرَ فَقَدْ أَمَكَّنَ الشَّيْطَانَ مِنْ نَفْسِهِ. وَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أذى مِنَ اللَّهِ، يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ، وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ وَالْوَالِدَةَ»^(٢). وَتَمَّ الْكَلَامُ عَلَى^(٣): «الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». ثُمَّ قَالَ: «خَالِصَةٌ» بِالرَّفْعِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٤) وَنَافِعٍ^(٥).

﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي: يَخْلُصُ اللَّهُ الطَّيِّبَاتِ فِي الْآخِرَةِ لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَليْسَ لِلْمُشْرِكِينَ فِيهَا شَيْءٌ كَمَا كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْإِشْتِرَاقِ فِيهَا. وَمَجَازُ الْآيَةِ: قُلْ: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا مُشْرَكَةٌ فِي الدُّنْيَا مَعَ غَيْرِهِمْ، وَهِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٦)، فَ«خَالِصَةٌ» مُسْتَأْنَفٌ عَلَى خَبَرٍ مُبْتَدَأٍ مُضْمَرٍ. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَابْنَ جُرَيْجٍ، وَابْنَ زَيْدٍ^(٧).

وقيل: المعنى: إِنَّ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ الْمَوْجُودَاتِ فِي الدُّنْيَا هِيَ خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) ١١٨/٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧٢/٢ - ٧٧٣ . والحديث أخرجه أحمد (١٩٥٨٩)، والبخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وليس عندهم قوله: «الصاحبة». وهي عند عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٥٠).

(٣) في (خ) و(د) و(ز): في، بدل: على، وليس فيها قوله: وتم الكلام. والمثبت من (ظ) و(م).

(٤) في (د) و(ز): ابن عامر، وهو خطأ، وفي (خ): أبيّ، والمثبت من (ظ) و(م)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١٢٣/٢، والكلام فيه بنحوه.

(٥) السبعة ص ٢٨٠، والتيسير ص ١٠٩.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣٧٧/١.

(٧) أخرجه الطبري ١٥٩/١٠ - ١٦١.

للمؤمنين في الدنيا، وخلصها أنهم لا يُعاقبون عليها ولا يُعذبون، فقوله: «في الحياة الدنيا» متعلق بـ «آمنوا»، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير^(١).

وقرأ الباقر بن النصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تمّ دونه، ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على «الدنيا»؛ لأن ما بعده متعلق بقوله: «للذين آمنوا» حالاً منه، بتقدير: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة، قاله أبو علي. وخبر الابتداء: «للذين آمنوا»، والعاقل في الحال ما في اللام من معنى الفعل في قوله: «للذين»^(٢)، واختار سيويه النصب لتقدم الظرف^(٣).

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ﴾ أي: كالذي فصلت لكم الحلال والحرام؛ أفضل لكم ما تحتاجون إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطاقوا بالبيت غيرهم المشركون، فنزلت هذه الآية، والفواحش: الأعمال المفردة في القبح، ما ظهر منها وما بطن: روى رَوْحُ بن عباد، عن زكريا بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: «ما ظهر منها»: نكاح الأمهات في الجاهلية، «وما بطن»: الزنى. وقال قتادة: سرها وعلايتها^(٤). وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغي، فدل أن المراد بالفواحش بعضها، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى^(٥)، والله أعلم.

(١) المحرر الوجيز ٢/٣٩٣ - ٣٩٤، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٠/١٦٢.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٤/١٥ - ١٧، وينظر المحرر الوجيز ٢/٣٩٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٣، وينظر الكتاب ٢/٩٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/٢٨ - ٢٩، وأخرج الطبري قولي مجاهد وقاتدة ٩/٥١٨ و ٥١٦ و ٦٦٠ و

٦٦١.

(٥) أحكام القرآن للكميا ٣/١٣٩.

﴿وَالْإِثْمُ﴾ قال الحسن^(١)، قال الشاعر:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَاكَ الْإِثْمُ تَذْهَبُ بِالْعُقُولِ^(٢)
وقال آخر:

نَشْرَبُ الْإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جِهَارًا وَتَرَى الْمُثَنكَ^(٣) بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا
﴿وَالْبَغْيُ﴾: الظلم وتجاوز الحد فيه، وقد تقدّم^(٤). وقال ثعلب: البغي أن يقع الرجل في الرجل فيتكلم فيه، ويبغي عليه بغير الحق، إلا أن ينتصر منه بحق. وأخرج الإثم والبغي من الفواحش، وهما منه، لعظمهما وفحشهما، فنص على ذكرهما تأكيداً لأمرهما وقصداً للزجر عنهما. وكذا: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا﴾، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾، وهما في موضع نصب عطفاً على ما قبل^(٥).

وقد أنكروا جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر، قال الفراء^(٦): الإثم: ما دون الحد، و[البغي]: الاستطالة على الناس. قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر، فلا يُعرف ذلك، وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصي، كما قال الشاعر:

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشَدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ^(٧)
قلت: وأنكره ابن العربي أيضاً وقال: ولا حجة في البيت؛ لأنه لو قال: شَرِبْتُ

(١) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٣/١٩١، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٣٩٥: وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مكية، ولم تُن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد.

(٢) سلف ٣/٤٤٦.

(٣) في (م): المسك، والبيت في تهذيب اللغة ١٥/١٦١، وزاد المسير ٣/١٩١ دون ذكر قائله. قال الأزهرى: المثنك: الأترج، أي: تتعاوره بأيدينا، نشمه.

(٤) ٣/٤٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٤.

(٦) في معاني القرآن ١/٣٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٣، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

(٧) قائله المُخْبَل السعدي، وهو في المفضليات ص ١١٣، ومنتهى الطلب ١/٣٧٦.

الدَّنبِ، أو شَرِبْتُ الوِرْزَ؛ لكان كذلك، ولم يُوجِبْ قوله أن يكون الذنبُ والوِرْزُ اسماً من أسماءِ الخمر، كذلك الإثمُ، والذي أوجِبَ التكلُّمَ بمثل هذا الجهلُ باللُّغَةِ وبطريق الأدلَّةِ في المعاني^(١).

قلت: وقد ذكرناه عن الحسن، وقال الجوهرِيّ في «الصحاح»^(٢): وقد يُسمَّى

الخمرُ إثمًا، وأنشد: شَرِبْتُ الإثمَ، البيت

وأنشده الهرويُّ في «غريبه» على أن الخمرَ الإثمُ. فلا يبعدُ أن يكون الإثمُ يقعُ

على جميعِ المعاصي، وعلى الخمرِ أيضاً لُغَةً، فلا تناقضُ. والبغي: التجاوزُ في الظلم، وقيل: الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

فيه مسألة واحدة:

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: وَقْتُ مُوَقَّتٌ. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: الوقتُ

المعلومُ عند الله عزَّ وجلَّ. وقرأ ابن سيرين: جاءَ آجالُهُم^(٣)، بالجمع.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ساعةٌ ولا أقلَّ من ساعة، إلا أن الساعةَ خُصَّتْ بالذكرِ،

لأنها أقلُّ أسماءِ الأوقات، وهي ظرفُ زمان^(٤)، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فدَلَّ بهذا على أن

المقتولُ إنما يُقتلُ بأجلِهِ^(٥)، وأجلُ الموتِ هو وقتُ الموت، كما أن أجلَ الدِّينِ هو

وقتُ حُلُولِهِ، وكلُّ شيءٍ وَقَّتْ به شيءٌ فهو أجلُّ له، وأجلُ الإنسانِ هو الوقتُ الذي

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧٤/٢.

(٢) مادة (إثم).

(٣) القراءات الشاذة ص ٤٤، والمحتسب ٢٤٦/١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣٣٤/٢، ومعاني القرآن للنحاس ٣٠/٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٢٤/٢.

يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ يَمُوتُ الْحَيُّ فِيهِ لَا مُحَالَةَ، وَهُوَ وَقْتُ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ مَوْتِهِ عَنْهُ، لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ مَقْدُورًا تَأْخِيرُهُ.

وقال كثيرٌ من المعتزلة - إلا من شدَّ منهم -: إنَّ المقتولَ ماتَ بغيرِ أجلِهِ الذي ضُربَ له، وأنَّه لو لم يُقتَلْ لَحَيَّي.

وهذا غَلَطٌ؛ لأنَّ المقتولَ لم يَمُتْ من أجلِ قتلِ غيره له، بل من أجلِ ما فعلَهُ اللهُ من إزهاقِ نفسِهِ عندَ الضربِ له^(١).

فإن قيل: فإن ماتَ بأجلِهِ؛ فَلِمَ تقتلون ضارِبَهُ وتقتصون منه؟ قيل له: نقتله لِتَعْدِيهِ وتصرُّفه فيما ليس له أن يتصرَّفَ فيه، لا لموته وخروجِ الروح، إذ ليس ذلك من فعلِهِ، ولو تُرِكَ النَّاسُ والتعدِّي من غيرِ قصاص، لأدَّى ذلك إلى الفسادِ ودمارِ العباد، وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ شرط، ودخلتِ النونُ توكيداً لدخولِ «ما»^(٢)، وقيل: «ما» صلة، أي: إن يأتِيكُمْ^(٣)، أخبر أنه يُرسلُ إليهم الرسلَ منهم؛ لتكون إجابتهم أقرب. والقَصَصُ: اتباعُ الحديثِ بعضُه بعضاً.

﴿ءَايَاتِي﴾ أي: فرائضي وأحكامي^(٤).

﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ شرط، وما بعدهُ جوابُه، وهو جوابُ الأوَّل، أي: وأصلحَ

(١) تمهيد الأوائل للباقلاني ١/٣٧٤ - ٣٧٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٤.

(٣) في النسخ الخطية: يأتِيكُمْ، والمثبت من (م).

(٤) تفسير البغوي ٢/١٥٨، ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

منكم ما بيني وبينه. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون، ولا يلحقهم رُعبٌ ولا فزعٌ^(١)، وقيل: قد يلحقهم أهوالٌ يوم القيامة، ولكن ما لهم الأمن^(٢). وقيل: جوابُ «إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ» ما دلَّ عليه الكلام، أي: فأطيعوهم، فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ^(٣)، والقولُ الأوَّلُ قولُ الزجاج^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المعنى: أي ظلم أشنع^(٥) من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته؟. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: ما كُتِبَ لهم من رزق وعُمر وعمل. عن ابن زيد. ابن جبير: من شقاء وسعادة. ابن عباس: من خير وشر. الحسنُ وأبو صالح: من العذاب بقدر كفرهم^(٦).

واختيارُ الطبري أن يكون المعنى: ما كُتِبَ لهم، أي: ما قُدِّرَ لهم من خير وشر، ورزق وعمل وأجل، على ما تقدم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير. قال: ألا ترى أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾^(٧) يعني رُسُلَ مَلِكِ المَوْتِ.

وقيل: «الكتاب» هنا القرآن؛ لأنَّ عذاب الكفار مذكورٌ فيه. وقيل: «الكتاب» اللوح المحفوظ^(٨).

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٢٤/٢.

(٢) تفسير الرازي ٦٩/١٤.

(٣) معاني القرآن للأخفش ٥١٦/٢.

(٤) معاني القرآن له ٣٣٤/٢.

(٥) في (خ): أي ذنب أشنع، وفي (د): أي أظلم أشنع، وفي (ظ): أي شيء أظلم وأشنع، والمثبت من (ز) و(م).

(٦) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٦٨/١٠ و ١٦٩ و ١٧٣ و ١٧٥.

(٧) تفسير الطبري ١٧٥/١٠.

(٨) زاد المسير ١٩٣/٣.

ذكر الحسن بن علي الحلواني^(١) قال: أملى عليّ عليّ بن المديني قال: سألت عبد الرحمن بن مهدي عن القدر، فقال لي: كلُّ شيء بقدر، والطاعة والمعصية بقدر. قال^(٢): وقد أعظم الفرية من قال: إن المعاصي ليست بقدر. قال علي: وقال لي عبد الرحمن بن مهدي: العلم والقدر والكتاب سواء. ثم عرضت كلام عبد الرحمن ابن مهدي على يحيى بن سعيد، فقال: لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير^(٣).

وروى يحيى بن معين: حدثنا مروان الفزاري، حدثنا إسماعيل بن سميع، عن بكير الطويل، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: قوم يعملون أعمالاً لا بدّ لهم من أن يعملوها^(٤).

و«حتى» ليست غاية، بل هي ابتداء خبر عنهم. قال الخليل وسيبويه: «حتى» و«إما» و«إلا» لا يُملَن؛ لأنهنَّ حروف، ففُرق بينها وبين الأسماء نحو: حُبلى وسكرى.

قال الزجاج^(٥): تُكتب حتى بالياء؛ لأنها أشبهت سكرى^(٦)، ولو كتبت «إلا» بالياء لأشبهت إلى. ولم تكتب «إما» بالياء؛ لأنها «إن» ضُمَّت إليها «ما». ﴿قَالُوا أَيَّنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سؤال توبيخ. ومعنى «تَدْعُونَ»: تعبدون. ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي: بظلموا وذهبوا. قيل: يكون هذا في الآخرة. ﴿وَشَهِدُوا عَلَٰنَ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: أقرؤوا بالكفر على أنفسهم^(٧).

(١) أبو محمد الهذلي، المجاور بمكة، الحافظ، الصدوق، توفي سنة (٢٤٢هـ). السير ٣٩٨/١١.

(٢) لفظ: قال، من (خ) و(ز) و(ظ).

(٣) التمهيد ٦٧/٦، ويحيى بن سعيد، هو القطان.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٤٣٩) من طريق إسماعيل بن سميع، به. وأخرجه الطبري ١٧١/١٠ من طريق مروان الفزاري، لكن من قول مجاهد.

(٥) في معاني القرآن ٢/٣٣٥، ونقله المصنف عنه، مع ما قبله بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٢٥/٢ وينظر كتاب سيبويه ١٣٥/٤.

(٦) يعني لأنها على أربعة أحرف، كما قال الزجاج.

(٧) الوسيط ٢/٣٦٦، وزاد المسير ٣/١٩٤.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْتُمْ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَأْتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَانَهُمْ لِأَخْرَيْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أي: مع أمم، ذ «في» بمعنى مع. وهذا لا يمتنع؛ لأن قولك: زيد في القوم، أي: مع القوم. وقيل: هي على بابها^(١)، أي: أدخلوا في جملتهم. والقائل قيل: هو الله عز وجل، أي: قال الله أدخلوا. وقيل: هو مالك خازن النار^(٢).

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: التي سبقتها إلى النار، وهي أختها في الدين والملة^(٣). ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا﴾ أي: اجتمعوا.

وقرأ الأعمش: «تداركوا» وهو الأصل، ثم وقع الإدغام، فاحتيج إلى ألف الوصل. وحكاها المهدي عن ابن مسعود^(٤).

النحاس: وقرأ ابن مسعود: «حتى إذا أذرکوا» أي: أدرك بعضهم بعضاً^(٥). وعصمة^(٦) عن أبي عمرو: «حتى إذا أذرکوا» بإثبات الألف^(٧) على الجمع بين

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٢، وينظر التصاريف ليحيى بن سلام ص ٢٢٦.

(٢) تفسير الرازي ١٤/٧٢.

(٣) الوسيط ٢/٣٦٦، وزاد المسير ٣/١٩٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٥، والمحتسب ١/٢٤٧، والمحزر الوجيز ٢/٣٩٩.

(٥) إعراب القرآن ٢/١٢٥، وفيه مجاهد، بدل: ابن مسعود. ولم نقف على من نسبها لابن مسعود.

(٦) عصمة بن عروة، أبو نجیح الفقيمي البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود. غاية النهاية ١/٥١٢.

(٧) يعني ألف «إذا»، ونسب ابن جني في المحتسب ١/٢٤٧ هذه القراءة لمجاهد وحُميد ويحيى وإبراهيم. وقراءة أبي عمرو المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

الساكنين. وحُكي: هذان عبدا لله. و: له ثلثا المال. وعن أبي عمرو أيضاً: «إذا إدَّاركوا» بقطع ألف الوصل^(١)؛ فكأنه سكت على «إذا» للتذكُّر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمُبْتَدِئِ بها. وقد جاء في الشعر قَطْعُ ألف الوصل نحو قوله: يا نفسُ صبراً كلُّ حيٍّ لاقٍ وكلُّ إثْنينِ إلى افتراقٍ^(٢) وعن مجاهد وحُميد بن قيس: «حتى إذ أدركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحذف الألف التي بعد الدال^(٣). «جميعاً» نصب على الحال.

﴿قَالَتْ أَتْنَبَهُمْ لِأَوْلَانِهِمْ﴾ أي: آخرهم دخولاً، وهم الأتباع، لأولاهم وهم القادة: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾^(٤). فاللام في «أولاهم» لام أجل؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم، ولكن قالوا في حق أولاهم: ربَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا^(٥).

والضَّعْفُ: المِثْلُ الزائد على مثله مرة أو مرات. وعن ابن مسعود أنَّ الضَّعْفَ هاهنا الأفاعي والحيات^(٦). ونظيرُ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْتَنُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾^(٧) [الأحزاب: ٦٨]. وهناك يأتي ذِكرُ الضَّعْفِ بأشبع من هذا، وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالى.

﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي: للتابع والمتبوع^(٨). ﴿وَلَكِنَّ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على قراءة مَنْ قرأ

(١) المحتسب ٢٤٧/١، والمحزر الوجيز ٣٩٩/٢.

(٢) المحتسب ٢٤٧/١ - ٢٤٨، والبيت فيه وفي الخصائص ٤٧٥/٢ دون نسبة.

(٣) القراءات الشاذة ص ٤٤.

(٤) الوسيط ٣٦٦/٢.

(٥) تفسير الرازي ٧٣/١٤، وينظر الكشاف ٧٨/٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٧٩/١٠.

(٧) قرأ بها السبعة ما عدا عاصم فقرأ: «كبيراً»، وستأتي في موضعها.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣٣٧/٢، والوسيط ٣٦٦/٢.

بالباء^(١)، أي: لا يعلم كل فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من في النار أن عذاب أحد فوق عذابه، لكان نوع سلوة له.

وقيل: المعنى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء، أي: ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب. ويجوز أن يكون المعنى: ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب^(٢).

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ لِأَخْرَجْتَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفاً من العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٥﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لأرواحهم. جاءت بذلك أخبارٌ صحاحٌ ذكرناها في كتاب «التذكرة»^(٤) منها حديث البراء بن عازب، وفيه في قبض روح الكافر قال: «ويخرج منها^(٥) ريحٌ كأنتن جيفةٌ وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرُّون على مَلَأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة. فيقولون: فلان بن فلان؛ بأقبح أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون، فلا يُفتح لهم». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الآية^(٦).

(١) هي قراءة عاصم في رواية شعبة، وقرأها الباقر بالتاء. السبعة ص ٢٨٠، والتيسير ص ١١٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٣٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٥.

(٤) ص ١١٩.

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): معها.

(٦) قطعة من حديث البراء الطويل؛ أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وفيه: «ما هذا الروح الخبيث» بدل: «ما هذه الروح الخبيثة».

وقيل: لا تُفتح لهم أبواب السماء إذا دَعَوْا. قاله مجاهد والنخعي^(١). وقيل: المعنى: لا تُفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن الجنة في السماء^(٢). ودل على ذلك قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْفِيلِ﴾، والجمل لا يُلِجُ، فلا يدخلونها البتة، وهذا دليل قطعي لا يجوز العفو عنهم، وعلى هذا أجمع المسلمون^(٣) الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهم.

قال القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب^(٤): فإن قال قائل: كيف يكون هذا إجماعاً من الأمة، وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مقلدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا في النار؟ قيل له: هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلد كافراً؛ لشبهة دخلت عليهم، ولم يزعموا أن المقلد كافراً، وأنه مع ذلك ليس في النار، والعلم بأن المقلد كافراً أو غير كافر طريقه النظر دون التوقيف والخبر.

وقرأ حمزة والكسائي: «لَا يُفْتَحُ» بالياء مضمومة على تذكير الجمع. وقرأ الباقون بالياء على تانيث الجماعة^(٥)، كما قال: ﴿مُفْتَنَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠] فأنث. ولما كان التانيث في الأبواب غير حقيقي جاز تذكير الجمع. وهي قراءة ابن عباس بالياء^(٦).

وخفف أبو عمرو وحمزة والكسائي، على معنى أن التخفيف يكون للقليل والكثير، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعد مرة لا غير، والتشديد هنا أولى؛ لأنه على الكثير أدل^(٧).

(١) أخرجه الطبري ١٨٤/١٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣٣٧/٢.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): إجماع المسلمين.

(٤) في تمهيد الأوائل ص ٤٠٣.

(٥) مع التخفيف لأبي عمرو، والتشديد لنافع وابن كثير وابن عامر وعاصم. السبعة ص ٢٨٠، والتيسير ص ١١٠.

(٦) لم نقف على من نسبها لابن عباس، ونسبها للنحاس في إعراب القرآن ١٢٥/٢ للأعمش.

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ١٢٥/٢، والكشف عن وجوه القراءات ٤٦٢/١.

وَالجَمَلُ مِنَ الإِبْلِ. قَالَ الفِرَاءُ^(١): الجَمَلُ زَوْجُ الناقَةِ. وكذا قال عبد الله بن مسعود لَمَّا سُئِلَ عن الجَمَلِ، فقال: هو زَوْجُ الناقَةِ!^(٢) كأنه استجهلَ مَنْ سألَهُ عَمَّا يعرفه الناس جميعاً^(٣).

والجمع: جِمَالٌ وأجمالٌ وجِمالاتٌ وجِمائلٌ، وإنما يُسَمَّى جملاً إذا أُرْبِعَ^(٤). وفي قراءة عبد الله: «حتى يلج الجملُ الأصفر في سَمِّ الخِيَاطِ». ذكره أبو بكر الأنباري: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا نصر بن داودَ، حَدَّثَنَا أبو عبيد، حَدَّثَنَا حجاج، عن ابن جريج، عن ابن كثير، عن مجاهد قال في قراءة عبد الله، فذكره^(٥).

وقرأ ابن عباس: «الجُمَّلُ»^(٦) بضمِّ الجيمِ وَقَتَح الميمِ وتشديدها. وهو حَبْلُ السفينة الذي يُقال له: القَلْسُ، وهو حبال مجموعة^(٧)، جمع جُملة؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب^(٨). وقيل: الحَبْلُ الغليظُ مِنَ القُنْبِ. وقيل: الحَبْلُ الذي يُصعدُ به في النخل^(٩).

وَرُويَ عنه^(١٠) أيضاً، وعن سعيد بن جبير: «الجُمَّلُ» بضمِّ الجيمِ وتخفيفِ الميمِ، قيل: هو القَلْسُ أيضاً والحَبْلُ، على ما ذكرنا آنفاً. وروِيَ عنه أيضاً: «الجُمَّلُ» بضمِّتين جمعُ جَمَلٍ؛ كَأَسَدٍ وَأَسَدٍ، و«الجُمَّلُ» مثل: أَسَدٍ وَأَسَدٍ. وعن أبي السَّمال:

(١) في معاني القرآن ١/٣٧٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/١٨٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٥.

(٤) الصحاح (جمل).

(٥) المصاحف لابن الأنباري كما في الدر المنثور ٣/٨٤، وهو في فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٧٢.

(٦) القراءات الشاذة ص ٤٣، والمحتسب ١/٢٤٩، وأخرجها الطبري ١٠/١٩٢.

(٧) الصحاح (جمل).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٥ - ٣٦.

(٩) أخرجه الطبري ١٠/١٩٣ من قول عكرمة.

(١٠) يعني عن ابن عباس رضي الله عنهما. القراءات الشاذة ص ٤٣، والمحتسب ١/٢٤٩.

«الْجَمَلُ» بفتح الجيم وسكون الميم؛ تخفيف «جَمَلٌ»^(١).

وَسَمُّ الْخِيَاطِ: نَقَبُ الْإِبْرَةِ، عن ابن عباس وغيره^(٢). وكلُّ ثَقْبٍ لَطِيفٍ فِي الْبَدَنِ يُسَمَّى سَمًّا وَسُمًّا، وجمعُه: سُمُومٌ. وجمعُ السَّمِّ الْقَاتِلِ: سِمَامٌ^(٣). وقرأ ابن سيرين: «فِي سُمِّ» بضم السين^(٤). وَالْخِيَاطُ: مَا يُخَاطُ بِهِ، يُقَالُ: خِيَّطَ وَمِخِيطٌ، مِثْلُ: إِزَارٍ وَمِثْرَةٍ، وَقِنَاعٍ وَمِقْنَعٍ^(٥).

وَالْمِهَادُ: الْفِرَاشُ. وَ«غَوَاشٍ» جَمْعُ غَاشِيَةٍ، أَي: نِيرَانٌ تَغْشَاهُمْ.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني الكفار^(٦)، واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ، أَي: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٧).

ومعنى ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٨) أَي: إِنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْ أَحَدًا مِنْ نَفَقَاتِ الزَّوْجَاتِ إِلَّا مَا وَجَدَ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ، دُونَ مَا لَا تَنَالُهُ يَدُهُ، وَلَمْ يُرِذْ إِثْبَاتَ الْإِسْتِطَاعَةِ قَبْلَ الْفِعْلِ، قَالَه ابْنُ الطَّبِيبِ، نَظِيرُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]^(٩).

(١) القراءات الشاذة ص ٤٣، والمحاسب ٢٤٩/١، ويعني بالتخفيف إسكان الميم.

(٢) أخرجه الطبري ١٩٦/١٠.

(٣) كذا قال، وكلاهما يجمع على سُوم وسيمام. ينظر الصحاح (سمم).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣٦/٣، والمحزر الوجيز ٤٠٠/٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٣ لأبي السَّمَالِ.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣٧٩/١.

(٦) الكلام بنحوه في معاني القرآن للنحاس ٣٦/٣ - ٣٧.

(٧) تفسير الرازي ٧٨/١٤.

(٨) في النسخ الخطية، وتمهيد الأوائل ص ٣٢٨، والكلام منه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(٩) ومعنى الآية أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق، فلا تكلف نفس إلا طاقتها وما لا تحرج فيه ولا تضيق عليه. ينظر المحزر الوجيز ٤٠١/٢، وتفسير البغوي ١٦٠/٢.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لَوْلَا لَحْمٌ لِّلَّهِ الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَيْتَنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَنُؤَدُّوهُمَا أَن تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ نَزْعَ الْغِلِّ مِنْ صُدُورِهِمْ.

وَالنَّزْعُ: الاستخراج. وَالْغِلُّ: الْحِقْدُ الْكَامِنُ فِي الصَّدْرِ، وَالْجَمْعُ: غِلَالٌ^(١)، أَي: أَذْهَبْنَا فِي الْجَنَّةِ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِلِّ فِي الدُّنْيَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْغِلُّ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ كَمَبَارِكِ الْإِبْلِ قَدْ نَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢). وَرُويَ عَنْ عَلِيٍّ ؑ أَنَّهُ قَالَ: أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعِثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(٣).

وقيل: نَزْعُ الْغِلِّ فِي الْجَنَّةِ أَلَّا يَحْسُدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي تَفَاضُلِ مَنَازِلِهِمْ^(٤). وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عَنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أَي: يُطَهِّرُ الْأَوْصَارَ مِنَ الصُّدُورِ، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ وَالزُّمَرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٥).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا لَحْمٌ لِّلَّهِ الَّذِي هَدَيْتَنَا لِهَذَا﴾ أَي: لِهَذَا الشَّوَابِ؛ بَأَنَّ أَرْشَدَنَا وَخَلَقَ لَنَا الْهَدَايَةَ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ.

﴿وَمَا كُنَّا﴾ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ بِإِسْقَاطِ الْوَاوِ، وَالْبَاقُونَ بِإِثْبَاتِهَا^(٦). ﴿لِنَهْتَدِيَ﴾ لَامٌ نَفِي^(٧). ﴿لَوْلَا أَنَّ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٣٦/٢ .

(٢) لم نقف عليه، ونقله المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٠١/٢ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢٢٩/٢ ، والطبري ١٠/١٩٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٣٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣٧/٣ .

(٥) سورة الإنسان، الآية (٢١)، وسورة الزمر، الآية (٧٣).

(٦) السبعة ص ٢٨٠ ، والتيسير ص ١١٠ .

(٧) في النسخ الخطية (م): كي، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١٢٦/٢ ، والكلام منه، ولام النفي: هي اللام التي تأتي بعد كان المنفية، ويسمونها أكثرهم لام الجحود. قال ابن هشام في المغني ص ٢٧٨ : قال النحاس: والصواب تسميتها لام النفي؛ لأن الجحد في اللغة إنكار ما تعرفه، لا مطلق الإنكار.

﴿وَتُودُوا﴾ أصله: نُودِيوا. ﴿أَنْ﴾ في موضع نصبٍ مخففةٍ من الثقيلة، أي: بأنه ﴿تِلْكُمْ الْجَنَّةُ﴾. وقد تكون تفسيراً لما نُودوا به؛ لأنَّ النداء قولٌ، فلا يكون لها موضعٌ، أي: قيل لهم: ﴿تِلْكُمْ الْجَنَّةُ﴾؛ لأنَّهم وُعدوا بها في الدنيا، أي: قيل لهم: تِلْكُمْ^(١) الجنة التي وُعدتم بها، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بُعد^(٢). وقيل: ﴿تِلْكُمْ﴾ بمعنى هذه^(٣).

ومعنى ﴿أُورِثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إيَّها برحمة الله وفضله، كما قال: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠]، وقال: ﴿فَسَيُذِلُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥].

وفي «صحيح» مسلم: «لن يدخلَ أحداً منكم عمَلُهُ الجنةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ»^(٤). وفي غير الصحيح: ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزلٌ، فإذا دخلَ أهلُ الجنة الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ رُفِعَتِ الجنةُ لأهلِ النارِ، فنظروا إلى منازلهم فيها، فُقبِلَ لهم: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله، ثم يقال: يا أهلَ الجنةِ، رثوهم بما كنتم تعملون، فتُقَسَّمُ بين أهلِ الجنةِ منازلهم^(٥).

قلت: وفي «صحيح» مسلم: «لا يموتُ رجلٌ مسلمٌ إلا أدخلَ الله مكانه في النارِ يهودياً أو نصرانياً»^(٦)، فهذا أيضاً ميراثٌ، نَعَم^(٧) بفضلِهِ من شاء، وعذَّبَ بعدله من

(١) في النسخ غير (ظ): هذه تلكم. والظاهر أن لفظة هذه، نسخة للفظة: تلكم، أقحمت في النص.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٤٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/١٢٦، ومعاني القرآن للنحاس ٣/٣٨.

(٣) تفسير أبي الليث ١/٥٤٢.

(٤) صحيح مسلم (٢٨١٦) (٧٥)، وأخرجه أحمد (٧٥٨٧)، والبخاري (٥٦٧٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٢٠٢ من قول السدي. وفي باب رؤية العبد مقعده من الجنة أو النار عند الموت

عن أبي سعيد الخدري ؓ عند أحمد (١١٠٠٠) وينظر حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٠).

(٦) صحيح مسلم (٢٧٦٧) (٥٠)، وأخرجه أحمد (١٩٤٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري ؓ.

(٧) في (ز) و(ظ): يعم.

شاء. وبالجملة؛ فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته، فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته، ودخلوها برحمته، إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم. وقري: «أورثتموها» من غير إدغام، وقري بإدغام الشاء في الشاء^(١).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ هذا سؤال تفریع وتعبير.

﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ مثل: ﴿أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ﴾ أي: إنه قد وجدنا، وقيل: هو نفس النداء^(٢).

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادى وصوت؛ يعني من الملائكة، «بينهم» ظرف، كما تقول: أغلّم وسطهم.

وقرأ الأعمش والكسائي: «نعم» بكسر العين، وتجاوز على هذه اللغة بإسكان العين^(٣). قال مكّي^(٤): من قال: «نعم» بكسر العين أراد أن يفرق بين «نعم» التي هي جواب، وبين «نعم» التي هي اسم للإبل والبقر والغنم. وقد روي عن عمر إنكار «نعم» بفتح العين في الجواب، وقال: قل نعم^(٥).

ونعم ونعم لغتان؛ بمعنى العدة والتصديق، فالعدة إذا استفهمت عن موجب، نحو قولك: أيقوم زيد؟ فيقول: نعم. والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول: قد كان

(١) قرأ بإدغام (أورثتموها) أبو عمرو وابن عامر من رواية هشام، وحمزة والكسائي، والباقون من غير إدغام. السبعة ص ٢٨١، والتيسير ص ٤٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣٤٠/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٢٧/٢، وقراءة الكسائي في السبعة ص ٢٨١، والتيسير ص ١١٠.

(٤) الكشف عن وجوه القراءات ٤٦٢/١ - ٤٦٣.

(٥) وذكر هذه القصة أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٠٣/٢. قال السمين في الدر المصون ٣٢٦/٥: ولم نر العرب يعرفون ما رَوَوْه عن عمر، ونراه مؤلداً. ثم قال: هذا طعن في المتواتر فلا يقبل.

كذا وكذا، فيقول: نَعَمْ. فإذا استفهمتَ عن منفيِّ فالجواب: بلى، نحو قولك: ألم أكرمك؟ فيقول: بلى.

فَنَعَمْ لجوابِ الاستفهامِ الداخلِ على الإيجابِ كما في هذه الآية. وبلى لجوابِ الاستفهامِ الداخلِ على النفي، كما قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقرأ البَزِّيُّ وابنُ عامرٍ وحمزة والكِسائيُّ: «أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ»، وهو الأصلُ. وقرأ الباقر بن تخفيف «أَنَّ» وَرَفَعَ اللَّعْنَةَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ^(١)، فـ «أَنَّ» في موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض. وَيَجُوزُ فِي الْمَخْفُفَةِ أَلَّا يَكُونَ لَهَا مَوْضِعٌ مِنَ الْإِعْرَابِ، وتكون مفسرةً كما تقدّم^(٢). وَحُكِيَ عَنِ الْأَعْمَشِ أَنَّهُ قَرَأَ: «إِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ» بكسرِ الهمزة، فهذا على إضمارِ القولِ كما قرأ الكوفيون: ﴿فَنَادَاهُ^(٣) الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ إِنَّ^(٤) اللَّهَ^(٥)﴾ [آل عمران: ٣٩].

وَيُرْوَى أَنَّ طَاوَسًا دَخَلَ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ: أَتَقِي اللَّهَ وَاحْتِزُّ يَوْمَ الْأَذَانِ، فقال: وما يومُ الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ نَادَى مَوْلَانُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. فصعق هشام، فقال طاوسٌ: هذا ذُلُّ الصِّفَةِ، فكيف ذُلُّ المعاينة^(٦).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في موضع خفض لـ «الظالمين» على النَّعْتِ، وَيَجُوزُ الرَّفْعُ وَالنَّصْبُ عَلَى إِضْمَارِ: هُمْ، أو: أعني^(٧)، أي: الذين كانوا

(١) السبعة ص ٢٨١، والتيسير ص ١١٠.

(٢) في تفسير الآية السابقة، عند قوله تعالى: (أن تلكم).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي، مع الإمالة، وقرأ الباقر: «فنادته» كما سلف ١١٢/٥.

(٤) قرأ بها ابن عامر وحمزة، وقرأ الباقر: «أن» بفتح الهمزة، وسلفت ١١٣/٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٢٧/٢.

(٦) وذكر هذه القصة الذهبي في الكباثر ص ١٧٩.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٢٧/٢.

يصدُّون في الدنيا النَّاسَ عن الإسلام، فهو مِنَ الصَّدِّ الذي هو المنعُ، أو يصدُّون بأنفسهم عن سبيلِ الله، أي: يُعرضون، وهذا مِنَ الصَّدود.

﴿وَيَبْقَوْنَ غَيًّا﴾ يطلبون اعوجاجها، ويذمونها فلا يؤمنون بها، وقد مضى هذا المعنى (١).

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: وكانوا بها كافرين، فحذف، وهو كثيرٌ في الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَآدَوًا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين النار والجنة - لأنه جرى ذكرهما - حاجز^(٢)، أي: سورٌ، وهو السورُ الذي ذكره الله في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ يَسُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: وعلى أعرافِ السور، وهي: شُرْفُه، ومنه عُرفُ الفرس^(٣)، وعُرفُ الديك. روى عبيدُ الله^(٤) بن أبي يزيد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف: الشيءُ المُشْرِفُ. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: الأعرافُ: سورٌ له عُرفٌ كعُرفِ الديك^(٥).

والأعرافُ في اللغة: المكانُ المُشْرِفُ، جَمْعُ عُرف. قال يحيى بن آدم^(٦): سألتُ الكسائيَّ عن واحدِ الأعرافِ، فسكَّت، فقلتُ: حدَّثنا إسرائيل، عن جابر، عن

(١) ٢٣٣/٥.

(٢) في (ط): حجاب.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٢٧/٢.

(٤) في النسخ: عبد الله، والمثبت من تفسير الطبري ٢٠٩/١٠ - ٢١٠، ومعاني القرآن للنحاس ٤٠/٣ والكلام منه. وهو من رجال التهذيب.

(٥) أخرجهما الطبري ٢١٠/١٠ - ٢١١.

(٦) أبو زكريا الأموي، الكوفي، الحافظ صاحب «الخراج»، توفي سنة (٢٠٣هـ). السير ٥٢٢/٩.

مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعرافُ سُورٌ له عُرفٌ كعُرفِ^(١) الدِّيكِ، فقال: نعم والله، واحده يعني، وجماعته أعرافٌ، يا غلام، هاتِ القِرطاسَ فكتبهُ.

وهذا الكلامُ خَرَجَ مَخْرَجَ المدحِ؛ كما قال فيه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

وقد تكلم العلماءُ في أصحابِ الأعرافِ على عشرة أقوال: فقال عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبي والضحاك وابن جبير: هم قومٌ استوت حسناتهم وسيناتهم^(٢).

قال ابن عطية^(٣): وفي مسندِ خَيْثَمَةَ بنِ سليمان^(٤) في آخرِ الجزءِ الخامسِ عشرَ حديثٌ عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَوَضَّعَ المَوازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَتَوَزَّنَ الحَسَنَاتُ والسَّيِّئَاتُ، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ صُؤَابَةٍ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ صُؤَابَةٍ دَخَلَ النَّارَ». قيل: يا رسولَ الله، فَمَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؟ قال: «أولئك أصحابُ الأعرافِ، لم يدخلوها وهم يَظعمون»^(٥). وقال مجاهد: هم قومٌ صالحون فقهَاءُ علماء^(٦). وقيل: هم الشهداء. ذكره المهدوي^(٧). وقال القشيري: وقيل: هم فضلاءُ المؤمنين والشهداء، فرغوا مِن شُغْلِ أَنفُسِهِمْ، وتفرَّغوا لمطالعةِ حالِ النَّاسِ، فإذا رأوا أصحابَ النَّارِ تعوَّذوا بالله أن يُردُّوا إلى النَّارِ، فإنَّ في قُدرةِ الله كلَّ شيءٍ، وخلافُ المعلومِ مقدورٌ.

(١) في (خ) و(ز)، و(ظ): مثل عرف.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/٢١٣ - ٢١٧.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/٤٠٤.

(٤) القرشي، محدث الشام، مصنف «فضائل الصحابة». توفي سنة (٣٤٣هـ). السير ١٥/٤١٢.

(٥) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥/١٢١، وأبو الشيخ وابن مردويه فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٨٧. وقوله: «صؤابة»: هي بيضة القملة. الصحاح (صأب).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/٢١٩.

(٧) نقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز لابن عطية ٢/٤٠٤.

فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولها.

وقال شَرْحَبِيلُ بْنُ سَعْدٍ: هم المُسْتَشْهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الَّذِينَ خَرَجُوا عَصَاةً لِأَبَائِهِمْ^(١)، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ فِي ذَلِكَ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ تَعَادَلَ عُقُوقُهُمْ وَاسْتَشْهَادُهُمْ^(٢). وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ قَالَ: الْأَعْرَافُ: مَوْضِعُ عَالٍ عَلَى الصَّرَاطِ، عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَجَعْفَرُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ ﷺ، يَعْرِفُونَ مُحِبِّيهِمْ بِيَاضِ الْوُجُوهِ، وَمُبْغِضِيهِمْ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ^(٣).

وَحَكَى الزَّهْرَاوِيُّ أَنَّهُمْ عَدَوْهُ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَمَّ فِي كُلِّ أُمَّةٍ^(٤). وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ النَّحَّاسُ^(٥)، وَقَالَ: وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِيهِ، فَهَمَّ عَلَى السُّورِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ^(٦): هُمْ قَوْمٌ أَنْبِيَاءُ. وَقِيلَ: هُمْ قَوْمٌ كَانَتْ لَهُمْ صَغَائِرٌ لَمْ تُكْفَرْ عَنْهُمْ بِالْأَلَامِ وَالْمَصَائِبِ فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَتْ لَهُمْ كِبَائِرٌ، فَيُحْبَسُونَ عَنِ الْجَنَّةِ لِيُنَالَهَمُ بِذَلِكَ غَمٌّ فَيَقَعُ فِي مَقَابِلَةِ صَغَائِرِهِمْ.

وَتَمَنَّى سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ^(٧)؛ لِأَنَّ مَذْهَبَهُ أَنَّهُمْ مَذْنِبُونَ. وَقِيلَ: هُمْ أَوْلَادُ الزَّنَى، ذَكَرَهُ الْقَشِيرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٨).

(١) أخرجه الطبري ٢١٨/١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤٠٤/٢، والحديث الذي ذكره الطبري ٢١٨/١٠ فيه أبو معشر، وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٣٣٠/٦، وينظر كلام الشيخ أحمد شاكر في تفسير الطبري ٤٥٨/١٢ (طبعته).

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٦٥/٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤٠٤/٢.

(٥) في إعراب القرآن ١٢٧/٢.

(٦) في معاني القرآن ٣٤٣/٢.

(٧) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٤٩، وابن أبي الدنيا في كتابه المُتَمِّين ص ٣١.

(٨) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٢٠٥/٣.

وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور، يُميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار. ذكره أبو مجلز. فقيل له: لا يقال للملائكة رجالاً؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث^(١)، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم، كما أوقع على الجن في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ كَأَنَّ رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ﴾^(٢) [الجن: ٦]. فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم، والكفار بعلاماتهم، فيبشرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعد، فيطمعون فيها. وإذا رأوا أهل النار دعوا لأنفسهم بالسلامة من العذاب.

قال ابن عطية^(٣): واللَّازِمُ من الآية أنَّ على الأعراف رجالاً من أهل الجنة يتأخرو دخولهم، ويقع لهم ما وُصف من الاعتبار في الفريقين. ﴿يَرَوْنَهُمْ كَلَّا بِسِينَتِهِمْ﴾ أي: بعلامتهم^(٤)، وهي بياض الوجوه وحسنتها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، إلى غير ذلك من معرفة حيز هؤلاء وحيز هؤلاء^(٥).

قلت: فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل، والله بحقائق الأمور عليم. ثم قيل: الأعراف جمع عُرف، وهو كل عالٍ مُرتفع؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض، قال ابن عباس: الأعراف شرف الصراط^(٦).

وقيل: هو جبلٌ أحدُ يوضعُ هناك، قال ابن عطية^(٧): وذكر الزهراوي حديثاً أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُجْبِنُنَا وَنُجِبُهُ، وَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمَثُلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ

(١) أخرجه الطبري ٢١٩/١٠ - ٢٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٤٠٤/٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٤٠٤/٢ - ٤٠٥.

(٤) في (د) و(م): بعلاماتهم.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): خبر (في الموضعين). والمثبت من (خ) و(م) وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤٠٤/٢ - ٤٠٥، والكلام منه.

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٨٧/١٤.

(٧) في المحرر الوجيز ٤٠٤/٢.

وَالنَّارُ يُحَبَّسُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيْمَاهُمْ، هُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ^(١)،
وَذَكَرَ حَدِيثًا آخَرَ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدًا عَلَى رَكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ
الْجَنَّةِ»^(٢).

قلت: وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَحَدٌ جَبَلٌ يُحَبَّبُنَا
وَنُجْبُهُ، وَإِنَّهُ لَعَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة،
﴿أَنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: قالوا لهم: سلام عليكم.

وقيل: المعنى سَلِمْتُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: لم يَدْخُلِ الْجَنَّةَ
أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، أي: لم يَدْخُلُوهَا بَعْدُ، «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» عَلَى هَذَا التَّوَابِلِ بِمَعْنَى:
وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ أَنْ يَكُونَ طَمِعَ بِمَعْنَى عَلِمَ،
ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ^(٤). وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا؛ أَنَّ الْمُرَادَ أَصْحَابَ
الْأَعْرَافِ^(٥). وَقَالَ أَبُو مِجَلَزٍ: هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، أَي قَالَ لَهُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ: سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بَعْدُ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ فِي دُخُولِهَا لِلْمُؤْمِنِينَ

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وقوله فيه: «إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُحَبَّبُنَا وَنُجْبُهُ» أخرجه أحمد (١٢٤٢١) والبخاري (٤٠٨٣)، ومسلم (١٣٩٣) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٣٦٠٤)، والبخاري (٤٤٢٢)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٨٣/١ من حديث داود بن الحصين، وأخرجه أبو يعلى (٧٥١٦)، والطبراني في الكبير (٥٨١٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ، ولفظه: «أحد ركن من أركان الجنة»، وفي إسناده عبد الله بن جعفر بن نجيج، والد علي بن المدني، متفق على ضعفه، قال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن المدني: أبي ضعيف، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، ميزان الاعتدال ٤٠١/٢.

(٣) التمهيد ٢٢/٣٣٠، وأخرجه ابن ماجه (٣١١٥)، وفيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن. وقوله منه: «أحد جبل يحببنا ونجبه» صحيح، وسلف قريباً.

وقوله: «ترعة»: الترعة في الأصل: الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كانت في المطمئن فهي روضة، النهاية (ترع).

(٤) في إعراب القرآن ١٢٧/٢ - ١٢٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٢٢٦.

المازِينَ عَلَى أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ^(١).

والوقفُ على قوله: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ». وعلى قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهَا». ثم يبتدئ: «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» على معنى: وهم يطمعون في دخولها. ويجوزُ أن يكونَ «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» حالاً، ويكون المعنى: لم يدخلها المؤمنون المارونَ على أصحابِ الأعرافِ طامعين، وإنما دخلوها غيرَ طامعين في دخولها، فلا يُوقَفُ على «لَمْ يَدْخُلُوهَا»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ لِلقاءِ أَحْصَبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ لِلقاءِ أَحْصَبِ النَّارِ﴾ أي: جهة اللقاء، وهي جهةُ المقابلة^(٣). ولم يأتِ مصدرٌ على تفعال غيرُ حرفين: تلقاء وتبيان، والباقي بالفتح، مثلُ تسيار وتهمام وتذكار. وأما الاسمُ بالكسرِ فيه فكثيرٌ، مثلُ تقصار وتمثال^(٤).

﴿قَالُوا﴾ أي: قال أصحابُ الأعرافِ. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سألوا الله ألا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم، فهذا على سبيلِ التذللِ، كما يقولُ أهلُ الجنة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا ثُورَنَا﴾ [التحریم: ٨]، ويقولون: الحمدُ لله، على سبيلِ الشكرِ لله عزَّ وجلَّ، ولهم في ذلك لذة^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ﴾ أي: من أهلِ النارِ. ﴿قَالُوا﴾

(١) أخرجه الطبري ٢٢٧/١٠ بنحوه.

(٢) المكتفى في الوقف والابتداء ص ٢٧١، وثمار الهدى للأشموني ص ١٠٩.

(٣) الوسيط للواحدى ٣٧١/٢.

(٤) تفسير الرازي ٩٠/١٤ - ٩١، وإملاء ما من به الرحمن ١٣/٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٢٨/٢.

مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أي: للدنيا، واستكباركم عن الإيمان. ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء، كبلال وسلمان وخبّاب وغيرهم. ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا، ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة، ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ يُوبِخُونَهُمْ بِذَلِكَ، وَزِيدُوا غَمًّا وَحَسْرَةً بِأَن قَالُوا لَهُمْ: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾.

وقرأ عكرمة: «دَخَلُوا الْجَنَّةَ» بغير ألف، والدال مفتوحة، وقرأ طلحة بن مُصْرَفٍ: «أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ» بكسر الخاء على أنه فعلٌ ماضٍ^(١).

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ مَلَائِكَةٌ أَوْ أَنْبِيَاءُ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ إِخْبَارٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَمَنْ جَعَلَ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ الْمَذْنِبِينَ كَانَ آخِرَ قَوْلِهِمْ لِأَصْحَابِ النَّارِ «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ»، وَيَكُونُ «أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ تَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَرُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢)، وَالْأَوَّلُ عَنِ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ الْمُؤَكِّلِينَ بِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَحْلِفُونَ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ يَدْخُلُونَ مَعَهُمُ النَّارَ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ﴾ قيل: إذا صَارَ أَهْلُ الْأَعْرَافِ إِلَى الْجَنَّةِ طَمِعَ أَهْلُ النَّارِ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا إِنَّ لَنَا قَرَابَاتٍ فِي الْجَنَّةِ؛ فَأَذْنُ لَنَا حَتَّى نَرَاهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ. وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَعْرِفُونَهُمْ لِسَوَادِ وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٢٨/٢، وينظر القراءات الشاذة ص ٤٤، والمحتسب ٢٤٩/١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١/١٠.

(٣) تفسير البغوي ١٦٣/٢.

﴿الله﴾^(١) فَبَيَّنَ أَن ابْنَ آدَمَ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَإِنْ كَانَ فِي الْعَذَابِ^(٢).

﴿قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها. والإفاضة: التوسعة^(٣)، يقال: أفاضَ عليه نِعْمَهُ.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أن سَقَى الماء من أفضل الأعمال. وقد سئل ابنُ عباس: أيُّ الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تَرَوْا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة: ﴿أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^(٤)؟.

وروى أبو داود أن سعداً أتى النبي ﷺ فقال: أيُّ الصدقة أعجبُ إليك؟ قال: «الماء». وفي رواية: فحَفَرَ بئراً فقال: «هذه لأمِّ سعد»^(٥).

وعن أنس قال: قال سعدٌ: يا رسولَ الله، إنَّ أمَّ سعد كانت تحبُّ الصدقة، أفينفعها أن أتصدَّقَ عنها؟ قال: «نعم، وعليك بالماء»^(٦). وفي رواية: أن النبي ﷺ أمر سعدَ بنَ عبادة أن يسقيَ عنها الماء.

فدلَّ على أن سَقَى الماء من أعظم القُرْبَات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين: من كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ فعليه بِسَقَى الماء. وقد غفر الله ذنوبَ الذي سَقَى الكلبَ، فكيف بمن سَقَى رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه^(٧).

روى البخاريُّ عن أبي هريرة ؓ أن رسولَ الله ﷺ قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ،

(١) زاد المسير ٢٠٨/٣.

(٢) تفسير أبي الليث ٥٤٤/١.

(٣) تفسير الطبري ٢٣٥/١٠.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٦٧٣)، والطبراني في الأوسط (١٠١٥)، وفي إسناده موسى بن المغيرة، وهو مجهول وشيخه الذي روى عنه الأثر لا يعرف. قاله الذهبي في الميزان ٢٢٤/٤. ثم أورد هذا الأثر.

(٥) سنن أبي داود (١٦٧٩) و(١٦٨١)، وهو عند أحمد (٢٢٤٥٩). وسعد: هو ابن عبادة ؓ.

(٦) أخرجه ضياء الدين المقدسي في المختارة (٢٠٥٦).

(٧) لم نقف عليه، وذكره العيني في عمدة القاري ٢٠٨/١٢.

اشتدَّ عليه العطشُ، فنزل بثوراً فشرب منها، ثم خرَّج؛ فإذا كلبٌ [يلهثُ] يأكل الثَّرَى من العطشِ، فقال: لقد بلغ هذا الكلبُ مثلُ الذي بلغ بي، فملاً خُفَّهُ ثمَّ أمسكَه بفيه، ثم رَقِي، فسقى الكلبَ، فشكر الله له فَعَفَّرَ له. قالوا: يا رسولَ الله، وإنَّ لنا في البهائم أجرأ؟ قال. «في كل كَيْدٍ رَطْبِيَّةٌ أَجْرٌ»^(١).

وعكسُ هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امرأةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتى ماتت، فدخلتُ فيها النارَ، لا هي أطعمَتها وسقَنها إذ هي حَبَسَتها، ولا هي تركتها تأكلُ من خَشاشِ الأرضِ»^(٢).

وفي حديث عائشةَ عن النبيِّ ﷺ: «ومن سَقَى مسلماً شربةً من ماءٍ حيث يوجد الماء، فكأنما أعتقَ رَقَبَةً، ومن سَقَى مسلماً شربةً من ماءٍ حيث لا يوجد الماء، فكأنما أحيَّها». خرَّجه ابنُ ماجه في «السُّنَنِ»^(٣).

الثالثة: وقد استدللَّ بهذه الآية مَنْ قال: إنَّ صاحبَ الحوضِ والقربةِ أحقُّ بمائه، وأنَّ له مَنْعَه ممن أَرادَه، لأنَّ معنى قولِ أهلِ الجنة: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَيَّ الْكَافِرِينَ﴾: لا حَقَّ لكم فيهما. وقد بَوَّبَ البخاريُّ رحمه الله على هذا المعنى: باب: مَنْ رَأَى أَنَّ صَاحِبَ الْحَوْضِ وَالْقَرْبَةِ أَحَقُّ بِمَائِهِ. وأدخل في الباب: عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «والَّذي نفسِي بيده، لأذودَنَّ رجلاً عن حوضي، كما تُذادُ القَرْبَةُ مِنَ الإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ»^(٤). قال المُهَلَّبُ: لا خلافَ أن صاحبَ الحوضِ أحقُّ

(١) صحيح البخاري (٢٣٦٣)، وأخرجه أحمد (٨٨٧٤)، ومسلم (٢٢٤٤)، وما بين حاصرتين منها. ووقع في (م): لأجرأ... و: «في كل ذات كلب...». وهي عند البخاري (٢٤٦٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٤٢)، وأخرجه البخاري (٣٤٨٢). وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٨٤٧)، ومسلم (٢٢٤٣). وقوله: «خشاش الأرض»: أي: هوائها وحشراتنا. النهاية (خشش).

(٣) الحديث (٢٤٧٤)، وفي إسناده زهير بن مرزوق، عن علي بن زيد بن جُدعان، قال البخاري في زهير: منكر الحديث. وعلي بن زيد بن جُدعان ضعيف أيضاً. ميزان الاعتدال: ٨٥/٢ - ٨٦ و ١٢٧/٣. وينظر تنزيه الشريعة ١٣٦/٢.

(٤) صحيح البخاري (٢٣٦٧). وأخرجه أحمد (٧٩٦٨)، ومسلم (٢٣٠٢).

بمائه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لأذودن رجلاً عن حوضي»^(١).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

«الذين» في موضع خفض نعت للكافرين. وقد يكون رفعا ونصباً بإضمار^(٢). قيل: هو من قول أهل الجنة. ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾ أي: نتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسَوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: تركوا العمل له^(٣) وكذبوا به. و«ما» مصدرية، أي: كَنَسِيهِمْ. ﴿وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ﴾ عطفٌ عليه، أي: وجحدهم^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ يعني القرآن. ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: بيَّناه حتى يعرفه من تدبره. وقيل: «فَصَّلْنَاهُ»: أنزلناه متفرقاً. ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ مِنَّا به، لم يَقَعْ فيه سهوٌ ولا غلط.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، قال الزجاج: أي: هادياً وذا رحمة، فجعله حالاً من الهاء التي في «فَصَّلْنَاهُ». قال الزجاج: ويجوز: هدى ورحمة، بمعنى هو هدى ورحمة^(٥). وقيل: يجوز: هدى ورحمة، بالخفض على البدل من كتاب^(٦).

وقال الكسائي والفراء^(٧): ويجوز: هدى ورحمة بالخفض على النعت لكتاب.

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٣١/٥، ونسبه لابن بطال.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٢٩/٢.

(٣) من (د) و(ز) و(م): به، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٤) الوسيط ٣٧٤/٢، والبيان ٣٦٤/١.

(٥) معاني القرآن ٣٤١/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٢٩/٢.

(٦) نسب ذلك مكّي في مشكل إعراب القرآن ٢٩٣/١ للفراء والكسائي. وجواز الرفع والخفض هنا يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٧) معاني القرآن له ٣٨٠/١، ونقله المصنف عنه بواسطة في إعراب القرآن للنحاس ١٢٩/٢.

قال الفراء: مثل ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصَّ المؤمنون لأنهم المُتَّفَعُونَ به.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ بالهمز، من «آل». وأهل المدينة يُخَفِّفُونَ الهمزة. والنَّظَرُ: الانتظار، أي: هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به في القرآن من العقاب والحساب. وقيل: «ينظرون» من النَّظَرِ إلى يوم القيامة^(١)، فالكناية في «تأويله» تَرْجِعُ إلى الكتاب، وعاقبة الكتاب ما وَعَدَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ^(٢). وقال مجاهد: «تأويله»: جزاؤه، أي: جزاء تكذيبهم بالكتاب. قال قتادة: «تأويله»: عاقبته^(٣). والمعنى مُتَقَارِبٌ.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي: تبدو عواقبه يوم القيامة. و«يوم» نصب بـ «يقول»^(٤)، أي: يقول الذين نسوه من قبل يوم يأتي تأويله: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ استفهام فيه معنى التمني. ﴿فَيَشْفَعُوا﴾ نصب؛ لأنه جواب الاستفهام. ﴿لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ قال الفراء^(٥): المعنى: أو هل نُردُّ ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. قال الزَّجَّاج^(٦): نردُّ عطف على المعنى، أي: هل يشفع لنا أحدٌ أو نردُّ. وقرأ ابن [أبي]

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٢٩/٢ - ١٣٠.

(٢) من قوله: وعاقبة الكتاب... إلى هنا، لعل حقه أن يأتي بعد قول قتادة الآتي.

(٣) أخرجهما الطبري ٢٤١/١٠ - ٢٤٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٣٠/٢.

(٥) في معاني القرآن ٣٨٠/١.

(٦) لم نقف عليه في معاني القرآن له.

إسحاق: «أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلُ»، بالنصب فيهما^(١)، والمعنى: إلا أن نُرَدُّ فَنَعْمَلُ^(٢)؛ كما قال: فقلْتُ له لا تَبِكْ عَيْنُكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا^(٣) وقرأ الحسن: «أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلُ» برفعهما جميعاً.

﴿قَدْ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فلم ينتفعوا بها، وكلُّ مَنْ لم ينتفع بنفسه فقد خَيْرَهَا^(٤). وقيل: خَيْرُوا النَّعْمَ وَحَظُّوا أَنفُسَهُمْ مِنْهَا. ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: بطل ما كانوا يقولون من أن مع الله إلهاً آخر^(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ يُغْثِي الْأَيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ بين أنه المنفردُ بقدره الإيجاد، فهو الذي يجبُ أن يُعبد.

وأصل «ستة»: سدسة، فأرادوا إدغام الدال في السين، فالتقيا عند مخرج التاء؛ فغلبت عليهما - وإن شئت قلت: أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم في الدال - لأنك تقول في تصغيرها: سُدَيْسَة، وفي الجمع: أسداس، والجمع والتصغير يرُدُّان الأسماء إلى أصولها. ويقولون: جاء فلانٌ سادساً وسادياً وساتاً؛ فمن قال: سادياً أبدل من السين ياءً^(٦).

(١) القراءات الشاذة ص ٤٤، والمحتسب ٢٥١/١، وما بين حاصرتين منهما ومن إعراب القرآن للنحاس ١٣٠/١، وعنه نقل المصنف قولي القراء والزجاج السالفين.

(٢) قوله: فَنَعْمَلُ، من (ظ).

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص ٦٦، وسلف ٣٠٧/٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٣٠/٢، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص ٤٤.

(٥) الوسيط ٣٧٥/٢.

(٦) وقع في النسخ: ساداتا، أبدل من السين تاء، والمثبت من تهذيب اللغة ٢٨٢/١٢، وينظر المخصص ١١٢/١٧، والدر المصون ٣٣٩/٥.

واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها. فإن لم يكن شمسٌ فلا يوم؛ قاله القشيريُّ. وقال: ومعنى «في ستَّةِ أيَّامٍ» أي: من أيام الآخرة، كلُّ يوم ألف سنة؛ لتفخيم الأمر في^(١) خلق السماوات والأرض. وقيل: من أيام الدنيا. قال مجاهد وغيره: أولها الأحد وآخرها الجمعة^(٢).

وذكر هذه المدة، ولو أرادَ خَلَقَهَا في لحظةٍ لَفَعَلَ؛ إذ هو القادرُ على أن يقول لها: كوني، فتكون. ولكنه أرادَ أن يُعَلِّمَ عباده الرَّفَقَ والثَّبَاتَ في الأمور، ولتظهرَ قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء^(٣). وهذا عند مَنْ يقول: خلق الله الملائكة قبل خلق السماوات والأرض.

وحكمةٌ أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأنَّ لكل شيءٍ عنده أجلاً. ويبيِّن بهذا تركَّ معاجلةِ العُصاة بالعقاب؛ لأنَّ لكل شيءٍ عنده أجلاً. وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨-٣٩]. بعد أن قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾^(٤) [ق: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِيِّ﴾ هذه مسألة الاستواء، وللعلماء فيها كلامٌ وإجزاء^(٥). وقد بيَّنَّا أقوالَ العلماء فيها في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى»^(٦) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولاً. والأكثرُ من المتقدِّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيهُ الباري سبحانه عن الجهة والتحيُّز، فمن ضرورة ذلك ولو اُحِقَّ اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدِّمين وقادتهم من المتأخرين، تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى

(١) قوله: الأمر في، ليس في (م).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤٥/١٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٣١/٢.

(٤) تفسير الرازي ٩٩/١٤.

(٥) في (م): وإجراء.

(٦) ص ١٨٧ وما بعدها.

اختصَّ بجهةٍ أن يكون في مكانٍ أو حيِّز، ويلزم على المكانِ والحيِّزِ الحركةُ والسكونُ للمتخيِّزِ، والتغيُّرُ والحدوث. هذا قولُ المتكلمين.

وقد كان السلفُ الأوَّلُ ﷺ لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافةُ بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابُه وأخبرَتْ رسلُه.

ولم يُنكر أحدٌ من السلفِ الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً. وخصَّ العرشَ بذلك لأنه أعظمُ مخلوقاته. وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تُعلم حقيقته، كما قال مالكٌ رحمه الله: الاستواءُ معلومٌ - يعني في اللغة - والكَيْفُ مجهولٌ، والسؤالُ عن هذا بدعةٌ^(١). وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها^(٢). وهذا القَدْرُ كافٍ، ومَنْ أراد زيادةً عليه فليَقِفْ عليه في موضعه من كُتُب العلماء.

والاستواءُ في كلام العرب هو العُلُوُّ والاستقرار. قال الجوهريُّ: واستوى مِنْ اعوجاجٍ، واستوى على ظَهْرِ دابَّته، أي: استقرَّ. واستوى إلى السماء، أي: قَصَد. واستوى، أي: استولى وظهر. قال:

قد استوى بِشْرٌ على العِراقِ من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقِ
واستوى الرجلُ، أي: انتهى شبابه. واستوى الشيءُ: إذا اعتدل^(٣).

وحكى أبو عمر بن عبد البرِّ عن أبي عبيدة^(٤) في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] قال: علا. وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً بَقِيْفَاءَ قَفْرَةَ وقد حَلَّقَ النجمُ اليمانيُّ فاستوى
أي: علا وارتفع^(٥).

(١) سلف ٣٨١/١.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦٦٣).

(٣) الصحاح (سوى). والبيت للأخطل، وقد سلف ٣٨٢/١.

(٤) في مجاز القرآن ١٥/٢.

(٥) التمهيد ١٣١/٧، وسلف البيت ٣٨١/١.

قلت: فعلوا الله تعالى وارتفأه عبارة عن علو مجده وصفاته وملكوته، أي: ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه، لكنه العليُّ بالإطلاق سبحانه.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾، العرش^(١): لفظٌ مشتركٌ يُطلق على أكثر من واحد. قال الجوهري^(٢) وغيره: العرش: سرير المَلِك. وفي التنزيل ﴿تَكْرُؤًا لِمَا عَرَّسَهَا﴾ [النمل: ٤١]، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والعرش: سقف البيت. وعرشُ القَدَم: ما نَتَأ في ظهرها، وفيه الأصابع. وعرشُ السَّمَك: أربعة كواكبٍ صِغارٍ أسفل^(٣) من العواء^(٤)، يقال: إنها عَجَز الأسد. وعرشُ البئر: طيُّها بالخشب، بعد أن يُطوى أسفلها بالحجارة قدرَ قامَة؛ فذلك الخشب هو العرشُ، والجمع عُروش. والعرش: اسمٌ لمكة^(٥). والعرش: المُلْك والسُّلطان. يقال: ثلَّ عرشُ فلان: إذا ذهبَ مُلكه وسُلطانه وعِزُّه. قال زهير:

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ^(٦) بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

وقد يُؤوَلُ^(٧) العرشُ في الآية بمعنى المُلْك، أي: ما استوى المُلْك إلا له جلٌّ وعزٌّ. وهو قولٌ حسن^(٨)، وفيه نظرٌ، وقد بيَّناه في جملة الأقوال في كتابنا. والحمد لله^(٩).

(١) قوله: العرش، من (د) و(ز).

(٢) الصحاح (عرش).

(٣) في (ز): أصغر.

(٤) العواء: منزل للقمر خمسة كواكب، أو أربعة. القاموس المحيط (عرش) (عوى).

(٥) في النسخ الخطية: اسم الملك، والمثبت من (م). وقال المصنف في كتابه الأسنى ص ١٨٦: ويقال: إن العرش اسمُ الملك، لرفعته وعلو منزله.

(٦) في (م): ذلَّت. ورواية الديوان ص ١٠٩:

تَدَارَكْتُمَا الْأَحْلَافَ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانَ قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

(٧) في النسخ الخطية: تأول، والمثبت من (م).

(٨) بل هو قول بعض المعتزلة، وقد رده المحققون من السلف، والاستواء عند أهل السنة بمعنى العلو والاستقرار والارتفاع.

(٩) الأسنى ص ١٨٦ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يجعله كالغشاء^(١)، أي: يذهب نور النهار ليتّم قوأم الحياة في الدنيا بمجيء الليل. فالليل للسكون، والنهار للمعاش.

وَقُرئ: «يُعْشَى» بالتشديد، ومثله في «الرعد» [الآية: ٣]. وهي قراءة أبي بكر عن عاصم، وحمزة والكسائي. وخَفَّفَ الباقون^(٢). وهما لغتان: أَعْشَى وَعَشَى. وقد أجمعوا على: ﴿فَسَنَلَّهَا مَا عَشَى﴾ [النجم: ٥٤] مشدداً، وأجمعوا على: «فَأَعْشَيْنَاهُمْ» [يس: ٩]، فالقراءتان متساويتان، وفي التشديد معنى التكرير والتكثير^(٣). والتغشية والإغشاء: إلباس الشيء الشيء.

ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، مثل ﴿سَرَّيْلٌ تَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾^(٤) [النحل: ٨١]. ﴿بِيَدِكَ الْحَبِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقرأ حميد بن قيس: «يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ»^(٥) ومعناه: أن النهار يُعْشَى الليل.

﴿يَطْلُبُهُ حَيْثَا﴾ أي: يطلبه دائماً من غير فتور^(٦). و«يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ» في موضع نصب على الحال. والتقدير: استوى على العرش مُعْشِيَا اللَّيْلَ النَّهَارَ. وكذا «يَطْلُبُهُ» حال من الليل، أي: يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ طالباً له. ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال. «حَيْثَا» بدل من طالب المقدر، أو نعت له، أو نعت لمصدر محذوف، أي: يطلبه طلباً سريعاً^(٧). والحث: الإعجال والسرعة. وولّى حَيْثَا، أي: مُسرِعاً.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحُورَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾، قال الأخفش^(٨): هي معطوفة على

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٣١/٢ .

(٢) السبعة ص ٢٨٢ ، والتيسير ص ١١٠ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٦٤/١ - ٤٦٥ .

(٤) الوسيط للواحدى ٣٧٦/٢ .

(٥) المحتسب ٢٥٣/١ .

(٦) الوسيط ٣٧٦/٢ .

(٧) ويعرب أيضاً: حال . ينظر إعراب القرآن للنحاس ١٣١/٢ ، والبيان ٣٦٤-٣٦٥ ، والدر المصون ٣٤٢/٥ ، وغيرها .

(٨) معاني القرآن ٥١٩/٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٣١/٢ .

السموات؛ أي: وخلق الشمس^(١). ورؤي عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها^(٢) على الابتداء والخبر.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: صدق الله في خبره، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحب. وهذا الأمر يقتضي النهي. قال ابن عيينة: فرق بين الخلق والأمر؛ فمن جمع بينهما فقد كفر^(٣).

فالخلق المخلوق، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق، وهو قوله: ﴿كُنْ﴾^(٤).
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥) [النحل: ٤٠].

وفي تفرقه بين الخلق والأمر دليل بين على فساد قول من قال بخلق القرآن، إذ لو كان كلامه - الذي هو أمر - مخلوقاً لكان قد قال: ألا له الخلق والخلق. وذلك عي من الكلام ومستهجن ومستغث. والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه. ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَقُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِي﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾. فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره، فلو كان الأمر مخلوقاً لافتقر إلى أمر آخر يقوم به، وذلك الأمر إلى أمر آخر، إلى ما لا نهاية له. وذلك محال. فثبت أن أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق؛ ليصح قيام المخلوقات به.

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

(١) في النسخ: السموات، والمثبت من (م).

(٢) السبعة ص ٢٨٢، والتيسير ص ١١٠.

(٣) علقه البخاري قبل الحديث (٧٥٥٥) بنحوه، وأورده بهذا اللفظ العيني في عمدة القاري ١٤٤/٢٥. ووصله ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٥٣٢/١٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤٣/٣.

(٥) في (م): ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق للإنصاف للباقلاني، والكلام فيه بنحوه كما سيأتي.

[الحجر: ٨٥]، وأخبر تعالى أنه خَلَقَهُمَا بِالْحَقِّ، يعني القول، وهو قوله للمكُونَات: «كن». فلو كان الحقُّ مخلوقاً لَمَا صَحَّ أَنْ يَخْلُقَ بِهِ المَخْلُوقَات؛ لَأَنَّ الخَلْقَ لَا يُخْلَقُ بِالمَخْلُوق. يدلُّ عليه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِيدَانِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]. وهذا كله إشارةٌ إلى السَّبِقِ فِي القَوْلِ فِي القَدَمِ، وذلك يُوجِبُ الأَزْلَ فِي الوجود. وهذه النُّكْتَةُ كَافِيَةٌ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِم.

ولهم آياتٌ احتجُّوا بها على مذهبهم؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٢]، ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. و﴿مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وما كان مثله.

قال القاضي أبو بكر^(١): معنى ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ﴾ أي: من وَعَظٍ من النبي ﷺ وَوَعْدٍ وَتَخْوِيفٍ ﴿إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]؛ لَأَنَّ وَعَظَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ وَسَلَامُهُ وَتَحْذِيرُهُمْ ذِكْرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: فلانٌ في مجلسِ الذِّكْرِ.

ومعنى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ و﴿مَفْعُولًا﴾ أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين، ونصره للمؤمنين، وما حَكَمَ بِهِ وَقَدَّرَهُ مِنْ أَعْمَالِهِ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] يعني به شأنه وأفعاله وطرائقه. قال الشاعر:

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت بأخفافها مرعى تبوأ مضجعا^(٢)

الثانية: وإذا تَقَرَّرَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ مِنَ الإِرَادَةِ فِي شَيْءٍ. والمعتزلة تقول: الأَمْرُ نَفْسُ الإِرَادَةِ. وليس بصحيح، بل يَأْمُرُ بِمَا لَا يُرِيدُ، وَيَنْهَى عَمَّا يُرِيدُ. ألا ترى أنه

(١) في الإنصاف ص ٧٤ - ٧٥، وينظر الكلام الذي قبله فيه ص ٧١ وما بعدها، وفي تمهيد الأرائل ١/ ٢٧١.

(٢) أورده أبو علي القالي في أماليه ٢/ ١٤٠ وذكر أن جندل بن الراعي أنشده من شعر أبيه الراعي. وعنده: لأخفافها، بدل: بأخفافها.

أمر إبراهيم بذبح ولده ولم يُرِده منه؟ وأمر نبيه أن يُصلي مع أمته خمسين صلاة، ولم يُرِدْ منه إلا خمس صلوات^(١). وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وقد نهى الكفار عن قتله، ولم يأمرهم به. وهذا صحيح نفيس في بابه، فتأمل.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، «تبارك» تفاعل، من البركة وهي^(٢) الكثرة والاتساع. يقال: بُورِك الشيء وبُورِك فيه؛ قاله ابن عرفة.

وقال الأزهري^(٣): «تبارك»: تعالى وتعاضم وارتفع. وقيل: إن باسمه يُتَبَرَك وَيُتَيْمَن. وقد مضى في «الفاتحة» معنى «رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٤).

قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ هذا أمرٌ بالدعاء وتعبُّد به. ثم قرَنَ جَلَّ وَعَزَّ بالأمر صفات تحسُن معه، وهي الخشوع والاستكانة والتضرُّع.

ومعنى «خُفْيَةً» أي: سرًّا في النفس لئيبعد عن الرياء؛ وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام إذ قال مُخْبِرًا عنه: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خُفْيًا﴾^(٥) [مريم: ٣]. ونحوه قول النبي ﷺ: «خيرُ الذِّكْرِ الخُفْيُ، وخيرُ الرِّزْقِ ما يَكْفِي»^(٦).

والشريعة مقررة أن السرَّ فيما لم يُفترض^(٧) من أعمال البرِّ أعظم أجرًا من الجهر.

(١) سلف ٤/٤٩٣.

(٢) في النسخ: وهو، والمثبت من (م).

(٣) تهذيب اللغة ١٠/٢٣٠.

(٤) ٢١١/١ وما بعدها.

(٥) تفسير الطبري ١٠/٢٤٨.

(٦) أخرجه أحمد (١٤٧٧) من حديث سعد بن مالك.

(٧) في (د) و(م) والمحروور الوجيز ٢/٤١٠ (والكلام منه): يعترض، والمثبت من (ز) و(ظ). وعبارة (خ):

والشريعة مقررة أن ليس فيما نفترض...

وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»^(١). قال الحسنُ بنُ أبي الحسن: لقد أدرکنا أقواماً ما كان على الأرض عملٌ يقديرون على أن يكون سرّاً فيكون جَهراً أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يُسمع لهم صوتٌ، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربّهم. وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(٢) [مريم: ٣].

وقد استدل أصحابُ أبي حنيفة بهذا على أن إخفاء «أمين» أولى من الجهر بها؛ لأنه دعاء^(٣). وقد مضى القولُ فيه في «الفتاحة»^(٤).

وروى مسلم عن أبي موسى قال: كُنَّا مع النبي ﷺ في سَفَرٍ - وفي رواية: في غَزَاةٍ - فجعل الناسُ يجهرون بالتكبير - وفي رواية: فجعل رجلٌ كلما عَلَا ثَنِيَّةً قال: لا إله إلا الله - فقال رسولُ الله ﷺ: «أيها^(٥) الناس، اِرْبِعُوا على أنفسكم، إنكم لستم تدعون أصمًّا ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم». الحديث^(٦).

الثانية: واختلف العلماءُ في رفع اليدين في الدعاء، فكرهه طائفةٌ؛ منهم جُبَيْر بن مُطْعِم^(٧)، وسعيد بن المسيّب^(٨)، وسعيد بن جبيرة. ورأى شريحٌ رجلاً رافعاً يديه فقال: مَنْ تتناول بهما، لا أمَّ لك^(٩)! وقال مسروق لقوم رَفَعُوا أيديهم: قَطَعَهَا الله^(١٠). واختاروا إذا دعا الله في حاجةٍ أن يُشِيرَ بأصبعه السبابة، ويقولون: ذلك

(١) ٣٥٩/٤ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٤١٠/٢.

(٣) أحكام القرآن للكيا ١٤٠/٣.

(٤) ١٩٥/١ وما بعدها.

(٥) في النسخ الخطية: يا أيها، والمثبت من (م)، وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٦) صحيح مسلم (٢٧٠٤): (٤٤) و(٤٦)، وأخرجه أحمد (١٩٥٢٠)، والبخاري (٦٣٨٤).

(٧) ذكره عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ١٤٣/١١، وعزاه للطبري.

(٨) أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٣٢٥١).

(٩) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ١٤٣/١١، وعزاه للطبري.

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤٧/٢.

الإخلاص^(١). وكان قتادة يُشير بأصبعه ولا يرفع يديه. وكَرِهَ رَفَعَ الأيدي عطاءً، وطاوس^(٢)، ومجاهد وغيرهم.

وروي جوازُ الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، وروي عن النبي ﷺ - ذكره البخاري - قال أبو موسى الأشعري: دعا النبي ﷺ، ثم رَفَعَ يَدَيْهِ، ورأيتُ بياضَ إِنْطِيهِ. ومثله عن أنس. وقال ابن عمر: رَفَعَ النبي ﷺ يَدَيْهِ وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صَنَعَ خالد»^(٣).

وفي «صحيح» مسلم^(٤) من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يومُ بَدْرٍ نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاث مئة وسبعة عشر رجلاً^(٥)، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ مادًّا يَدَيْهِ، فجعل يَهْتِفُ بربِّه. وذكر الحديث.

وروي الترمذيُّ عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ لم يَحْطُطْهُمَا حتى يمسحَ بهما وجهه. قال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريب^(٦).

وروي ابن ماجه عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي من عبده أن يرفعَ يَدَيْهِ إليه فيردُّهُمَا صِفْرًا [أو قال:] خائبتين»^(٧).

احتجَّ الأولون بما رواه مسلم عن عُمارة بن رُوَيْبَةَ ورأى بِشَرَ بن مَرْوان^(٨) على

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٧) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤٧/٢.

(٣) أخرج البخاري (٦٣٤١) حديث أنس ؓ، وعَلَّقَ قبله حديثي أبي موسى وابن عمر ؓ، ووصل حديث أبي موسى برقم (٤٣٢٣)، وحديث ابن عمر برقم (٤٣٣٩).

(٤) الحديث (١٧٦٣)، وسلف ٢٩٦/٥.

(٥) في صحيح مسلم: تسعة عشرة رجلاً، ورواية المصنف هي رواية المفهم ٥٧٢/٣.

(٦) سنن الترمذي (٣٣٨٦).

(٧) سنن ابن ماجه (٣٨٦٥)، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أبو داود (١٤٨٨) وأخرجه أحمد (٢٣٧١٤) عن سلمان الفارسي ؓ. موقوفاً، وصححه عنه مرفوعاً ابن جبان (٨٨٠)، والحاكم ٥٣٥/١.

(٨) هو أخو عبد الملك بن مروان، ولي العراقين بعد مقتل مصعب، مات سنة (٧٥هـ). السير ١٤٥/٤.

المنبر رافعاً يديه فقال: قَبَّحَ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ما يزيد على أن يقولَ بيده هكذا. وأشار بإصبعه المُسَبَّحَةِ^(١). وبما روى سعيدُ بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة أن أنس بن مالك حَدَّثَهُ أن النبي ﷺ كان لا يرفعُ يَدَيْهِ في شيءٍ من الدعاء إلا عند الاستسقاء، فإنه كان يرفعُهما حتى يُرى بياضُ إبطيه.

والأولُ أصحُّ طُرُقاً وأثبتُ من حديث سعيد بن أبي عَرُوبَةَ؛ فإن سعيداً كان قد تغيَّرَ عقلُه في آخر عمره^(٢). وقد خالفه شعبَةُ في روايته عن قتادة، عن أنس بن مالك، فقال فيه: كان رسولُ الله ﷺ يرفعُ يَدَيْهِ حتى يُرى بياضُ إبطيه^(٣).

وقد قيل: إنه إذا نزلتْ بالمسلمين نازلةٌ أن الرفعَ عند ذلك جميلٌ حسنٌ؛ كما فعل النبي ﷺ في الاستسقاء، ويوم بدر.

قلت: والدعاء حَسَنٌ كيفما تيسَّر، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار مَوْضِعِ الفقر والحاجة إلى الله عزَّ وجلَّ، والتذللِ له والخُضُوع. فإن شاء استَقْبَلَ القبلةَ ورفع يَدَيْهِ فحسنٌ، وإن شاء فلا، فقد فَعَلَ ذلك النبي ﷺ حَسَبَما وَرَدَ في الأحاديث. وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. ولم يُرد صفةٌ من رفع يدين وغيرها. وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، فمدحهم ولم يشترط حالةً غيرَ ما ذكر. وقد دَعَا النبي ﷺ في خُطْبته يوم الجمعة وهو غيرُ مستقبل القبلة^(٤).

(١) صحيح مسلم (٨٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٧٢١٩).

(٢) اختلاط سعيد ليس بعلَّة في هذا الحديث، فقد رواه عنه جماعة قبل اختلاطه، ثم إن حديثه هذا أخرجه أحمد (١٢٨٦٧)، والبخاري (١٠٣١)، ومسلم (٨٩٥).

(٣) لم نقف على هذا اللفظ من طريق شعبَة عن قتادة عن أنس ﷺ. إنما أخرجه من هذه الطريق أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/١٤١ بلفظ حديث سعيد الذي ساقه المصنف، وأخرجه مسلم (٨٩٥): (٥) من طريق شعبَة، عن ثابت، عن أنس ﷺ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يرفعُ يديه في الدعاء حتى يُرى بياضُ إبطيه. ثم إن مسلماً رحمه الله قد أورد هذين اللفظين في باب رفع اليدين في الدعاء في الاستسقاء، فليس ثمة اختلاف بين الروایتين كما ذكر المصنف!

(٤) أخرجه أحمد (١٣٠١٦)، والبخاري (٦٣٤٢)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ. وقد ترجم له البخاري: باب الدعاء غير مستقبل القبلة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِينَ﴾ يُرِيدُ فِي الدَّعَاءِ وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ عَامًّا، إِلَى هَذَا هِيَ الْإِشَارَةُ^(١). وَالْمُنْتَدِي هُوَ الْمَجَاوِزُ لِلْحَدِّ وَمُرْتَكِبُ الْحَظَرِ، وَقَدْ يَتَفَاضِلُ بِحَسَبِ مَا اعْتَدَى فِيهِ. وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدَّعَاءِ». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ، عَنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ الْجُرَيْرِيِّ، عَنِ أَبِي نَعَامَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغْفَلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنِ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتَهَا. فَقَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَعُذِّبْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدَّعَاءِ»^(٢).

والاعتداء في الدعاء على وجوه: منها الجهر الكثير والصياح، كما تقدّم^(٣). ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في مُحال، ونحو هذا من الشُّطط^(٤).

ومنها أن يدعو طالباً معصيةً وغير ذلك^(٥).

ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة، فيتخير ألفاظاً مُفَقَّرَةً، وكلماتٍ مُسَجَّعة^(٦)، قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله عليه الصلاة والسلام. وكلُّ هذا يمنع من استجابة الدعاء، كما تقدم في «البقرة» بيانه^(٧).

(١) المحرر الوجيز ٢/٤١٠.

(٢) سنن ابن ماجه (٣٨٦٤)، وأخرجه أحمد (١٦٨٠١) وأبو داود (٩٦) وعندهما: .. في الدعاء والظهور.

(٣) في المسألة الأولى.

(٤) في (خ) و(ز): التشطط.

(٥) المحرر الوجيز ٢/٤١٠.

(٦) أخرج البخاري (٦٣٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ... فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتتاب.

(٧) ٣/١٧٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه مسألة واحدة، وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قلّ أو أكثر بعد صلاح قلّ أو أكثر. فهو على العموم على الصحيح من الأقوال. وقال الضحاك: معناه: لا تُعَوِّروا^(١) الماء المَعِين، ولا تقطعوا الشجرَ المُثْمِرَ ضِراراً. وقد وَرَدَ: قَطَعَ الدنانيرِ من الفسادِ في الأرض. وقد قيل: تجارة الحُكَّام من الفسادِ في الأرض^(٢).

وقال القُشَيْرِيُّ: المرادُ: ولا تُشركوا، فهو نهى عن الشرك وسفكِ الدماء والهَرَجِ في الأرض، وأمرٌ بلزوم الشرائع بعد إصلاحها، بعد أن أصلحها الله ببعثه^(٣) الرسل، وتقرير الشرائع ووضوح مِلَّة محمد ﷺ. قال ابن عطية^(٤): وقائلُ هذه المقالة قَصَدَ إلى أكبر^(٥) فساد بعد أعظم صلاح، فخصَّه بالذكر.

قلت: وأما ما ذكَّره الضحاكُ؛ فليس على عمومهِ، وإنما ذلك إذا كان فيه ضررٌ على المؤمن، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائزٌ؛ فإن النبي ﷺ قد عَوَّرَ^(٦) ماءً قَلِيْبٍ بدرٍ، وقطعَ شَجَرَ الكافرين^(٧). وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في «هود» إن شاء الله تعالى^(٨).

(١) في (د) و(ز) و(ظ): لا تغوروا، والمثبت من (خ) و(م). وجاء في اللسان (عور): عَوَّرت عيون المياه: إذا دفتها وسدتها.

(٢) المحرر الوجيز ٤١٠/٢.

(٣) في (خ) و(ظ): ببعثه، وفي (د): ببعث.

(٤) في المحرر الوجيز ٤١٠/٢.

(٥) في (ظ): أكثر.

(٦) في النسخ: غور، والمثبت من (م)، وسلف معناها.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٢٠، ٢/١٩١.

(٨) في تفسير الآية (٨٦) منها.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة تَرَقُّبٍ وتخوُّفٍ وتأميلٍ لله عزَّ وجلَّ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجنحين للطائر؛ يَحْمِلَانِهِ فِي طَرِيقِ اسْتِقَامَتِهِ، وَإِنْ انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا هَلَكَ الْإِنْسَانُ^(١)، قال الله تعالى: ﴿نَتَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]. فَرَجَّيْ وَخَوْفًا. فِيدَعُو الْإِنْسَانَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُوكُمْ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وَسَيَاتِي الْقَوْلَ فِيهِ. وَالْخَوْفُ: الْإِنزِعَاجُ لِمَا لَا يُؤْمَنُ مِنَ الْمَضَارِّ. وَالطَّمَعُ: تَوَقُّعُ الْمَحْبُوبِ، قَالَ الْقَشِيرِيُّ.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء^(٢). قال النبي ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ». صحيح، أخرجه مسلم^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: قريبة. ففيه سبعة أوجه: أولها أن الرَّحْمَةَ والرُّحْمَ واحدٌ، وهي بمعنى العفو والغفران؛ قاله الزجاج، واختاره النحاس^(٤). وقال النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: الرَّحْمَةُ مَصْدَرٌ، وَحَقُّ الْمَصْدَرِ التَّذْكَيرُ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ الزَّجَاجِ؛ لِأَنَّ الْمَوْعِظَةَ بِمَعْنَى الْوَعِظِ^(٥). وَقِيلَ: أَرَادَ بِالرَّحْمَةِ الْإِحْسَانَ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَكُونُ تَأْنِيثُهُ حَقِيقِيًّا جَازَ تَذْكَيرُهُ، ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ^(٦). وَقِيلَ: أَرَادَ بِالرَّحْمَةِ هُنَا الْمَطْرَ؛ قَالَ الْأَخْفَشُ^(٧). قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يُذَكَّرَ كَمَا يذَكَّرُ بَعْضُ الْمُؤَنَّثِ. وَأَنْشُدَ:

(١) المحرر الوجيز ٤١١/٢ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) الحديث (٢٨٧٧)، وهو في مسند أحمد (١٤١٢٥) من حديث جابر ؓ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣٤٤/٢، وإعراب القرآن للنحاس ١٣١/٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٣٧/١٤ .

(٦) في الصحاح (قرب).

(٧) في معاني القرآن له ٥١٩/٢ .

فلا مُزْنَةً وَذَقْتَ وَذَقَهَا ولا أَرْضَ أُبْقَلَ إِنْقَالَهَا^(١)

وقال أبو عبيدة^(٢): ذُكِرَ «قَرِيبٌ» على تذكير المكان، أي: مكاناً قريباً. قال عليُّ ابنُ سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال؛ لَكَانَ «قَرِيبٌ» منصوباً في القرآن، كما تقول: إن زيدا قريباً منك.

وقيل: ذُكِرَ على النسب، كأنه قال: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ ذَاتُ قُرْبٍ، كما تقول: امرأةٌ طالقٌ وحائضٌ^(٣).

وقال الفراء: إذا كان القريبُ في معنى المسافة يُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ، وإذا^(٤) كان في معنى النسب يؤنَّثُ بلا اختلافٍ بينهم. تقول: هذه المرأةُ قريبتِي، أي: ذاتُ قرابتي، ذكرهُ الجوهري^(٥).

وذكر غيره عن الفراء: يقالُ في النسب: قريبةُ فلان، وفي غير النَّسَبِ يجوز التذكيرُ والتأنيث، يقال: دارُكَ مِنَّا قَريبٌ، وفلانةُ منا قَريبٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال مَنْ احتجَّ له: كذا كلامُ العرب، كما قال امرؤ القيس:

لَهُ الْوَيْلُ إِنْ أَمْسَى وَلَا أُمَّ هَاشِمٍ قَرِيبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَةَ ابْنَةُ يَشْكُرَا^(٦)
قال الزجاج^(٧): وهذا خطأ؛ لأن سبيلَ المذكَّرِ والمؤنَّثِ أن يجرى على أفعالهما.

(١) البيت لعامر بن جوين الطائي، وهو في الكتاب ٤٦/٢، ومجاز القرآن ٦٧/٢، وخزانة الأدب ٤٥/١. والمزنة: واحدة المزن، وهي السحابة البيضاء. والوذق: المطر. وأقبل: أي: نبت بقله. خزانة الأدب.

(٢) في مجاز القرآن ٢١٦/١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٣٢/٢.

(٤) في (م): وإن.

(٥) في الصحاح (قرب)، وينظر معاني الفراء ٣٨٠/١ - ٣٨١.

(٦) سلف ٤١٣/٣.

(٧) في معاني القرآن له ٣٤٥/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٣١/٢ - ١٣٢. وما قبله منه، وقول الفراء السالف في معاني القرآن له ٣٨٠/١ - ٣٨١.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ عطف على قوله: ﴿يُفْثِي أَيْلَ النَّهَارِ﴾. ذكر شيئاً آخر من نعمه، ودل على وحدانيته وثبوت إلهيته. وقد مضى الكلام في الريح في «البقرة»^(١). ورياح جمع كثرة، وأرواح جمع قلة. وأصل ريح: روح. وقد خطئ من قال في جمع القلة: أرياح.

﴿بُشْرًا﴾ فيه سبع قراءات:

قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو: «نُشْرًا» بضم النون والشين^(٢)؛ جمع ناشر على معنى النسب، أي: ذات نُشر، فهو مثل: شاهد وشُهد. ويجوز أن يكون جمع نُشور؛ كرسول ورُسل. يقال: ريح النشور: إذا أتت من هاهنا وهاهنا. والنشور بمعنى المنشور؛ كالركوب بمعنى المركوب. أي: وهو الذي يرسل الرياح مُنشرة.

وقرأ الحسن وقتادة: «نُشْرًا» بضم النون وإسكان الشين^(٣) مخففاً من نُشر؛ كما يقال: كُتِبَ ورُسل.

وقرأ الأعمش وحمزة: «نُشْرًا» بفتح النون وإسكان الشين على المصدر^(٤)، أعمل فيه معنى ما قبله، كأنه قال: وهو الذي ينشر الرياح نُشْرًا. نُشِرَت الشيء فانتشر، فكأنها كانت مطوية فنُشِرَت^(٥) عند الهبوب. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال من الرياح؛ كأنه قال: يرسل الرياح مُنشرة^(٦)، أي: مُحْيية؛ من أنشَر الله الميت

(١) ٢٩٨/٢ عند تفسير الآية ١٩٧ منها.

(٢) يعني هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص ٢٨٣، والتيسير ص ١١٠.

(٣) وهي قراءة ابن عامر من السبعة.

(٤) وهي قراءة الكسائي أيضاً.

(٥) في (خ) و(ز): فتشّر. وفي (ظ): تشّر. والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): منشرة.

فَشَّرَ^(١)، كما تقول: أتانا رَكُضاً، أي: راكضاً. وقد قيل: إن نَشْرًا - بالفتح - من الشَّر الذي هو خلاف الطِّي، على ما ذكرنا. كأن الريح في سكونها كالمطوية، ثم تُرسل من طَيِّها ذلك، فتصير كالمنفتحة. وقد فسره أبو عبيدة^(٢) بمعنى: متفرقة في وجوها، على معنى ينشرها هاهنا وهاهنا.

وقرأ عاصم: «بُشْرًا» بالباء وإسكان الشين والتنوين؛ جمع بشير، أي: الرياح تُبَشِّر بالمطر، وشاهده قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. وأصل الشين الضم، لكن سُكَّنت^(٣) تخفيفاً؛ كرسل^(٤) ورُسل. ورُوي عنه «بُشْرًا» بفتح الباء^(٥). قال النحاس: ويقرأ: «بُشْرًا»، و«بُشْرًا»^(٦)؛ مصدر بَشَرَه يَبْشُرُه بمعنى بَشَرَه. فهذه خمس قراءات. وقرأ اليماني: «بُشْرَى»^(٧)، على وزن حُبَلَى. وقراءة سابعة: «بُشْرًا»^(٨) بضم الباء والشين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ السحاب يُذَكِّر ويُوَثِّث، وكذا كلُّ جمع بينه وبين واحدته هاء. ويجوز نعتُه بواحد؛ فتقول: سحابٌ ثَقِيلٌ وثَقِيلَةٌ^(٩). والمعنى: حملت الريحُ سَحَابًا ثِقَالًا بالماء، أي: استقلت^(١٠) بحمله. يقال: أقلَّ

(١) في (ظ): ينشروه.

(٢) في (خ) و(ز) و(م): أبو عبيد. والمثبت من (ظ). وكلامه بنحوه في مجاز القرآن ٢١٧/١.

(٣) في (ظ): وأسكنت.

(٤) في النسخ الخطية: كرسل. والمثبت من (م).

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٤ لعصمة عن عاصم. ونسبها ابن جني في المحتسب ٢٥٥/١ لأبي عبد الرحمن، والقراءة المتواترة عن عاصم هي التي ذكرها عنه أولاً.

(٦) ينظر إعراب القرآن ١٣٣/١. وقوله: يقرأ، يعني عاصم.

(٧) القراءات الشاذة ص ٤٤، والمحتسب ٢٥٥/١، وزادها نسبتها لابن قطيب.

(٨) في (م): بُشْرَى. والمثبت موافق لإعراب القرآن. والقراءة نسبها ابن جني في المحتسب ٢٥٥/١ لابن عباس والسلمي بخلاف، وعاصم بخلاف.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١٣٣/٢.

(١٠) في (م): أنقلت.

فلان الشيء، أي: حَمَله.

﴿سُقْنَهُ﴾ أي السحاب. ﴿لَيْكِدِ مَيِّتٍ﴾ أي ليس فيه نبات. يقال: سقته لبلد كذا، وإلى بلد كذا. وقيل: لأجل بلد ميت؛ فاللام لام أجل.

والبلد: كلُّ موضع من الأرض عامرٍ أو غيرِ عامر، خالٍ أو مسكون^(١).

والبلدة والبلد: واحد البلاد والبلدان.

والبلد: الأثر، وجمعه: أبلاد. قال الشاعر^(٢):

مِنْ بَعْدِ مَا شَمَلَ الْبِلَى أَبْلَادَهَا

والبلد: أذحي النعام^(٣). يقال: هو أذلُّ من بيضة البلد؛ أي: من بيضة النعام التي

يتركها.

والبلدة: الأرض؛ يقال: هذه بلدتنا، كما يقال: بحرُتنا.

والبلدة: من منازل القمر، وهي ستة أنجم من القوس، تنزلها الشمس في أقصر

يوم في السنة^(٤).

والبلدة: الصدر؛ يقال: فلان واسع البلدة؛ أي: واسع الصدر؛ قال الشاعر:

أَنْبَحَتْ فَأَلْقَتْ بَلْدَةً فَوْقَ بَلْدَةٍ قَلِيلٍ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَامُهَا^(٥)

يقول: برکت الناقة، فألقت صدرها على الأرض.

والبلدة؛ بفتح الباء وضمها: نقاوة ما بين الحاجبين^(٦)؛ فهما من الألفاظ

المشتركة.

(١) تهذيب اللغة ١٤/١٢٧.

(٢) هو ابن الرقاع، كما في الصحاح (بلد). - وعنه نقل المصنف - وتهذيب اللغة ١٤/١٢٩، واللسان (بلد).

(٣) هو موضعها الذي تفرخ فيه.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٤/١٢٨.

(٥) قائله ذو الرمة، والبيت في ديوانه ٢/١٠٠٤ (شرح الأصمعي). وقوله: بُغَامُهَا؛ بغام الناقة: صوت لا تفصح به. الصحاح (بغم).

(٦) الصحاح (بلد)، وما قبله منه.

﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ أي: بالبلد. وقيل: أنزلنا بالسحاب الماء؛ لأن السحاب آلة لإنزال الماء. ويحتمل أن يكون المعنى: فأنزلنا منه الماء، كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]: أي: منها.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: مثل ذلك الإخراج يحيي الموتى. وخرج البيهقي وغيره: عن أبي رزين^(١) العُقَيْلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يُعيد الله الخلق، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مرزت بوادي قومك جذباً، ثم مرزت به يهتز خضبراً؟» قال: نعم، قال: «فتلك آية الله في خلقه»^(٢).

وقيل: وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم، فتنشق عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «ثم يرسل الله - أو قال: يُنزل الله - مطراً كأنه الطل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا^(٣) إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون». وذكر الحديث^(٤). وقد ذكرناه بكماله في كتاب التذكرة^(٥) والحمد لله، فدل على البعث والنشور، وإلى الله ترجع الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِثًا كَذَلِكَ نُفَصِّرُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِثًا﴾

(١) في النسخ الخطية: ابن رزين، والمثبت من (م). واسمه لقيط بن عامر.

(٢) هو عند البيهقي في الاعتقاد ص ١٤٥، وفي الأسماء والصفات (١٠٦٩) و(١٠٧٠). وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده (١٦١٩٣)، والحاكم في المستدرک ٤/٥٦٠.

(٣) في صحيح مسلم: هلم.

(٤) صحيح مسلم (٢٩٤٠). وأخرجه أيضاً أحمد (٦٥٥٥).

(٥) ص ١٦٥ باب انقراض هذا الخلق وذكر هذا النسخ.

أي: الثربة الطيبة. والخبيث: الذي في تربته حجارة أو شوك؛ عن الحسن. وقيل: معناه التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبليد بالذي خبث؛ عن النحاس^(١). وقيل: هذا مثل للقلوب؛ فقلب يقبل الوعظ والذكرى، وقلب فاسق ينبو عن ذلك؛ قاله الحسن أيضاً. وقال قتادة: مثل للمؤمن يعمل محتسباً متطوعاً، والمنافق غير محتسب^(٢). قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم أنه يجِدُ عظماً سميناً، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»^(٣).

﴿نَكَدًا﴾ نصب على الحال، وهو العسر الممتنع من إعطاء الخير. وهذا تمثيل. قال مجاهد: يعني أن في بني آدم الطيب والخبيث^(٤).

وقرأ طلحة: «إِلَّا نَكَدًا»^(٥) حذف الكسرة لثقلها. وقرأ ابن القَعْقَاع: «نَكَدًا» بفتح الكاف^(٦)، فهو مصدر بمعنى: ذا نكد؛ كما قال:

فإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارٌ^(٧)

وقيل: «نَكَدًا» بنصب الكاف وخفضها بمعنى؛ كالدَّنْف والدَّنِف، لغتان^(٨).

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: كما صرّفنا من الآيات - وهي الحجج والدلالات - في إبطال الشرك؛ كذلك نُصَرِّفُ الْآيَاتِ^(٩) في كل ما يحتاج إليه الناس. ﴿لِقَوْمٍ

(١) ينظر إعراب القرآن له ١٣٤/٢.

(٢) أخرج نحوه الطبري ٢٥٩/١٠.

(٣) أخرجه أحمد (٧٣٢٨)، والبخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة ر. وقوله: مرماتين؛ المرمأة: ظلّ الشاة، وقيل: ما بين ظلّفيها، وتكسر ميمه وفتح. النهاية (رم).

(٤) أخرجه الطبري ٢٥٨/١٠ - ٢٥٩.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٤.

(٦) ابن القَعْقَاع هو أبو جعفر، من العشرة، وقراءته في النشر ٢/٢٧٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٣٤/٢. والبيت للخنساء وهو في ديوانها ص ٤٨، وصدرة: ترتع ما رتعت حتى إذا اذكرت، وسلف ٣/٥٤.

(٨) ينظر معاني القرآن للقراء ١/٣٨٢.

(٩) قوله: الآيات، من (م).

قال القاضي عياض^(١): وجاء جواب الآباء هاهنا؛ كنوح وإبراهيم وآدم: «مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ»، وقال عن إدريس: «بالأخ الصالح» كما ذكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بِأبٍ - بِاتِّفَاقٍ - لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وقال المازري^(٢): قد ذكر المؤرِّخون أنَّ إدريس جدُّ نوح عليهما السلام، فإن قام الدليلُ على أنَّ إدريس بُعثَ أيضاً؛ لم يصحَّ قولُ النَّسَّابِينَ: إنه قبل نوح؛ لِمَا أخبر عليه الصلاة والسلام من قول آدم: إنَّ نوحاً أوَّلُ رسولٍ بُعثَ، وإنَّ لم يقم دليلٌ جاز ما قالوا، وصحَّ أن يُحملَ أنَّ إدريس كان نبياً غيرَ مرسل.

قال القاضي عياض^(٣): قد يُجمع بين هذا بأن يقال: اختصَّ بعثُ نوح لأهل الأرض - كما قال في الحديث^(٤) - كافَّةً؛ كنيِّنا عليه الصلاة والسلام، ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم. وقد استدللَّ بعضهم على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصفات: ١٢٣-١٢٤]. وقد قيل: إنَّ إلياسَ هو إدريسُ، وقد قرئ: «سلام على إدزاسين»^(٥).

قال القاضي عياض^(٦): وقد رأيت أبا الحسن ابنَ بَطَّالٍ ذهب إلى أنَّ آدم ليس برسول؛ لَيْسَلَمَ من هذا الاعتراض. وحديثُ أبي ذَرِّ الطويل يدلُّ على أنَّ آدم وإدريس رسولان.

(١) في إكمال المعلم ٥٠٢/١ .

(٢) في المعلم ٣٤١/١ . ونقل المصنف عنه بواسطة إكمال المعلم ٥٧٥/١ .

(٣) في إكمال المعلم ٥٧٥/١ - ٥٧٦ .

(٤) حديث الشفاعة عند أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٥) نسبها ابن خالويه في القرءات الشاذة ص ١٢٨ لابن مسعود، وزاد ابن جنبي في المحتسب ٢٢٤/٢ نسبتها ليحيى والأعمش والمنهال والحكم بن عيينة، وقال: فيجب أن يكون من تحريف العرب الكلم الأعجمي؛ لأنه ليس من لغتها.

(٦) إكمال المعلم ٥٧٦/١ .

قال ابن عطية^(١): ويجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان؛ فالمراد أنه أول نبي بُعث على هذه الصفة. والله أعلم. ورؤي عن ابن عباس: أن نوحاً عليه السلام بُعث ابن^(٢) أربعين سنة. قال الكلبي: بعد آدم بثمان مئة سنة.

وقال ابن عباس: وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ كما أخبر التنزيل^(٣)، ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة، حتى كثر الناس وفشوا^(٤). وقال وهب: بُعث نوح وهو ابن خمسين سنة^(٥). وقال عون بن شداد: بُعث نوح وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة^(٦).

وفي كثير من كتب الحديث؛ الترمذي وغيره: أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام^(٧).

وذكر النقاش عن سليمان بن أرّقم عن الزهري: أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح. والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة، وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح. والترك وبربر ووراء الصين وآجوج ومأجوج والصقالبة؛ كلهم من ولد يافث بن نوح. والخلق كلهم ذرية نوح^(٨).

(١) في المحرر الوجيز ٤١٦/٢. وحديث أبي ذر الذي أشار إليه المصنف سلف ذكره قريباً.

(٢) في (م): وهو ابن.

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٦٠ - ٦١ موقوفاً. وأخرجه الحاكم ٥٤٥/٢ - ٥٤٦ مرفوعاً.

(٥) المحرر الوجيز ٤١٦/٢.

(٦) أخرجه الطبري ٣٧٠/١٨.

(٧) أخرج نحوه البزار (٢١٨) (زوائد) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وقال: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا الإسناد... ورواه غيره مرسلأ، وإنما جعله من قول سعيد [بن المسيب] .أهـ. وأخرجه الحاكم ٤٦٣/٤ موقوفاً على سعيد بن المسيب وحديث الترمذي في التعليق التالي.

(٨) المحرر الوجيز ٤١٦/٢. وأخرج الترمذي (٣٢٣٠) عن سمرة، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] قال: «حام وسام ويافث». وقال: حديث حسن غريب. =

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ برفع «غَيْرُهُ» قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة^(١)؛ أي: ما لكم إله غيره؛ نعتٌ على الموضع. وقيل: «غير» بمعنى إلا؛ أي: ما لكم من إله إلا الله. قال أبو عمرو: ما أعرف الجرّ ولا النصب. وقرأ الكسائي بالخفض على الموضع. ويجوز النصب على الاستثناء، وليس بكثير؛ غير أن الكسائي والفراء أجازا نصب «غير» في كل موضع يحسن فيه «إلا»؛ تَمَّ الكلامُ أو لم يتم. فأجازا: ما جاءني غيرك^(٢).

قال الفراء^(٣): هي لغة بعض بني أسد وقُضَاعَة. وأنشد:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبِ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفْتُ حَمَامَةً فِي سَحُوقِ ذَاتِ أَوْقَالِ^(٤)
قال الكسائي: ولا يجوز: جاءني غيرك، في الإيجاب؛ لأن إلا لا تقع هاهنا. قال النحاس^(٥): لا يجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتم الكلام، وذلك عندهم من أقبج اللحن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ قَالَ يَلْقَوهُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَائِكِ ﴿١٦﴾ أَبْلَغَكُمْ رَسُولِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾

«الْمَلَأُ»: أشرف القوم ورؤساؤهم، وقد تقدّم بيانه في «البقرة»^(٦).

= وأخرجه أيضاً (٣٢٣١) عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٩).

(١) وهي أيضاً قراءة ابن كثير وابن عامر. السبعة ص ٢٨٤، والتيسير ص ١١٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٣٤/٢ - ١٣٥ وجواز نصب «غيره» يعني في اللغة لا في القراءة.

(٣) في معاني القرآن ٣٨٢/١. ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٣٥/٢.

(٤) نسبة سيبويه في الكتاب ٣٢٩/٢ لكناني، ونُسب في شرح شواهد المغني ٤٥٨/١ وشرح المفصل لابن يعيش ٨٠/٣ لأبي قيس بن رفاعة. وذكره في اللسان (وقل) دون نسبة، وقال: السحوق: ما طال من الدَّؤْم (وهو ضخام الشجر)، وأوقاله: ثماره.

(٥) في إعراب القرآن ١٣٥/٢ وما قبله منه.

(٦) ٢٢٨/٤ عند الآية ٢٤٦.

وَالضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ: العُدول عن طريق الحق والذهاب عنه، أي: إنَّا لنترك في دعائنا إلى إله واحد في ضلال عن الحق.

﴿أَبْلَغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ، وبالتخفيف من الإبلاغ^(١). وقيل: هما بمعنى واحد لغتان؛ مثل كَرَّمه وأكرمه.

﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ النصح: إخلاصُ النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغش. يقال: نصحتُ له، نصيحةً ونصاحةً ونُصحاً، وهو باللام أفصح؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾. والاسم: النصيحة. والتَّصِيحُ: النصيحُ، وقومُ نصحاء. ورجل ناصح الجيب، أي: نقي القلب. قال الأصمعيُّ: الناصح: الخالص من العسل وغيره، مثلُ الناصع. وكلُّ شيء خَلَصَ فقد نَصَحَ. وانتَصَحَ فلان، أي: قَبِلَ النصيحة^(٢). يقال: انتصحنى إنني لك ناصح. والناصح: الخياط. والتَّصَاحُ: السلك يُخاط به. والتَّصَاحَاتُ أيضاً: الجلود. قال الأعشى^(٣):

فَتَرَى الشَّرْبَ^(٤) نَشَاوَى كُلَّهُمْ مِثْلَ مَا مُدَّتْ نِصَاحَاتُ الرُّبْعِ
الرُّبْعُ لغةٌ في الرُّبْعِ؛ وهو الفَصِيل. والرُّبْعُ أيضاً طائر. وسيأتي لهذا زيادة معنى في براءة [الآية: ٩٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو لأنها واو عطف، دخلت عليه ألف

(١) قرأ أبو عمرو: «أَبْلَغُكُمْ» بالتخفيف، وقرأ باقي السبعة بالتشديد. السبعة ص ٢٨٤، والتيسير ص ١١١.

(٢) في النسخ: وانتصح فلان أقبل على النصيحة. والمثبت من الصحاح (نصح) والكلام منه.

(٣) ديوانه ص ٤١.

(٤) في الصحاح (نصح)، وتهذيب اللغة ٤/٢٤٩: القوم. والشَّرْبُ: القوم يشربون. القاموس (شرب).

الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام، إلا الألف لقوتها^(١). ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أي: وعظ من ربكم. ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: على لسان رجل. وقيل: «على» بمعنى «مع»، أي: مع رجل. وقيل: المعنى: أن جاءكم ذكر من ربكم، مُنَزَّلٌ على رجل منكم، أي: تعرفون نسبه، أو^(٢): على رجل من جنسكم. ولو كان ملكاً؛ فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطبع. و«الفلك» يكون واحداً، ويكون جمعاً. وقد تقدّم في «البقرة»^(٣).

﴿وَعِيْبٌ﴾ أي: عن الحق؛ قاله قتادة. وقيل: عن معرفة الله تعالى وقدرته؛ يقال: رجلٌ عَمٍ بكذا، أي: جاهل^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُنْقِمِ رَبُّكَ أَلْمَامًا مِّن ذُرِّيَّتِهِمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِمْ إِنَّا لَنَرُّوهُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٥) قَالَ يُنْقِمِ رَبُّكَ أَلْمَامًا مِّن ذُرِّيَّتِهِمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِمْ إِنَّا لَنَرُّوهُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ أَيْلَافِكُمْ رَسَلْنَا مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّا لَكُرُوحٌ رَّحِيمَةٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ زُرَّادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْبَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال ابن عباس: أي: ابن أبيهم^(٥). وقيل: أخاهم في القبيلة. وقيل: أي: بشراً من بني أبيهم آدم. وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هوداً؛ أي: صاحبهم^(٦).

وعاد من ولد سام بن نوح؛ قال ابن إسحاق: وعاد هو ابن عوص بن إرم بن

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٣٥/٢ - ١٣٦ .

(٢) في (م): أي.

(٣) ٢٩٤/٢ عند تفسير الآية ١٦٤ منها.

(٤) تفسير الواحدي ٢/٣٨٠ - ٣٨١ .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره ٢/٣٨١ دون نسبة.

(٦) لم نقف عليه.

شالخب بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام^(١).

وهود: هو هود بن عبد الله بن رباح بن الخُلُود^(٢) بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح؛ بعثه الله إلى عاد نبيًا، وكان من أوسطهم نَسَبًا، وأفضلهم حَسَبًا^(٣).
و«عاد» مَنْ لم يصرْفُه جعله اسمًا للقبيلة، وَمَنْ صرفه جعله اسمًا للحَيِّ. قال أبو حاتم: وفي حرف أبيّ وابن مسعود: «عاد الأولى» بغير ألف^(٤).

و«هود» أعجمي، وانصرف لخفته؛ لأنه على ثلاثة أحرف، وقد يجوز أن يكون عربيًا مشتقًا من هاد يهود، وانتصب^(٥) على البدل. وكان بين هود ونوح - فيما ذكر المفسرون - سبعة آباء. وكانت عادٌ فيما رُوي ثلاثُ عشرة قبيلة، ينزلون الرمال؛ رملَ عالج^(٦)، وكانوا أهلَ بساتينَ وزروعٍ وعمارة، وكانت بلادهم أخصبَ البلاد، فسخط الله عليهم؛ فجعلها مفاوز، وكانت - فيما رُوي - بنواحي حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام. ولحق هودٌ حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا^(٧).

﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: في حُمقٍ وخِفَّةِ عقل. قال:

مَشِينٌ كَمَا اهْتَرَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهُتْ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ^(٨)

(١) أخرجه الطبري ٢٦٨/١٠، وليس فيه: ابن شالخب بن أرفخشذ. ولم ترد كذلك في المحجَّب ص ٣٨٤. والمنتظم ٢٥٢/١، وعرائس المجالس ص ٦٢.

(٢) في (خ) و(د) و(م): الجلود. وفي (ز): الحلود. والمثبت من (ظ). وهو الموافق لتاريخ الطبري ٢١٦/١، وعرائس المجالس ص ٦٣، والمنتظم ٢٥٢/١ وقال: بضم الخاء واللام، كذلك رأيت... ويقال: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة.

(٣) عرائس المجالس ص ٦٣.

(٤) ذكرها الرازي في تفسيره ٢٣/٢٩ دون نسبة، وهي من الآية (٥٠) في سورة النجم.

(٥) في (م): والنصب.

(٦) في مجمع البيان ٩٦/٣: الأحاف، وهي رمال يقال لها: رمل عالج.

(٧) تفسير الطبري ٢٦٨/١٠، والمحجر الوجيز ٤١٨/٢، ومجمع البيان ٩٦/٣.

(٨) قائله ذو الرمة. وتقدم ٣١١/١.

وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» [الآية: ١٣].

والرؤية هنا وفي قصة نوح قيل: هي من رؤية البصر. وقيل: يجوز أن يراد بها الرأي؛ الذي هو أغلب الظن.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ «خلفاء» جمع خليفة على التذكير والمعنى، وخلائف على اللفظ^(١)؛ مَنْ عَلَيْهِمْ بَأَنْ جَعَلَهُمْ سُكَّانَ الْأَرْضِ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ^(٢).

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَعْضَةٌ﴾ ويجوز «بصطة» بالصاد؛ لأنَّ بعدها طاء^(٣)، أي: طولاً في الخلق وعظم الجسم. قال ابن عباس: كان أطولهم مئة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعاً^(٤). وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم. وقيل: على خلق قوم نوح. قال وهب: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم^(٥).

وروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ^(٦) المصراعين من حجارة، لو اجتمع عليها خمس مئة^(٧) من هذه الأمة لم يطيقوه، وإن كان أحدهم ليغمزُ بقدمه^(٨) الأرض فتدخل فيها^(٩).

﴿فَأَذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله، واحداً: إِلَيَّ وَإِلَيَّ وَاللَّوْ وَأَلَى؛ كالأناة؛

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٣٦/٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٦٦/١٠ عن السدي وابن إسحاق. وينظر المحرر الوجيز ٤١٧/٢ .

(٣) قرأ قنبل وحفص وهشام وأبو عمرو وحزمة بخلاف عن خلاد بالسين، وباقي السبعة بالصاد، وهو الوجه الثاني لخلاد. السبعة ص ١٨٥ - ١٨٦ ، والتيسير ص ٨١ .

(٤) ذكره أبو الليث في تفسيره ٥٥٠/١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٢٢٢/٣ .

(٥) تفسير البغوي ١٧٠/٢ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات .

(٦) في (م): يتخذ. والمثبت من النسخ الخطية موافق لتفسير الطبري ١٣٧/٢٢ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): خمس مئة رجل. والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لتفسير الطبري .

(٨) في (د) و(ز) و(م): برجله. والمثبت من (خ) و(ظ) .

(٩) أخرجه الطبري ١٣٧/٢٢ - ١٣٨ . وأورده السيوطي في الدر المنثور ١٣٦/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد. وشهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب .

واحدھا: إني وإنِّي وإنو وأنى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتْلُونَ﴾ تقدّم (١).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أٰجَعْتَنَا لَتَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحَدُّهُ وَاذَرْنَا مَآ كَانَّ يَمْبُدُ ؕ ءَابَآؤُنَا ۖ فَاٰنَا بِمَا نَعُدُّنَا ۖ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٧٥﴾ قَالَ قَدْ وُقِعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ مُّبْتَدِلُوْنِيۙ فِتْ اَسْمَآءُو سَبَّيْتُوْهَا اَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطٰنٍ فَاَنْظُرُوْا آِنِّيۙ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَنْجِيْنَهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُۥ يَرْحَمُوْهُ مِمَّا قَطَعْنَا دَآِٓرَ الَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِآيٰتِنَا وَمَا كَانُوْا مُؤْمِنِيْنَ ﴿٧٧﴾﴾

طلبوا العذاب الذي خوّفهم به وحذّره منهُ، فقال لهم: ﴿قَدْ وُقِعَ عَلَيْكُمْ﴾. ومعنى وقع، أي: وجب. يقال: وَقَعَ القَوْلُ والحُكْمُ، أي: وجب، ومثله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْسُ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي: نزل بهم. ﴿وَلِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]. والرِّجْسُ: العذاب. وقيل: عُني بالرجس الرِّينُ على القلب بزيادة الكفر. ﴿أَتَجِدَلُونِيۙ فِتْ اَسْمَآءُو سَبَّيْتُوْهَا﴾ يعني الأصنام التي عبدها، وكان لها أسماء مختلفة. ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطٰنٍ﴾ أي: من حُجَّةٍ لكم في عبادتها، فالاسم هنا بمعنى المسمّى، نظيره: ﴿مَّا تَقْبُدُوْنَ مِن دُوْنِهِۦ اِلَّا اَسْمَآءُ سَبَّيْتُوْهَا﴾ [يوسف: ٤]. وهذه الأسماء مثل العُزَّى من العِزِّ والأعزّ، واللّات، وليس لها من العِزِّ والإلهية شيء. ﴿دَآِٓرٍ﴾: آخِر، وقد تقدّم (٢)، أي: لم يبق لهم بقية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ثَمُودَ ٱخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰتَقَوُّوْا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هٰذِهِۦ نَاقَةٌ ۖ لَكُمْ لَكُمْ ءَايَةٌ فذَرُوْهَا تَآْكُلْ فِيۙ اَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابُ اَلِيْمٍ ﴿٧٦﴾﴾

وهو ثمود بن عاد (٣) بن إرم بن سام بن نوح. وهو أخو جدّيس، وكانوا في سَعَةِ

(١) ٢٧٧/١.

(٢) ٤٢٧/٦.

(٣) كذا في الأصول الخلفية (م) والعرائس ص ٦٨، وعنه نقل المصنف. وفي تاريخ الطبري ٢٢٦/١، وفي تفسيره ٢٨٢/١٠، والمحبّر لابن حبيب ص ٣٨٤، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٢: جائر. وفي الكشف ٨٩/٢، وتفسير البغوي ١٧٣/٢: عابر. وفي المحرر الوجيز ٤٢٠/٢: غائث.

من معاشهم، فخالقوا أمر الله، وعبدوا غيره، وأفسدوا في الأرض، فبعث الله إليهم صالحاً نبياً؛ وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح^(١) بن عبيد بن حاذر^(٢) بن ثمود، وكانوا قوماً غُرباً، وكان صالحٌ من أوسطهم نَسَباً، وأفضلهم حَسَباً، فدعاهم إلى الله تعالى حتى شِمط^(٣)، ولا يتبعه منهم إلا قليلٌ مستضعفون^(٤).

ولم ينصرف «ثمود» لأنه جُعل اسماً للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمي^(٥). قال النحاس^(٦): وهذا غلط؛ لأنه مشتق من الثَّمَد، وهو الماء القليل. وقد قرأ القراء: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾^(٧) [هود: ٦٨] على أنه اسم للحيي.

وكانت مساكنُ ثمود الحِجْرَ بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. وهم من ولد سام بن نوح.

وسُميت ثمود لقلّة مائها^(٨). وسيأتي بيانه في «الحجر»^(٩) إن شاء الله تعالى.

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أخرج لهم الناقة حين سأله من حَجَرَ صَلْدُ، فكان لها يومٌ تشرب فيه ماء الوادي كلّه، وتسقيهم مثله لبناً؛ لم يُشرب قطُّ الذُّ وأحلى منه، وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم؛ قال الله تعالى: ﴿لَمَّا شَرِبَ وَلَكُّ شَرِبَ يَوْمٍ﴾

(١) في (خ) و(ز): ما اسخ. وفي تاريخ الطبري ٢٢٦/١ : ماسخ. وفي (م): كاشح. وسقطت من (د). والمثبت من (ظ) وهو الموافق للعرائس ص ٦٨ ، وتفسير البغوي ١٧٣/٢ .

(٢) في (خ) و(ز) و(ظ): حادر. وفي تاريخ الطبري ٢٢٦/١ ، وتفسير البغوي ١٧٣/٢ : خادر. والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للعرائس ص ٦٨ .

(٣) الشَّمَطُ: بياض شعر الرأس يخالط سواده. مختار الصحاح (شمط).

(٤) عرائس المجالس ص ٦٨ . وينظر تفسير الطبري ٢٨٦/١٠ .

(٥) في (د) و(م): اسم أعجمي.

(٦) في إعراب القرآن، وما قبله منه.

(٧) قرأ حفص وحمزة: «ثمود» بغير تنوين، والباقون بالتنوين. السبعة ص ٣٣٧ ، والتيسير ص ١٢٥ .

(٨) نسب هذا القول البغوي ١٧٤/٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٢٢٣/٣ ، والشعلبي في العرائس ص ٦٨ لأبي عمرو بن العلاء.

(٩) عند تفسير الآية (٨٠) منها.

﴿مَعْلُومٌ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وأضيفت الناقفة إلى الله عزَّ وجلَّ على جهة إضافة الخلق إلى الخالق، وفيه معنى التشریف والتخصيص^(١).

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقها ومؤنتها^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْبُذُوتَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِبُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي: وبوأكم في الأرض منازل. ﴿تَنْبُذُوتَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور بكلِّ موضع^(٣). ﴿وَتَنْجِبُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم؛ فإنَّ السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم^(٤).

وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة، وفيه حرف من حروف الحلق؛ فلذلك جاء على فَعَلٍ يَفْعَلُ^(٥).

الثانية: استدللَّ بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، ويقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ذكر أن ابناً لمحمد ابن سيرين بنى داراً، وأنفق فيها مالا كثيراً؛ فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأساً أن يبني الرجلُ بناءً ينفعه.

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٢١، وتفسير الرازي ١٤/١٦٣.

(٢) الوسيط للواحد ٢/٣٨٣.

(٣) نسب الواحد ٢/٣٨٣ هذا القول لابن عباس.

(٤) الواحد ٢/٣٨٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٣٧. وزاد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٤ نسبة القراءة للأعرج.

وَرُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يُرَى أَثَرُ النُّعْمَةِ عَلَيْهِ»^(١). ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة، ألا ترى أنه لو اشترى جاريةً جميلةً بمالٍ عظيم؛ فإنه يجوز، وقد يكفيه دون ذلك؛ فكذلك البناء. وكره ذلك آخرون، منهم الحسنُ البصريُّ وغيره، واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعِيدَ شَرًّا أَهْلَكَ مَالَهُ فِي الطَّيْنِ وَاللِّبَنِ»^(٢)، وفي خبر آخر عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ؛ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمَلُهُ عَلَى عُنُقِهِ»^(٣).

قلت: بهذا أقول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «وما أنفق المؤمن من نفقة، فإن

- (١) أخرجه أحمد (٨١٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أيضاً أحمد (٦٧٠٨)، والترمذي (٢٨١٩) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الترمذي: حديث حسن. وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٩٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢٠٠) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ (١٧٥٥)، وفي الأوسط (٩٣٦٥)، وفي الصغير (١١٢٧)، ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٣٨١ من حديث جابر رضي الله عنه، ولفظه: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعِيدَ شَرًّا خَضَرَ لَهُ فِي اللَّبَنِ وَالطَّيْنِ حَتَّى يَبْنِيَ» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٦٩: رجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبراني؛ ولم أجد من ضعفه. وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب عقب (٢٧٩٤).
- وأخرجه بنحوه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠٧١ من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده أبو يحيى الوقار المصري، قال ابن عدي: كان يضع الحديث ويوصلها.
- وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٢٠) من حديث محمد بن بشر الأنصاري، بنحوه وقال: لا يروى إلا بهذا الإسناد.
- (٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ (١٠٢٨٧)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٨٤، وابن جميع الصيداوي في معجم الشيوخ ص ١١٥، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٤٦ و ٢٥٢، والبيهقي في الشعب (١٠٧١١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً. قال ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ١١٥ - ١١٦: حديث باطل لا أصل له بهذا الإسناد. وقال المنذري في الترغيب والترهيب عقب (٢٧٩٦): رواه الطبراني في الكبير من رواية المسيب بن واضح، وهذا الحديث مما أنكر عليه، وفي سنده انقطاع. وقال الذهبي في الميزان ٤/ ١١٦: هذا حديث منكر.

خَلَفَهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ [فَاللَّهُ] ضَامِنٌ^(١)، إِلَّا مَا كَانَ فِي بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ». رواه جابر بن عبد الله، وخرَّجه الدَّارَقُطْنِي^(٢). وقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لابن آدم حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: بَيْتٍ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفٍ الْخَبِزِ وَالْمَاءِ» أخرجه الترمذي^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نِعَمَهُ. وهذا يدلُّ على أنَّ الكفار مُنْعَمٌ عليهم. وقد مضى في «آل عمران»^(٤) القولُ فيه.

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم في البقرة^(٥). والعِثِيُّ والعُثُوُّ لغتان. وقرأ الأعمش: «تِعْتَوُوا» بكسر التاء، أخذه من عِثِيَّ يَعْثِي، لا من عَثَا يَعْثُو^(٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ الثاني يدلُّ من الأوَّل، لأنَّ المستضعفين هم المؤمنون. وهو بدلُّ البعض من الكلِّ.

(١) ما بين حاصرتين من المستدرك للحاكم ٥٠/٢، ولفظ «ضامن» من (ظ).

(٢) في سننه (٢٨٩٥) وأوله: «كل معروف صدقة، وما أنفق الرجل على أهله ونفسه؛ كتب له صدقة، وما وقى الرجل به عرضه؛ كتب له به صدقة...». وأخرجه بتمامه أبو يعلى في مسنده (٢٠٤٠)، والحاكم في المستدرك ٥٠/٢.

(٣) في سننه (٢٣٤١) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٤٠)، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥٧/٥.

(٤) ٤٨٢/٥.

(٥) ١٤٢/٢.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١٣٧/٢ وقد كسر التاء في المضارع، لأن ما ضيه مكسور العين، وهي لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز. الكتاب ١١٠/٤، وانظر تفسير الآية (١١٧) الآتي. عند قوله: تلقف ما يأفكون. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦ قراءة الأعمش (في سورة البقرة الآية ٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آثِنَانَا بِمَا
عَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا
﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنفَوِرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا
تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ العَقْرُ: الجرح. وقيل: قَطَعُ عَضْوٍ يُؤَثِّرُ فِي النَفْسِ.
وَعَقَرْتُ الْفَرَسَ: إِذَا ضَرَبْتَ قَوَائِمَهُ بِالسَّيْفِ. وَخَيْلٌ عَقْرَى^(١). وَعَقَرْتُ ظَهَرَ الدَّابَّةِ: إِذَا
أَذْبَرْتَهُ.

قال امرؤ القيس:

تقولُ وقد مالَ العَبيطُ بنا معاً
عَقَرْتُ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَاَنْزِلِ^(٢)
أَي: جَرَحْتَهُ وَأَذْبَرْتَهُ. قال القشيري: العَقْرُ كسف^(٣) عُرْقُوبِ البعير، ثم قيل
للنحر: عَقْر؛ لأن العَقْرَ سببُ النحر في الغالب.

وقد اختلف في عاقر الناقة على أقوال؛ أصحها ما في صحيح مسلم من حديث
عبد الله بن زَمْعَةَ قال: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ:
﴿إِذْ أُتِبَتَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]؛ انبعث لها رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي
زَمْعَةَ» وذكر الحديث^(٤).

وقيل في اسمه: قُدار بن سالف.

وقيل: إِنَّ مُلْكَهُمْ كَانَ إِلَى امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: مَلَكَا، فَحَسَدَتْ صَالِحًا لَمَّا مَالَ إِلَيْهِ

(١) في النسخ الخطية: عقارى. والمثبت من (م)، وهو الموافق لمجمل اللغة ٢/٦٢١ والكلام منه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١١. والغبيط: الرَّحْلُ، وهو للنساء، يشدُّ عليه اليهودج، واللسان (غبط).

(٣) في (ظ): كسر، وكذا في فتح القدير ٢/٢٢٠. وفي (م): كشف؛ وينظر تهذيب اللغة ١/٢١٥. قال
في اللسان (كسف): الكسف: قطع العرقوب... وكسف عرقوبه: قطع عصبته دون سائر الرَّجُلِ.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٥). وأخرجه أيضاً البخاري (٤٩٤٢)، وأحمد (١٦٢٢٢) والعارم: الخبيث الشرير.
النهاية (عرم). وأبو زَمْعَةَ المذكور: هو الأسود بن المطلب بن أسد، أحد المستهزئين، مات على كفره
بمكة، وهو جدُّ عبد الله بن زَمْعَةَ راوي الحديث. الفتح ٨/٧٠٦.

الناس، وقالت لامرأتين كان لهما خليلان يعشقانهما: لا تطيعاهما، واسألاهنا عَقْرَ الناقة، ففعلتا. وخرج الرجلان وألجأ الناقة إلى مَضِيق، ورمأها أحدهما بسهم، وقتلها. وجاء السَّقْبُ - وهو ولدها - إلى الصخرة التي خرجت الناقة منها فَرَعًا ثلاثاً، وانفجرت^(١) الصخرة، فدخل فيها؛ فيقال: إنه الدَّابة التي تخرج في آخر الزمان على الناس؛ على ما يأتي بيانه في النمل^(٢).

وقال ابن إسحاق: اتبع السَّقْبُ أربعة نَفَرٍ ممن كان عَقْرَ الناقة، ومِضدَع وأخوه ذَوَّاب، فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه، ثم جرَّه برجله فألحقه بأمه، وأكلوه معها^(٣). والأوَّلُ أصحُّ. وإنَّ صالحاً قال لهم: إنه بَقِيَّ من عمركم ثلاثة أيام، ولهذا رَعَا ثلاثاً. وقيل: عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ بَسَعَهُ رَهَقًا﴾ [النمل: ٤٨] على ما يأتي بيانه في «النمل»^(٤). وهو معنى قوله: ﴿فَأَدَّأُوا صَالِحًا فَنَقَطُوا مَقَرَّ﴾ [القمر: ٢٩]. وكانوا يشربون، فأعوزهم الماء ليمزجوا شرايبهم، وكان يوم لبن الناقة، فقام أحدهم وترصد الناقة^(٥) وقال: لأرِيحَنَّ الناسَ منها، فعقرها.

قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا. عَتَا يَعْتُو عُتْوًا، أي: استكبر. وتَعَتَّى فلان: إذا لم يُطع. والليل العاتي: الشديد الظلمة؛ عن الخليل^(٦). ﴿وَقَالُوا يَنْصَلِحُ اتِّبْنَا بِمَا تَعَدْنَا﴾ أي: من العذاب. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة^(٧). وقيل: كانت صيحةً شديدةً خلعت قلوبهم؛ كما في سورة هود في

(١) في (م): انفجرت.

(٢) عند تفسير الآية (٨٢) منها. وينظر عرائس المجالس ص ٧١.

(٣) العرائس ص ٧٢.

(٤) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٥) في (خ): للناس. وفي (ز) و(م): الناس، ولم تجود في (د) والمثبت من (ظ).

(٦) كتاب العين ٢/٢٢٦.

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/٣٥٠.

قصة ثمود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [٦٧] ^(١). يقال: رَجَفَ الشيءُ، يَرْجُفُ رَجْفًا وَرَجْفَانًا. وأرجفت الريحُ الشجرَ: حَرَّكَته ^(٢). وأصله: حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]. قال الشاعر:

ولمَّا رأيتُ الحَجَّ قد آنَ وَقْتُهُ وظلَّكَ مَطَايَا القومِ بالقومِ تَرْجُفُ ^(٣)

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم. وقيل: وُحِدَ على طريق الجنس، والمعنى: في دورهم. وقال في موضع آخر: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٦٧ و٩٤] أي: في منازلهم.

﴿جَنِيثِينَ﴾ أي: لاصقين بالأرض على رُكَبِهِم ووجوههم؛ كما يخثم الطائر، أي: صاروا خامدين من شدَّة العذاب. وأصل الجُثوم للأرنب وشبهها، والموضع مَجْثَمٌ. قال زهير:

بها العَيْنُ والآرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً وأطلاؤها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمٍ ^(٤)

وقيل: احترقوا بالصاعقة فأصبحوا مَيِّتِينَ، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ^(٥).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: عند اليأس منهم. ﴿وَقَالَ يَنْقُورٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾. يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم، ويحتمل أنه قاله بعد موتهم؛ كقوله

(١) في النسخ: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾. وهي من سورة الحجر الآية (٨٣)، وليست في سورة هود.

(٢) تهذيب اللغة ٤٢/١١ - ٤٣.

(٣) لم تقف عليه بهذا اللفظ، وذكر نحوه السمين في الدر المصون ٣٦٨/٥ ونسبه لابن أبي ربيعة؛ ولم تقف عليه في ديوانه، وينظر البحر المحيط ٣١٥/٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤٩/٣. والبيت في ديوان زهير ص ٥، وقال ثعلب شارحه: «العين»: البقر، الواحدة عيناء، والذكر أعين. و«الآرام»: الظباء البيض الخوالص البياض. و«خِلْفَةً»: إذا مضى فوج جاء آخر. و«الطَّلَا»: ولد البقرة، وولد الظبية الصغير. وقوله: «ينهضن من كل مجثم»: أراد أنهن يُنْمَنْنَ أولادهن إذا أرضعنهن، ثم يرعين، فإذا ظننَّ أنَّ أولادهن قد أنفدن ما في أجوافهن من اللبن؛ صَوَّتْنَ بأولادهن، فينهضن للأصوات ليشرين.

(٥) أخرجه أحمد (١٤١٦٠) من حديث جابر مرفوعاً، وأبو داود (٣٠٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً. والرجل هو أبو رغال.

عليه الصلاة والسلام لِقَتْلَى بَدْر: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» فقيل: أَتُكَلِّمُ هَؤُلاءِ الجِيفَ؟! فقال: «ما أنتم بأَسْمَعَ منهم، ولكنهم لا يَقْدِرُونَ على الجِواب»^(١). والأول أظهر؛ يدلُّ عليه: ﴿وَلَكِنَّ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ أي: لم تقبلوا نُصْحِي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِيهِ أَتَأْتُونَ الفَنَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ المَلَكِينَ﴾^(٨٥)

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِيهِ﴾ قال الفراء: لوط مشتق من قولهم: هذا أَلَيْطٌ بقلبي، أي: أَلِصَقٌ^(٢). وقال النحاس^(٣): قال الزجاج^(٤): زعم بعض النحويين - يعني الفراء - أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لُطَّت الحوض: إذا ملَّسْتَه بالطين. قال: وهذا غلط؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تُشْتَقُّ، كإسحاق، فلا يقال: إنه من السُّحْق، وهو البُعد.

وإنما صُرف «لوط» لِحِفَّتِه؛ لأنه على ثلاثة أحرف، وهو ساكنُ الوسط^(٥).

قال النقاش: «لوط» من الأسماء الأعجمية، وليس من العربية.

فأما لُطَّت الحوض، وهذا أَلَيْطٌ بقلبي من هذا، فصحيح. ولكن الاسم أعجمي،

كإبراهيم وإسحاق^(٦).

(١) أورده بهذا اللفظ الواحد في الوسيط ٣٨٥/٢. وأخرجه بنحوه أحمد (١٨٢)، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه أيضاً أحمد (٤٨٦٤)، والبخاري (١٣٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٠٢٠)، ومسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٢٦٣٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) لم تقف عليه في معاني القرآن للفراء، وذكره النحاس والزجاج، كما سيأتي.

(٣) في إعراب القرآن ١٣٧/٢.

(٤) في معاني القرآن ٣٥١/٢ - ٣٥٢.

(٥) الصحاح (لوط)، وتفسير الرازي ١٤/١٦٨.

(٦) هذا الكلام للزجاج، وهو تمة كلامه السابق.

قال سيبويه^(١): نُوحٌ وَلُوطٌ أسماءٌ أعجمية، إلا أنها خفيفة؛ فلذلك صُرِفَتْ.

بعثه الله تعالى إلى أمة تُسَمَّى سُدُومَ، وكان ابنُ أخِي إبراهيم^(٢). وَنَضَبُهُ إما

بـ «أرسلنا» المتقدمة^(٣) فيكون معطوفاً. ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى: واذكُر^(٤).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: إتيانَ الذُّكُورِ. ذكرها الله باسم

الفاحشة ليبينَ أنها زنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾

[الإسراء: ٣٢].

واختلف العلماء فيما يجب على مَنْ فعل ذلك، بعد إجماعهم على تحريمه، فقال

مالك: يُرْجَمُ؛ أَحْصَنَ أو لم يُحْصَن. وكذلك يُرْجَمُ المفعولُ به إن كان محتليماً. وروى

عنه أيضاً: يُرْجَمُ إن كان مُحْصَنًا، ويُحْبَسُ وَيُؤَدَّبُ إن كان غير مُحْصَن. وهو مذهب

عطاء والنخعي وابن المسيب وغيرهم^(٥). وقال أبو حنيفة: يُعَزَّرُ الْمُحْصَنُ وغيره؛

وروي عن مالك. وقال الشافعي: يحدُّ حَدَّ الزَّنى قياساً عليه.

احتجَّ مالكٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]. فكان ذلك

عقوبة لهم وجزاء على فعلهم.

فإن قيل: لا حُجَّةَ فيها لوجهين: أحدهما: أنَّ قوم لوط إنما عُوقبوا على الكفر

والتكذيب كسائر الأمم. الثاني: أنَّ صغيرهم وكبيرهم دخل فيها؛ فدلَّ على خروجها

من باب الحدود.

قيل: أمَّا الأوَّلُ فغَلَطٌ؛ فإنَّ الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصٍ

فأخذهم بها؛ منها هذه. وأمَّا الثاني؛ فكان منهم فاعلٌ، وكان منهم راضٍ، فعُوقب

(١) الكتاب ٣/ ٢٣٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤، وينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٤.

(٣) عند قوله تعالى: «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...» الآية (٥٩).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٧.

(٥) نقل عنهم ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٧٧٦ أن مذهبهم: الرجم أحسن أو يحسن.

الجميع؛ لسكوت الجماهير عليه. وهي حكمة الله وسنته في عباده. وَيَقِيْ أَمْرُ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْفَاعِلِينَ مُسْتَوْرًا. والله أعلم.

وقد رَوَى أبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي والدارقطني أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ». لفظ أبي داود وابن ماجه^(١). وعند الترمذي: «أَخَصْنَا أَوْ لَمْ يُحْصْنَا»^(٢).

وروى أبو داود والدارقطني عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية، قال: يُرْجَمُ^(٣).

وقد رُوِيَ عن أبي بكر الصديق ﷺ أَنَّهُ حَرَّقَ رَجُلًا يُسَمَّى الْفُجَاءَةَ حِينَ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ بِالنَّارِ^(٤). وهو رأيُ عليِّ بن أبي طالب، فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك، جمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه، فقال علي: إِنَّ هَذَا الذَّنْبَ لَمْ تَعْصِ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ صَنَعَ اللَّهُ بِهَا مَا عَلَّمْتُمْ، أَرَى أَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ. فاجتمع رأيُ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ. فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أَنْ يَحْرِقَهُ بِالنَّارِ، فَأَحْرَقَهُ^(٥). ثم أحرقهم ابنُ الزبير في زمانه^(٦). ثم

(١) سنن أبي داود (٤٤٦٢)، وسنن ابن ماجه (٢٥٦١)، وسنن الترمذي (١٤٥٦)، وسنن النسائي الكبرى (٧٢٩٧)، وسنن الدارقطني (٣٢٣٤)، وهو في مسند أحمد (٢٧٣٢) كلهم من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به. ولفظ النسائي: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ثَلَاثًا. قَالَ الْبَخَارِيُّ - كَمَا فِي الْعِلَلِ الْكَبِيرِ لِلتِّرْمِذِيِّ ٦٢٢/٢ -: عَمْرُو بْنُ أَبِي عَمْرٍو صَدُوقٌ، وَلَكِنْ رَوَى عَنْ عَكْرَمَةَ مَنَاكِيْر. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَلَمْ يَذْكُرْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ عَكْرَمَةَ. وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ: عَمْرُو ثَقَّةٌ، يُنْكَرُ عَلَيْهِ حَدِيثُ عَكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ ٢٨٢/٣. وَيَنْظُرُ الْكَلَامُ السَّالِفُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٧٧٧/٢.

(٢) لم نقف على هذا اللفظ عند الترمذي، وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه عاصم بن عمر العمري، فيما ذكره المحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٥٥/٤، وقال: لا يصح، وعاصم متروك.

(٣) سنن أبي داود (٤٤٦٣)، وسنن الدارقطني (٣٢٣٥)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٧٢٩٨).

(٤) المحرر الوجيز ٤٢٥/٢.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٣٢/٨.

(٦) ذكره ابن المنذر في الإشراف ٣٦/٢.

أحرقهم هشام بن الوليد. ثم أحرقهم خالد القسريُّ بالعراق^(١).

وروي أنّ سبعةً أخذوا في زمن ابن الزبير في لواط، فسأل عنهم، فوجد أربعةً قد أحصنوا، فأمر بهم، فخرجوا بهم^(٢) من الحرم، فرجموا بالحجارة حتى ماتوا، وحدّ الثلاثة؛ وعنده ابنُ عباس وابنُ عمر فلم يُنكرَا عليه^(٣). وإلى هذا ذهب الشافعي^(٤).

قال ابن العربي: والذي صار إليه مالكٌ أحقُّ، وهو أصحُّ سنداً وأقوى مُعتمداً. وتعلّق الحنفيون بأن قالوا: عقوبةُ الزنى معلومة، فلما كانت هذه المعصيةً غيرها، وجب ألا تُشاركها في حدّها، ويأثرون في هذا حديثاً: «مَن وضع حدّاً في غير حدّ، فقد تعدّى وظلّم»^(٥). وأيضاً فإنه وطئ^(٦) في فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب، فلم يتعلّق به حدّ^(٧).

الثالثة: فإن أتى بهيمةً، فقد قيل: لا يُقتل هو ولا البهيمة. وقيل: يقتلان؛ حكاها ابنُ المنذر^(٨) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن. وفي الباب حديثٌ رواه أبو داود والدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن وقع على بهيمةٍ فاقتلوه واقتلوا البهيمةَ معه». فقلنا لابن عباس: ما شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك إلا أنه كره أن يُؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل^(٩).

(١) المحلى ٣٨١/١١. وخالد القسري: هو خالد بن عبد الله الدمشقي، أبو الهيثم، أمير العراقيين لهشام ابن الوليد، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٤٢٥/٥.

(٢) في النسخ: فخرج بهم، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٣٣/٨.

(٤) لم نقف عليه، وسلف أن الشافعي يقول فيمن فعل ذلك: يُحد حدّ الزاني، وهو كذلك في الإشراف ٣٦/٢، والاستذكار ٧٨/٢٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٧٧٦/٢.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٢٧/٨، وقال: المحفوظ هذا الحديث مرسل.

(٦) في (م): وطء.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧٦/٢-٧٧٧.

(٨) في الإشراف ٣٧/٢.

(٩) سنن أبي داود (٤٤٦٤)، وسنن الدارقطني (٣٢٣٧)، وأخرجه الترمذي (١٤٥٥)، والنسائي في الكبرى (٧٣٠٠). والمرفوع منه عند أحمد (٢٤٢٠).

قال ابن المنذر^(١): **إِنَّ يَكُ الْحَدِيثُ ثَابِتًا، فَالْقَوْلُ بِهِ يَجِبُ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ، فَلَيْسَتْغْفِرَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرًا، وَإِنْ عَزَّرَهُ الْحَاكِمُ كَانَ حَسَنًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.**

وقد قيل: **إِنَّ قَتَلَ الْبَهِيمَةَ لثَلَا تُلْقَى خَلْقًا مُشَوَّهًا؛ فَيَكُونُ قَتْلُهَا مَصْلِحَةً لِهَذَا الْمَعْنَى مَعَ مَا جَاءَ مِنَ السُّنَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.**

وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال: ليس على الذي زنى بالبهيمة حدٌّ. قال أبو داود: وكذا قال عطاء. وقال الحَكَم: أرى أن يجلد ولا يبلغ به الحد. وقال الحسن: هو بمنزلة الزاني^(٢).

وقال الزُّهْرِيُّ: يُجْلَدُ مِثَّةً؛ أَحْصَنَ أَوْ لَمْ يُحْصَن. وقال مالك والثَّوْرِيُّ وأحمدُ وأصحاب الرأي: يعزَّر. ورُوي عن عطاء والنَّخَعِيِّ والحَكَم. واختلفت الروايات^(٣) عن الشافعي، وهذا أشبه على مذهبه في هذا الباب^(٤). وقال جابر بن زيد: يُقام عليه الحد، إلا أن تكون البهيمة له.

الرابعة: قوله تعالى: **﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلْأِينِ﴾** «مِن» لاستغراق الجنس، أي: لم يكن اللواط في أمة قبل قوم لوط. والمُلْحِدُونَ يزعمون أن ذلك كان قبلهم. والصدق ما ورد به القرآن.

وحكى النقَّاشُ أن إبليس كان أضلَّ عملهم، بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان ينكح بعضهم بعضاً. قال الحسن^(٥): كانوا يفعلون ذلك بالغرباء^(٦)، ولم يكن يفعل به بعضهم ببعض.

(١) في الإشراف ٣٧/٢ - ٣٨.

(٢) سنن أبي داود (٤٤٦٥)، وأخرجه الترمذي (١٤٥٥).

(٣) في (م): الرواية.

(٤) في الإشراف ٣٧/٢ (والكلام منه): واشتبه عليٌّ مذهب الشافعي في هذا الباب، لأن الروايات قد اختلفت عنه. اهـ.

(٥) في (ز) و(د): النحاس.

(٦) المحرر الوجيز ٤٢٤/٢.

وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ»^(١). وقال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة، تفسيراً للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه؛ لأنه يقطع ما بعده ممّا قبله. وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام^(٣) الذي معناه التوبيخ، وحسن ذلك؛ لأن ما قبله وبعده كلام مستقل.

واختار الأول أبو عبيد والكسائي وغيرهما؛ واحتجوا بقوله عز وجل: ﴿أَفَأَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ولم يقل: أفهم؟ وقال: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولم يقل: أنقلبتم؟ وهذا من أقبح العلط؛ لأنهما شبها شيئين بما لا يشبهان؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد، كالمبتدأ والخبر؛ فلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان. فلا يجوز: أفإن ميت أفهم؟ كما لا يجوز: أزيد أمطلق؟ وقصة لوط عليه السلام فيها جملتان، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما. هذا قول الخليل وسيبويه، واختاره النحاس ومكي وغيرهما^(٤).

﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر، أي: تشتهونهم شهوة. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال^(٥).

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٦٣)، وأخرجه أحمد (١٥٠٩٣)، والترمذي (١٤٥٧) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٣٢. وسلف ١١٩/٧.

(٣) السبعة ص ٢٨٥، والتيسير ص ١١١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٣٧/٢ - ١٣٨، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٦٨/١.

(٥) تفسير الرازي ١٦٨/١٤.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ نظيره: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا تَمُرُّ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيرِينَ ﴿٨٣﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي: لوطاً وأتباعه. ومعنى «يَتَطَهَّرُونَ» عن الإتيان في هذا المآتى. يقال: تطهّر الرجل، أي: تنزّه عن الإثم. قال قتادة: عابوهم - والله - بغير عيب^(١).

﴿مِنَ الْغَدِيرِينَ﴾ أي: الباقيين في عذاب الله، قاله ابن عباس وقتادة^(٢). غَبَرَ الشيء إذا مَضَى، وَغَبَرَ إذا بَقِيَ، وهو من الأضداد. وقال قوم: الماضي: عابر، بالعين غير مُعْجَمَة. والباقي: غابر، بالغين معجمة. حكاه ابن فارس في «المجمل»^(٣). وقال الزجاج^(٤): «مِنَ الْغَابِرِينَ» أي: من الغائبين عن النجاة، وقيل: لطول عمرها.

قال النحاس: وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى: من المُعَمَّرِينَ؛ أي: إنها قد هَرِمَتْ. والأكثر في اللغة أن يكونَ الغابِرُ الباقي، قال الراجز:
فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَنُقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾
سَرَى لُوطٌ بِأَهْلِهِ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ: ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، ثم أمر جبريلَ

(١) أخرجه الطبري ٣٠٧/١٠.

(٢) أخرجه الطبري ٣٠٩/١٠.

(٣) ٦٩٠/٣.

(٤) في معاني القرآن ٣٥٣/٢.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥١/٣، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢١٨/١. والرجز للمجاج، وهو في ديوانه ص ٦٧. قال شارحه الأصمعي: فما ونى: فما فتر.

عليه السلام، فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم جعل عاليها سافلها، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل، قيل: على من غاب منهم. وأدرك امرأة لوط - وكانت معه - حجرًا فقتلها. وكانت - فيما ذكر - أربع قرى. وقيل: خمس، فيها أربع مئة ألف^(١). وسيأتي في سورة هود^(٢) قصة لوط بأبين من هذا، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْثُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرْتُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ. وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في «مدين»: اسم بلد وقطر. وقيل: اسم قبيلة، كما يقال: بكر وتميم. وقيل: هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام. فمن رأى أن «مدين» اسم رجل لم يصرفه؛ لأنه معرفة أعجمي. ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض، فهو آخرى بأن لا يصرفه. قال المهدوي: ويروى أنه كان ابن بنت لوط. وقال مكّي: كان زوج بنت لوط^(٣).

(١) عرائس المجالس ص ١٠٧ - ١٠٨، والمححر الوجيز ٤٢٦/٢. وما ذكره المصنف رحمه الله عن اقتلاع جبريل لمدائنهم ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة... ليس فيه نص صحيح.

(٢) عند تفسير الآيات (٧٧ - ٨٣).

(٣) المححر الوجيز ٤٢٦/٢.

واختلف في نسبه، فقال عطاء وابنُ إسحاق وغيرهما: وشعيب: هو ابن ميكيل ابن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. وكان اسمه بالسريانية: يثرون^(١). وأمه ميكائيل بنتُ لوط. وزعم الشرقيُّ بن قُطامي^(٢) أنَّ شعيباً: ابنُ عَيْفَا بنِ يُوْبَبَ^(٣) بن مَدين بن إبراهيم. وزعم ابنُ سَمعان^(٤) أنَّ شعيباً: ابن جزي بن يشجر^(٥) بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وشُعيب تصغير شَعْب أو شِغْب^(٦). وقال قتادة: هو شُعيب بنُ يُوْبَبَ. وقيل: شعيب بنُ صيفون^(٧) بن عيفا بن ثابت بن مَدين بن إبراهيم. والله أعلم. وكان أعمى؛ ولذلك قال قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَمِيحًا﴾^(٨) [هود: ٩١]. وكان يقال له: خطيبُ الأنبياء، لِحُسْنِ مُراجعتِهِ قَوْمَهُ^(٩). وكان قَوْمُهُ أَهْلَ كَفْرِ بِاللَّهِ وَيَخْسِ لِلْمَكِّيَالِ وَالْمِيزَانِ.

(١) في النسخ: بيروت، والمثبت من تفسير الطبري ٥٥٤/١٢ (تحقيق الشيخ محمود شاكر رحمه الله)، والكامل لابن الأثير ١٥٧/١، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٤٢٧/١ (وفي مطبوعه: بثرون) وقال: وفي هذا نظر.

(٢) الوليد بن الحصين، والشرقي لقبه، له نحو عشرة أحاديث فيها مناكير، كان عالماً بالنسب وافر الأدب، ضم المنصور إليه المهدي ليأخذ من أدبه. ميزان الاعتدال ٢٦٨/٢.

(٣) في (خ): ثوب، وفي معاني القرآن للنحاس ١٠١/٥ (والكلام منه): نوب، والمثبت من (ز) و(ظ) و(م)، وكذلك قيدها السيوطي في الدر المنثور ١٠٢/٣ فقال: يوب بوزن جعفر، أوله مثناة تحتية وبعد الواو موحدتان.

(٤) عبد الله بن زياد بن سليمان بن سَمعان المخزومي، أبو عبد الرحمن المدني، مولى أم سلمة، كذبه مالك، وقال أحمد: متروك. تهذيب التهذيب ٣٣٦/٢.

(٥) في (ز) و(ظ): حره بن يسحر، وفي (خ): جزه بن يسحر، والمثبت من (م) ومعاني القرآن للنحاس. (٦) في تكملة الصحاح وتاج العروس (شعب): قال الصاغاني: شعيب يمكن أن يكون تصغير شَعْب أو أشعب.

(٧) في النسخ: صفوان، والمثبت من تاريخ الطبري ٣٢٥/١، وعرائس المجالس ص ١٦٧. (٨) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٦٨/٢ من قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٩) أخرجه الطبري في تاريخه ٣٢٧/١ والحاكم في المستدرک ٥٦٨/٢ مرسلًا. وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٤٢٩/١ من حديث ابن عباس، وفيه إسحاق بن بشر، وهو متروك.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بيان، وهو مجيء شعيب بالرسالة. ولم يذكر له معجزة في القرآن^(١). وقيل: معجزته - فيما ذكر الكسائي - في قصص الأنبياء.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس: النقص. وهو يكون في السلعة بالتعيب والتزهد فيها، أو المُخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل والثقصان منه^(٢). وكلُّ ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهِّي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على السنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ عطف على «ولا تبخسوا». وهو لفظ يعمُّ دقيق الفساد وجليله.

قال ابن عباس: كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يعمل فيها بالمعاصي، وتُسْتَحَلُّ فيها المحارم، وتُسْفَكُ فيها الدماء. قال: فذلك فسادها. فلما بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله؛ صلحت الأرض. وكلُّ نبي بُعث إلى قومه فهو صلاحهم^(٣).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصد عن الطريق الذي يؤدي إلى طاعة الله، وكانوا يُوعِدون العذاب من آمن.

واختلف العلماء في معنى قعودهم على الطريق^(٤) على ثلاثة معان: قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المُفْضِيَةِ إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما

(١) تفسير أبي الليث ٥٥٥/١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧٨/٢.

(٣) لم نقف عليه، وذكر أبو الليث في تفسيره ٩٦/١ نحوه، وسلف ٣٠٦/١ - ٣٠٧.

(٤) في (م): الطرق.

كانت قريشٌ تفعله مع النبي ﷺ. وهذا ظاهرُ الآية.

وقال أبوهريرة: هذا نهى عن قطع الطريق، وأخذ السلب، وكان ذلك من فعلهم^(١). ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ليلة أُسري بي خشبةً على الطريق، لا يمرُّ بها ثوبٌ إلا شقَّته، ولا شيءٌ إلا خرقته، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مثلٌ لقوم من أمتك يقعدون على الطريق، فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ الآية^(٢). وقد مضى القول في اللصوص والمحاربين^(٣)، والحمد لله. وقال السديُّ أيضاً كانوا عَشَّارين متقبلين^(٤).

قال علماؤنا^(٥): ومثلهم اليوم هؤلاء المكاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف الماليَّة بالقهر والجبر؛ فضمَّنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكوات^(٦) والمواريت والملاهي، والمترتبون في الطرق، إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود، وعمل به في سائر البلاد. وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غصبٌ وظلمٌ وعسفٌ على الناس، وإذاعةٌ للمنكر وعملٌ به، ودوامٌ عليه وإقرارٌ له، وأعظمه تضمينُ الشرع والحكم للقضاء، فإننا لله وإننا إليه راجعون، لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدين إلا اسمه. يعُضد هذا التأويل ما تقدَّم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس.

قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ الضمير في «به» يحتمل أن يعودَ على اسم الله تعالى، وأن يعودَ على^(٧) شعيب في قول مَنْ رأى القعودَ على الطريق للصدِّ، وأن

(١) المحرر الوجيز ٤٢٧/٢، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ٣١٣/١٠ - ٣١٤.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٤/١٠، من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) ١٤٨/٦.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٤/١٠، دون قوله: متقبلين.

(٥) قوله: قال علماؤنا، ليس في (م).

(٦) في (م): الزكاة.

(٧) في (م): إلى.

يعود على السبيل. ﴿عَوَجًا﴾ قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين في المعاني، وفتحها في الأجرام^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ﴾ أي: كثر عددكم، أو كثرتم بالبغي بعد الفقر. أي: كنتم فقراء فأغناكم.

﴿فَأَصْبِرُوا﴾ ليس هذا أمراً بالمقام على الكفر، ولكنه وعيد وتهديد^(٢). وقال: ﴿وَأِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ فذكر على المعنى، ولو راعى اللفظ قال: كانت^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَانُوا مِنْكُمْ كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ تقدم معناه^(٤). ومعنى «أو نعودن في ملتنا» أي: لتصيرن إلى ملتنا. وقيل: كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر، أي: لتعودن إلينا كما كنتم من قبل^(٥).

قال الزجاج^(٦): يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء؛ يقال: عاد إلي^(٧) من فلان

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٢٧، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٢١٩ - ٢٢٠، ومعاني القرآن للزجاج ٢/٣٥٤.

(٢) تفسير أبي الليث ١/٥٥٥، والمحرر الوجيز ٢/٤٢٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٣٩.

(٤) تقدم معنى الملا ٤/٢٢٨، ومعنى الاستكبار ١/٤٤١ - ٤٤٢.

(٥) تفسير البغوي ٢/١٨١.

(٦) في معاني القرآن ٢/٣٥٥، وينظر زاد المسير ٣/٢٣١.

(٧) في معاني القرآن للزجاج وزاد المسير: علي.

مكروه، أي: صار، وإن لم يكن سبقه مكروهٌ قبل ذلك، أي: لَحِقَنِي ذلك منه. فقال لهم شعيب: «أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» أي: ولو كنا كارهين تُجبروننا عليه؟! أي: على الخروج من الوطن، أو العَوْدُ فِي مِلَّتِكُمْ. أي: إن فعلتم هذا أتيتم عظيمًا.

﴿قَدْ أَفْرَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِيثَاقًا﴾ إياسُ من العَوْدِ إِلَى مِلَّتِهِمْ. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال أبو إسحاق الزجاج^(١): أي: إلا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، قال: وهذا قول أهلِ السُّنَّةِ أي: وما يقع منَّا العَوْدُ إِلَى الكُفْرِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ. فالاستثناء منقطع^(٢).

وقيل: الاستثناء هنا على جهة التسليمِ لله عزَّ وجلَّ؛ كما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]. والدليل على هذا أن بعده ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾^(٣).

وقيل: هو كقولك: لا أكلمك حتى يَبْيَضَّ الغراب، وحتى يلبجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط. والغرابُ لا يَبْيَضُّ أبدأ، والجمل لا يلبجُ في سَمِّ الخِيَاط^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: عِلْمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ. «عِلْمًا» نصب على التمييز.

وقيل: المعنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي: في القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا، بل نخرجُ من قريبتكم مهاجرين إلى غيرها. «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» رَدْنَا إِلَيْهَا^(٥). وفيه بُعد؛ لأنه يقال: عاد للقرية، ولا يقال: عاد في القرية.

(١) في معاني القرآن ٢/٣٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/١٣٩.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/٢٩٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٥.

(٤) قوله: في سَمِّ الخِيَاط، من (م). وذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٢٨، وقال: هذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه.

(٥) تفسير الرازي ١٤/١٧٨، ومجمع البيان ٩/١١٨ - ١١٩.

قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا. وقد تقدّم في غير موضع^(١). ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة: بعثه الله إلى أمتين: أهل مدين وأصحاب الأيكة^(٢).

قال ابن عباس: وكان شعيب كثير الصلاة، فلما طال تمادي قومه^(٣) في كفرهم وغيبهم، ويَس من صلاحهم، دعا عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾. فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم بالرجفة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ أَخْبَرُوكُمْ أَنَّكُمْ لَخٰسِرُونَ ﴿٩٥﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٦﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٩٧﴾ فَنَوَلَّيْنَا عَنْهُمْ بِالْعَقْبِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مَدَنًا مِّن دُونِهَا لِيَنْظُرُوا أَن يُغْنَوْا فِيهَا أَمْ لَمْ يُغْنَوْا فِيهَا أَن يُكَرِّهُوا إِلَيْنَا الْخٰسِرُونَ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: قالوا لمن دونهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ أَخْبَرُوكُمْ﴾ أي: ها لكون. ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة، وقيل: الصيحة. وأصحاب الأيكة أهلكوا بالظلة، على ما يأتي^(٥).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ قال الجرجاني: قيل: هذا كلام مستأنف؛ أي: الذين كذبوا شعيباً صاروا كأنهم لم يزالوا موتى. و«يَغْنَوْا»: يقيموا؛ يقال: غَنَيْتُ بالمكان: إذا أقمت به. و«غَنِي الْقَوْمُ» في دارهم، أي: طال

(١) ٢٩٠/٥ - ٢٩٢.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ٣٢٧/١، وأخرجه في التفسير ٣٢٢/١٠ من قول السدي. قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٤٣٨/١: ومن زعم من المفسرين قتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقولُه ضعيف.

(٣) في (خ): فلما طال تماديهم.

(٤) عرائس المجالس ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٥) في تفسير الآيات (١٧٦ - ١٨٩) من سورة الشعراء.

مَقَامُهُمْ فِيهَا. وَالْمَعْنَى: الْمَنْزِل، وَالْجَمْعُ الْمَعَانِي (١). قَالَ لَيْبَدٌ (٢):
وَعَنَيْتُ سَبْتًا (٣) قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودٌ (٤)
وَقَالَ حَاتِمٌ طَيِّءٌ:

عَنِينَا (٥) زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِكَ وَالغِنَى [كَمَا الدَّهْرُ فِي أَيَامِهِ العُسْرُ وَالْيُسْرُ]
[كَسِينَا صُرُوفَ الدَّهْرِ لِينًا وَغِلْظَةً] وَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَأْسِيهِمَا (٦) الدَّهْرُ
فَمَا زَادَنَا بِأَوْ (٧) عَلَى ذِي قَرَابَةِ غِنَانًا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الفَقْرُ

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَيْعًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ابتداءً خطاب، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ، وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه. ولما قالوا: من أتبع شعيباً خاسر، قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول. ﴿فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَفَرُونَ﴾ أي: أحزن. أسيئتُ على الشيء آسى آسى، وأنا آس (٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْوَءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فيه إضمار، وهو: فكذب أهلها إلا

(١) تهذيب اللغة ٢٠٢/٨، وتفسير البغوي ١٨٢/٢.

(٢) في ديوانه ص ٣٥.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): سبأ، وفي (خ): بيتاً، وهو تحريف، والمثبت من الديوان ومصادر البيت.

(٤) قال الطوسي شارح الديوان: غنيتُ: عشْتُ. سبتاً: دهرأ. ويقال: إن السبت ثمانون سنة. داحس: فرس. اللجوج: العاصية.

(٥) في الديوان المطبوع ص ٥١: عُنيْنَا، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٦) في (م): بكأسهما.

(٧) في النسخ: بغياً، والمثبت من الديوان، والبأو: الكبر والفخر. ينظر الخزانة ٢١٣/٤ - ٢١٤.

(٨) مجمل اللغة ٩٦/١.

أخذناهم ﴿وَالْبَاسَاءَ وَالضَّرَّاءَ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ تقدم القول فيه ^(١).

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيْنَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: أبدلناهم بالجذب خضباً ^(٢). ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا، عن ابن عباس ^(٣). وقال ابن زيد: كثرت أموالهم وأولادهم ^(٤). وعفا: من الأضداد. عفا: كثُر. وعفا: دَرَس ^(٥). أعلم الله تعالى أنه أخذهم بالشدة والرِّخاء فلم يزدجروا ولم يشكروا. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فنحن مثلهم. ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بِقُنَّةٍ﴾ أي: فجأة؛ ليكون أكثر حَسْرَةً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ يقال للمدينة: قرية؛ لاجتماع الناس فيها. من: قَرَيْتُ الماء: إذا جمعته. وقد مضى في «البقرة» مستوفى ^(٦). ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَأَتَّقُوا﴾ أي: الشُّرك. ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: المطر والنبات ^(٧). وهذا في أقوامٍ على الخصوص جرى ذِكْرُهُمْ. إذ قد يُمتحن المؤمنون بضيق العيش، ويكونُ تكفيراً لذنوبهم. ألا ترى أنه أخبر عن نوحٍ إذ قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١]. وعن هود: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ بِرُءُوسِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]. فوعدهم المطر والخضب على التخصيص. يدلُّ عليه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كَذَّبُوا الرُّسُلَ، والمؤمنون صدَّقوا، ولم يكذبوا.

(١) ٦٣ - ٦٢/٣ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/٥٥٦ - ٥٥٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٠/٣٣٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٠/٣٣٠ من قول مجاهد.

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص ٨٦ .

(٦) ١٢٢/٢ .

(٧) تفسير أبي الليث ١/٥٥٧ ، وتفسير البغوي ٢/١٨٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْمِبُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف^(١)، نظيره: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والمراد بالقرى مكة وما حولها؛ لأنهم كذبوا محمداً ﷺ. وقيل: هو عامٌ في جميع القرى. ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا. ﴿بَيِّنًا﴾ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾^(٢).

﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ قرأ^(٣) الجزيّان وابنُ عامر بإسكان الواو للعطف^(٤)، على معنى الإباحة؛ مثل: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّمَا آؤُ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، جالس الحسن أو ابن سيرين. والمعنى: أو آمنوا هذه الضروب من العقوبات، أي: إن أمتهم ضرباً منها لم تأمنوا الآخر. ويجوز أن يكون «أو» لأحد الشيتين، كقولك: ضربت زيداً أو عمراً. وقرأ الباقون بفتحها بهمزة بعدها. جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، نظيره ﴿أَوْ كَلِمًا عَلَيْهِدُوا عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠].

ومعنى ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْمِبُونَ﴾ أي: وهم فيما لا يُجدي عليهم؛ يقال لكلُّ من كان فيما يضرُّه ولا يُجدي عليه: لاعب، ذكَّره النحاس^(٥).

وفي الصحاح: اللَّعِبُ معروف، واللَّعْبُ مثله، وقد لعب يلعب. وتَلَعَّبَ: [لَعِبَ]

(١) قال الزمخشري في كشافه ٩٨/٢: فإن قلت: ما المعطوف عليه، ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: «فأخذناهم بغتة»، وقوله: «ولو أن أهل القرى» إلى «يكسبون» وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء؛ لأن المعنى: فعلوا وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيئاتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟.

(٢) الوسيط ٣٨٩/٢، وتفسير البغوي ١٨٣/٢.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): قرأه.

(٤) الجزيّان: ابن كثير ونافع، وقرأ ورش على أصله بإلقاء حركة الهمزة على الواو. السبعة ص ٢٨٦-٢٨٧، والتيسير ص ١١١، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٤٦٨/١ - ٤٦٩.

(٥) في معاني القرآن ٥٨/٣.

مرة بعد أخرى. ورجلٌ تلعبه: كثير اللُّعب، والتَّلعب - بالفتح - المصدر. وجارية لَعُوبٌ^(١).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: عذابه وجزاءه على مكْرهم. وقيل: مكْرُه: استدراجه بالنعمة والصُّحة^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: يُبَيِّن. ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ يريد كفارة مكة ومن حولهم. ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾ أي: أخذناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بكفرهم وتكذيبهم. ﴿وَنَطْبَعُ﴾ أي: ونحن نطبع؛ فهو مستأنف. وقيل: هو معطوف على أصبنا، أي: نصيبهم ونطبع؛ فوقع الماضي مَوْقَع المستقبل^(٥).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآهَا وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ أي: هذه القرى التي أهلكتها، وهي قري [قوم] نوح وعاد ولوط وهود^(٤) وشُعَيْبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرِ. ﴿نَقِصُ﴾ أي: نتلو. ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآهَا﴾

(١) الصحاح (لعب)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الوسيط ٢/٣٩٠، وتفسير البغوي ٢/١٨٤.

(٣) الوسيط ٢/٣٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٢/٣٦١.

(٤) كذا في النسخ: هود، ولعل الصواب: وشمود. وينظر تفسير البغوي ٢/١٨٤، وتفسير الرازي

١٨٨/١٤، وما بين حاصرتين منهما.

أي: من أخبارها. وهي تسليّة للنبيّ عليه الصلاة والسلام والمسلمين.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم؛ قاله مجاهد. نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقال ابن عباس والرَّبِيع: كان في عِلْمِ اللّهِ تعالى يومَ أخذ عليهم الميثاقَ أنهم لا يؤمنون بالرُّسُلِ.

﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يريدُ يومَ الميثاقِ حينَ أخرجهم من ظُهرِ آدمَ، فأمنوا كَرهاً لا طوعاً. قال السُّدِّيُّ: آمنوا يومَ أخذ عليهم الميثاقَ كَرهاً، فلم يكونوا ليؤمنوا الآنَ حقيقةً. وقيل: سألو المعجزات، فلما رآوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من قبل رؤية المعجزات^(١). نظيره: ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوْلَ مَرَقٍ﴾^(٢) [الأنعام: ١١٠].

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثلَ طَبْعِهِ على قلوب هؤلاء المذكورين، كذلك يطبعُ اللّهُ على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتْسِقِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾:

«من» زائدة، وهي تدلُّ على معنى الجنس؛ ولولا «من» لجاز أن يُتوهمَ أنه واحدٌ في المعنى^(٤). قال ابن عباس: يريد العهدَ المأخوذَ عليهم وقتَ الذرِّ. ومن نقضَ العهدَ قيل له: إنه لا عهدَ له، أي: كأنه لم يعهد. وقال الحسن: العهدُ الذي عُهدَ إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً^(٥). وقيل: أراد أن الكفارَ مُنقسمون، فالأكثرُ منهم من لا أمانةَ له ولا وفاء، ومنهم من له أمانةٌ مع كُفْرِهِ وإن قُتلوا، رُوي

(١) في (م): المعجزة.

(٢) زاد المسير ٢٣٦/٣، وتفسير الرازي ١٨٨/١٤، وأخرج الأقوال السالفة بنحوها الطبري ٢٣٧/١٠ - ٢٣٨.

(٣) تفسير البغوي ١٨٤/٢ - ١٨٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦٠/٣.

(٥) أورد هذين القولين ابن الجوزي في زاد المسير ٢٣٦/٣.

عن أبي عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. ﴿مُوسَىٰ﴾ أي: موسى بن عمران. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بمعجزاتنا. ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا ولم يصدقوا بالآيات^(٢). والظلم: وضع الشيء في غير موضعه. قوله تعالى: ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخر أمرهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٤﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٥﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٦﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٠٩﴾ قَالُوا آتِنَا آيَاتِهِ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٠﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١١﴾﴾

«حَقِيقٌ عَلَيَّ» أي: واجب. ومن قرأ «عَلَىٰ أَنْ لَا»، فالمعنى: حريصٌ على ألا أقول^(٣). وفي قراءة عبد الله: «حَقِيقٌ أَنْ لَا أَقُولُ» بإسقاط «على»^(٤). وقيل: «على» بمعنى الباء، أي: حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولُ. وكذا في قراءة أبي والأعمش: «بأن لا

(١) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/٢٢٣: مجازه: وما وجدنا لأكثرهم عهداً، أي: وفاة ولا حفيظة.

و«من» من حروف الزوائد. وينظر معاني القرآن للنحاس ٣/٦٠.

(٢) تفسير الطبري ١٠/٣٤١.

(٣) مجاز القرآن ١/٢٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٢/١٤١. والقراءة الأولى لنافع، والثانية للباقيين.

السبعة ص ٢٨٧، والتيسير ص ١١١.

(٤) الكشاف ٢/١٠٠، والبحر المحيط ٤/٣٥٦.

أقول^(١). كما تقول: رميت بالقوس وعلى القوس. فـ «حَقِيقٌ» على هذا بمعنى محقوق^(٢).

ومعنى ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بِنُوحًا إِسْرَءِيلَ﴾ أي: خَلِّهم. وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة. ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ﴾ يُستعمل في الأجسام والمعاني، وقد تقدّم^(٣). والشعبان: الحية الضخم، الذكّر، وهو أعظم الحيات^(٤). ﴿مُئِينٌ﴾ أي: حية لا تَبَسَ فيها.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها وأظهرها. قيل: من جيبه أو من جناحه؛ كما في التنزيل: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوِّطٍ﴾ [النحل: ١٢] أي: من غير برص. وكان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأوّل. قال ابن عباس: كان ليده نورٌ ساطع يُضيء ما بين السماء والأرض^(٥). وقيل: كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تلوح، فإذا ردها عادت إلى مثل سائر يديه^(٦). ومعنى ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بالسحر. ﴿مَنْ أَنْصَبَكُمْ﴾ أي: من ملّكم معاشر القبط، بتقديمه بني إسرائيل عليكم^(٧).

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: قال فرعون: فماذا تأمرون؟ وقيل: هو من قول المَلَأَ، أي: قالوا لفرعون وحده: فماذا تأمرون؟ كما يُخاطب الجبارون والرؤساء: ما تَرُونَ في كذا. ويجوز أن يكون: قالوا له ولأصحابه^(٨). و«ما» في موضع رفع، على أن «ذا» بمعنى الذي. وفي موضع نصب، على أن «ما» و«ذا» شيء واحد^(٩).

(١) تفسير البغوي ١٨٥/٢، ونسب الفراء في معاني القرآن ٣٨٦/١ وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٥ هذه القراءة لابن مسعود.

(٢) تفسير الرازي ١٤/١٩١ - ١٩٢.

(٣) ٣٥٦/٥ - ٣٥٧.

(٤) الوسيط ٢/٣٩٢.

(٥) ذكره الرازي في تفسيره ١٤/١٩٦.

(٦) تفسير الطبري ١٠/٣٤٦ - ٣٤٧، والمحرم الوجيز ٢/٤٣٦.

(٧) الوسيط ٢/٣٩٢ - ٣٩٣.

(٨) زاد المسير ٣/٢٣٨، وتفسير الرازي ١٤/١٩٧.

(٩) مشكل إعراب القرآن ١/٢٩٨.

«قالوا أَرَجِه» قرأ أهل المدينة وعاصمٌ والكِسائيُّ بغير همز^(١)، إِلَّا أَنْ وَرَشَاءُ
والكِسائيُّ أَشْبَعَا كسرةَ الهاء. وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة. وهما
لغتان؛ يقال: أَرَجَاتُهُ وَأَرَجِيَّتُهُ، أي: أَخْرَتُهُ. وكذلك قرأ ابنُ كثير وابنُ مَحْيِصِن
وهشام؛ إِلَّا أَنَّهُمْ أَشْبَعُوا ضَمَّةَ الهاء. وقرأ سائرُ أهلِ الكوفة: «أَرَجِه» بإسكان
الهاء^(٢). قال الفراء^(٣): هي لغةٌ للعرب، يَفْقُونَ على الهاء المَكْتَبِيَّ عنها في الوصل إذا
تحرَّك ما قبلها، وكذا: هذه طلحةٌ قد أقبلت. وأنكر البصريُّون هذا^(٤).

قال قتادة: معنى «أَرَجِه»: إِخْبِسُهُ. وقال ابن عباس: أَخْرَهُ^(٥). وقيل: «أَرَجِه»
مأخوذٌ من رجا يرجو؛ أي: أَظْمِغُهُ وَدَعَّهُ يَرْجُو؛ حكاه النحاس^(٦) عن محمد بن
يزيد؛ وكسرُ الهاء على الإِتْبَاع. ويجوز ضَمُّها على الأصل. وإسكانها لَحْنٌ لا يجوز
إِلَّا فِي شذوذٍ من الشَّعر^(٧).

﴿وَأَخَاهُ﴾ عطف على الهاء. ﴿حَشِيرِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزم؛ لأنه
جوابُ الأمر، ولذلك حُذفت منه النون. قرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا: «يَكُلُّ سَحَارًا».
وقرأ سائرُ الناس: «ساحرًا»^(٨). وهما متقاربان، إِلَّا أَنْ فَعَلًا أَشَدُّ مبالغة.

(١) كذا نقل المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ١٤٢/٢ - ١٤٣، والقراءة المشهورة عن عاصم:
«أَرَجِه» بإسكان الهاء، وستاتي. وينظر السبعة ص ٢٨٧، والتيسير ص ١١١.

(٢) قرأ بها عاصم وحمزة من أهل الكوفة، وتقدمت قراءة الكِسائي (وهو كوفي أيضاً).

(٣) في معاني القرآن ١/٣٨٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٦٥، وتفسير الرازي ١٤/١٩٨.

(٥) أخرج هذين القولين الطبري ١٠/٣٥٠ - ٣٥١.

(٦) في إعراب القرآن ٢/١٤٣، والكلام منه إلى آخر تفسير الآية.

(٧) لكن قرأ بإسكان الهاء عاصمٌ وحمزة كما سلف. قال السمين في الدر المصون ٥/٤٠٩: في هذه
الكلمة (أرجه) ست قراءات في المشهور المتواتر، ولا التفات إلى من أنكر بعضها ولا لمن أنكر على
راويها.

(٨) السبعة ص ٢٨٩، والتيسير ص ١١٢.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ رِعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ رِعُونَ﴾ وحذف ذكر الإرسال لعلم السامع^(١).

قال ابن عبد الحكم: كانوا اثني عشر نقيباً، مع كل نقيب عشرون عريفاً، تحت يدي كل عريف ألف ساحر. وكان رئيسهم شمعون في قول مقاتل بن سليمان^(٢). وقال ابن جريج: كانوا تسع مئة، من العريش والفيوم والإسكندرية، أثلاثاً^(٣). وقال ابن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألف ساحر، وروي عن وهب. وقيل: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابن المنكدر: ثمانين ألفاً. وقيل: أربعة عشر ألفاً. وقيل: كانوا ثلاث مئة ألف ساحر من الريف، وثلاث مئة ألف ساحر من الصعيد، وثلاث مئة ألف ساحر من الفيوم وما والاها. وقيل: كانوا سبعين رجلاً. وقيل: ثلاثة وسبعين؛ فالله أعلم^(٤). وكان معهم فيما روي جبال وعصي يحملها ثلاث مئة بعير. فالتقت الحية ذلك كله.

قال ابن عباس والسدي: كانت إذا فتحت فاها صار شذقها ثمانين ذراعاً؛ واضعة فكها الأسفل على الأرض، وفكها الأعلى على سور القصر^(٥). وقيل: كان سعة فيها أربعين ذراعاً، فالله أعلم. فقصدت فرعون لتبتلعه، فوثب من سريره، فهرب منها واستغاث بموسى، فأخذها، فإذا هي عصاً كما كانت. قال وهب: مات من خوف العصا خمسة وعشرون ألفاً^(٦).

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٤٣/٢.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ١٨٧/٢.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٠٦/٣ ونسبه لأبي الشيخ.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٣٥٤/١٠ - ٣٥٥، وعرائس المجالس ص ١٨٨، وتفسير البغوي

١٨٧/٢، والمححر الوجيز ٤٣٨/٢، وزاد المسير ٢٤٠/٣ - ٢٤١. قال ابن عطية: وهذه الأقوال

ليس لها سند يوقف عنده.

(٥) أخرجه الطبري ٣٤٤/١٠ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ٣٤٥/١٠. وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

﴿قَالُوا أَيُّنَّا لَنَا لِأَجْرٍ﴾ أي: جائزة ومالاً. ولم يقل: فقالوا، بالفاء؛ لأنه أراد: لَمَّا جاؤوا قالوا^(١). وقُرئ: «إِنَّ لَنَا» على الخبر، وهي قراءة نافع وابن كثير^(٢). أَلزَمُوا فرعونَ أن يجعلَ لهم مالاً إن غلبُوا؛ فقال لهم فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: لَمِنَ أهل المنزلة الرفيعة لدينا، فزادهم على ما طلبوا. وقيل: إنهم إنما قَطَعُوا ذلك لأنفسهم في حكمهم إن غلبوا. أي قالوا: يجب لنا الأجر إن غلبنا.

وقرأ الباقون بالاستفهام على جهة الاستخبار؛ استخبروا فرعون؛ هل يجعل لهم أجراً إن غلبوا أو لا؟ فلم يقطعوا على فرعون بذلك، إنما استخبروه هل يفعل ذلك؛ فقال لهم: «نعم» لكم الأجر والقرب إن غلبتم^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلْمُوزُوكَ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهَبُوهُمْ وَجَاءَهُم بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَرْجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

تأدبوا مع موسى عليه السلام، فكان ذلك سبب إيمانهم^(٤). و«أن» في موضع نصب عند الكسائي والفراء، على معنى: إِمَّا أَنْ تَفْعَلَ الإلقاء. ومثله قول الشاعر:

قالوا الرُّكُوبَ فقلنا تلك عادتنا^(٥)

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ قال الفراء: في الكلام حذف. والمعنى: قال لهم موسى: إنكم لن تغلبوا ربكم ولن تُبطلوا آياته. وهذا من مُعْجَزِ القرآن الذي لا يأتي مثله في كلام

(١) مجمع البيان ١٤٤/٣ .

(٢) وقرأ بها عاصم من رواية حفص. وقرأ الباقون من السبعة بالاستفهام على جهة الاستخبار - كما سيذكر المصنف - كل على مذهبه؛ فقرأ ابن عامر وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي بهزتين محققتين، غير أن هشاماً (راوي ابن عامر) أدخل بينهما ألفاً، وقرأ أبو عمرو بهزتين الأولى محققة والثانية مُسهلة وأدخل بينهما ألفاً. السبعة ص ٢٨٩، والتيسير ص ١١٢ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٧٢/١ - ٤٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠٢/١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٤٣/٢، ومشكل إعراب القرآن ٢٩٨/١، وينظر معاني القرآن للفراء ٣٨٩/١. والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١١٣، وعجزه: أو تنزلون فإننا معشر نزل.

الناس، ولا يقدرّون عليه؛ يأتي اللفظ اليسير بجمع المعاني الكثيرة^(١).
وقيل: هو تهديد^(٢). أي: ابتدئوا بالإلقاء، فسترون ما يحلُّ بكم من الافتضاح،
إذ لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر. وقيل: أمرهم بذلك ليبين كذبهم
وتمويههم.

﴿فَلَمَّا أَقْوَا﴾ أي: الجبال والعصي. ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي: خيلوا لهم،
وقلبوها عن صِحّة إدراكها، بما يُتخيّل من التّمويه الذي جرى مجرى السّعوذة وخِفّة
اليد، كما تقدّم في «البقرة» بيانه^(٣). ومعنى ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: عندهم؛ لأنه كان^(٤)
كثيراً، وليس بعظيم على الحقيقة^(٥).

قال ابن زيد: كان الاجتماع بالإسكندرية، فبلغ ذنّب الحيّة وراء البحيرة^(٦). وقال
غيره: وفتح فاهها، فجعلت تلقف - أي: تلتقم - ما ألقوا من جبالهم وعصيهم.
وقيل: كان ما ألقوا جبلاً من آدم، فيها زئبق، فتمحرت وقالوا: هذه حَيّات^(٧).

وقرأ حفص: «تَلَقَّفُ» بإسكان اللام والتخفيف^(٨)؛ جعله مستقبل لَقِفَ يَلْقَفُ
- قال النحاس^(٩): ويجوز على هذه القراءة «تَلَقَّفُ»؛ لأنه من لَقِفَ^(١٠) - وقرأ الباقون
بالتشديد وفتح اللام؛ جعلوه مستقبل تَلَقَّفُ، فهي تَتَلَقَّفُ^(١١). يقال: لَقِفَت الشيء

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٤٤/٢ .

(٢) مجمع البيان ١٤٤/٩ .

(٣) ٢٧٢/٢ وما بعدها. وينظر الوسيط ٣٩٤/٢ .

(٤) في (ظ): لأنهم كانوا.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٤٤/٢ .

(٦) تفسير البغوي ١٨٧/٢ ، والمحزر الوجيز ٤٣٩/٢ . قال ابن عطية: وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق، لا ينبغي أن يلتفت إليه. اهـ. والبحيرة: كورة من نواحي الإسكندرية بمصر، تشتمل على قرى كثيرة. معجم البلدان ٣٥١/١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٤٤/٢ ، وتفسير الرازي ٢٠٣/١٤ .

(٨) السبعة ص ٢٩٠ ، والتيسير ص ١١٢ .

(٩) في إعراب القرآن ١٤٤/٢ .

(١٠) يعني كسر أوائل الأفعال المضارعة إذا كان عين الماضي مكسوراً، قال سيبويه في كتابه ١١٠/٤ :
وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز، وذلك قولهم: أنت تعلم، وأنا أعلم...

(١١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٧٣/١ .

وتَلَقَّته: إذا أخذته أو بِلَعته^(١). تَلَقَّف وتَلَقَّم وتَلَهَّم بمعنى واحد.

قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات: «تَلَقَّم» بالميم والتشديد^(٢). قال

الشاعر:

أنت عصا موسى التي لم تنزل تَلَقَّم ما يَأفِكُه السَّاحِرُ^(٣)

ويُروى: تَلَقَّف.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يكذبون؛ لأنهم جاؤوا بحبال، وجعلوا فيها زُبَقاً حتى

تحرَّكت.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٨﴾

وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١١٩﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ قال مجاهد: أي: فظهر الحق^(٤). ﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾

نصب على الحال. والفعل منه صَغُرَ يَصْغُرُ صَغِراً وَصُغِرَ وَصَغَاراً^(٥). أي: انقلب قوم

فرعون - وفرعون معهم - أذلاءً مَقْهُورِينَ مَغْلُوبِينَ. فاما السَّحْرَةُ فقد آمنوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي

الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٢﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ

لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَصْحَابَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ

ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبِّنَا أَنْفَرْنَا عَلَيْهَا صَبْرًا وَقَوَّفْنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنكارٌ منه عليهم. ﴿إِنَّ هَذَا

(١) مجمل اللغة ٣/٨١٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/٦٣.

(٣) النكت والعيون ٢/٢٤٦، وأورده الزجاج في معاني القرآن ٢/٣٦٦، وفيه: تلقف بدل: تلقم. وذكرها المصنف بعده.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/٣٦٠ - ٣٦١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٤٤. وصغر، من باب كرم وفرح. تاج العروس (صغر).

لَتَكْرَهُنَّ مَكَرْتَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا ﴿١﴾ أي: جرت بينكم وبينه مواطأة في هذا لِيَسْتَوْلُوا عَلَى مِصْرَ؛ أي: كان هذا منكم في مدينة مصرَ قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء (١). ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لهم.

قال ابن عباس: كان فرعونُ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ، وَقَطَعَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافِ (٢). الرَّجُلُ الْيُمْنَى وَالْيَدُ الْيَسْرَى، وَالْيَدُ الْيُمْنَى وَالرَّجُلُ الْيَسْرَى؛ عَنِ الْحَسَنِ (٣).

﴿وَمَا نُنْقِمُ مَنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ قرأ الحسنُ بفتح القاف. قال الأخفش (٤): هي لغة. يقال: نَقَمْتُ الْأَمْرَ وَنَقِمْتَهُ: أَنْكَرْتَهُ (٥). أي: لست تكره منَّا سوى أَنَا (٦) ءَامَنَّا بِاللَّهِ، وَهُوَ الْحَقُّ. ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ آيَاتُهُ وَبَيَّنَاتُهُ.

﴿رَبِّنَا أَفْرِيغُ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ: الصَّبُّ، أي: أَضْبَبُنَا عَلَيْنَا عِنْدَ الْقَطْعِ وَالصَّلْبِ. ﴿وَنُوفِنَا مُسْلِمِينَ﴾ فقييل: إِنَّ فِرْعَوْنَ أَخَذَ السَّحْرَةَ وَقَطَّعَهُمْ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ (٧)، وَإِنَّ أَمْرَ بِمُوسَى عِنْدَ إِيمَانِ السَّحْرَةِ سِتُّ مِئَةِ أَلْفٍ (٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ وَاللَّهْتِكُمْ قَالَ سَنَقْتِلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي:

(١) الوسيط ٢/٣٩٦، والكشاف ٢/١٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/٣٦٣.

(٣) مجمع البيان ٩/١٤٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/٥٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/١٤٤. وقراءة الحسن ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٥، ونسبها ليحيى وإبراهيم وأبي حنيفة.

(٥) مجمل اللغة ٤/٨٨٠.

(٦) في (م): أن.

(٧) تفسير البغوي ٢/١٨٨.

(٨) المحرر الوجيز ٢/٤٤١.

بإيقاع الفُرقة وَتَشْتِيَتِ الشَّمْلُ ﴿وَيَذْرُكُ﴾ بنصبِ الراء، جوابُ الاستفهام، والواو نائبةٌ عن الفاء^(١). ﴿وَاللَّهُمَّ﴾ قال الحسن: كان فرعونُ يعبدُ الأصنام^(٢)، فكان يُعْبُدُ وَيُعْبَدُ. قال سليمانُ التِّيميُّ: بلغني أنَّ فرعونَ كان يعبدُ البقرَ. قال التيميُّ: فقلت للحسن: هل كان فرعون يعبد شيئاً؟ قال: نعم، إن كان ليعبد شيئاً قد^(٣) جَعَلَهُ فِي عُنُقِهِ^(٤).

وقيل: معنى «واللهتك» أي: وطاعتك؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]: إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم؛ فصار تمثيلاً^(٥).

وقرأ نعيم بن ميسرة^(٦): «وَيَذْرُكُ» بالرفع على تقدير: وهو يَذْرُكُ. وقرأ الأشهبُ العُقيليُّ: «وَيَذْرُكُ» مجزوماً مخفّفاً: «يَذْرُكُ»؛ لِثِقَلِ الضَّمَّةِ. وقرأ أنس بن مالك: «وَنَذْرُكُ» بالرفع والنون^(٧). أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حياً. وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس والضحاك: «وَالْأَهْتَكُ». ومعناه: وعبادتك^(٨). وعلى هذه القراءة كان يُعْبَدُ وَلَا يُعْبَدُ، أي: ويتركُ عبادته لك.

قال أبو بكر الأنباري: فَمِنْ مَذْهَبِ أَصْحَابِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]،

(١) الوسيط ٣٩٦/٢.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢١١/١٤، وأخرجه بنحوه الطبري ٣٦٧/١٠.

(٣) في (م): إنه كان يعبد شيئاً كان قد...

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٥٣٨/٥ (٨٨٢٣).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦٥/٣.

(٦) أبو عمرو الكوفي النحوي نزل الري، ويروى عنه حروف شواذ من اختياره، توفي سنة (١٧٤هـ). غاية النهاية ٣٤٢/٢.

(٧) المحرر الوجيز ٤٤١/٢، وينظر القراءات الشاذة ص ٤٥، والمحتسب ٢٥٦/١ - ٢٥٧.

(٨) القراءات الشاذة ص ٤٥، والمحتسب ٢٥٦/١.

نَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ رَبٌّ وَإِلَاهَةٌ، فْقِيلَ لَهُ: وَيَذْرَكَ وَإِلَاهَتُكَ؛ بِمَعْنَى: وَيَتْرَكَ وَعِبَادَةُ النَّاسِ لَكَ.

وقراءة العامة: «وَأَلِهَتُكَ» كما تقدّم، وهي مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَرْئُوبٌ^(١). دَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ عِنْدَ حُضُورِ الْجَمَامِ^(٢): ﴿ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]. فَلَمْ يُقْبَلْ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ، لَمَّا أَتَى بِهِ بَعْدَ إِغْلَاقِ بَابِ التَّوْبَةِ. وَكَانَ قَبْلَ هَذِهِ الْحَالِ لَهُ إِلَهٌ يَعْبُدُهُ سِرًّا دُونَ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلًّا وَعِزًّا؛ قَالَهُ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ^(٣).

وَفِي حَرْفِ أَبِي: «أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَقَدْ تَرَكَوكَ أَنْ يَعْبُدُوكَ»^(٤).

وقيل: «وَأَلِهَتُكَ» قيل: كان يعبدُ بقرةً، وكان إذا استحسَنَ بقرةً أَمَرَ بِعِبَادَتِهَا، وَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ وَرَبُّ هَذِهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [طه: ٨٨]. ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ^(٥). قَالَ الزَّجَّاجُ^(٦): كَانَ لَهُ أَصْنَامٌ صِغَارٌ يَعْبُدُهَا قَوْمُهُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ، فَتُنَسَّبَتْ إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى». قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ: قَوْلُ فِرْعَوْنَ: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ شَيْئًا غَيْرَهُ.

وقد قيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِلَاحَةِ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْبَقْرَةَ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا. وَقِيلَ: أَرَادُوا بِهَا الشَّمْسَ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَهَا. قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) تفسير الرازي ٢١١/١٤.

(٢) الجَمَامُ: قَضَاءُ الْمَوْتِ وَقَدْرُهُ. الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ (حَمَم).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣٦٧/١٠.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ١٤٤/٢ - ١٤٥، وَالْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ ٤٤١/٢، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣٦٦/١٠.

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣٦٧/١٠، وَالآيَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي السَّامِرِيِّ، وَالْمَعْنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ

يَعْبُدُ مَا يَسْتَحْسِنُ مِنَ الْبَقَرِ أَخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارِ، وَقَالَ: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى.

يَنْظُرُ النَّكْتِ وَالْمَيُونِ ٢٤٨/٢.

(٦) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣٦٧/٢.

وَأَعَجَلْنَا الْإِلَاهَةَ أَنْ تَأْتِيَنَا تَوْبًا^(١)

ثم آنس قومَه فقال: ﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بالتخفيف؛ قراءة نافع وابن كثير. والباقون بالتشديد على التكثير^(٢). ﴿وَسَتَّخِيَهُ نِسَاءَهُمْ﴾ [نتركهن أحياء]^(٣). أي: لا تخافوا جانبهم. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ آنسهم بهذا الكلام. ولم يقل: سنقتل موسى؛ لعلَّه أنه لا يقدرُ عليه^(٤). وعن سعيد بن جبير^(٥) قال: كان فرعونُ قد ملئ من موسى رُعباً، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار.

ولما بلغ قوم موسى من فرعون هذا، قال لهم موسى: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْرِيًّا إِبْرَاهِيمَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿وَالْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الجنة لمن اتقى^(٦). وعاقبة كل شيء: آخره، ولكنها إذا أُطلقت فقليل: العاقبة لفلان، فهم منه في العرف الخير.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ أي: في ابتداء ولادتك بقتل الأبناء واسترقاق النساء. ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: والآن أعيد علينا ذلك؛ يعنون الوعيد الذي كان من فرعون. وقيل: الأذى من قبل: تسخيرهم ليني إسرائيل في أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم. والأذى من بعد: تسخيرهم جميع

(١) قائلته مئة بنت عتبية بن الحارث اليربوعي، وصدرة: تروحنا من اللعاب قصرأ. وهو في تفسير الطبري ٣٦٩/١٠، والمحتسب ١٢٣/٢، وتفسير البغوي ١٨٩/٢.

(٢) السبعة ص ٢٩٢، والتيسير ص ١١٢.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير البغوي ١٨٩/٢، وهو المعنى الذي ذكره المفسرون، ولم يذكره المصنف.

(٤) زاد المسير ٣/٢٤٥.

(٥) في (ظ): سعيد بن المسيب، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩١١) من قول مجاهد.

(٦) الوسيط ٢/٣٩٧، وزاد المسير ٣/٢٤٥.

النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جُوَيْر. وقال الحسن: الأذى من قبلُ وبين بعدُ واحد، وهو أخذُ الجزية^(١).

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ «عسى» من الله واجبٌ؛ جَدَّد^(٢) لهم الوعدَ وحققه. وقد استخلفوا في مصر في زمان داودَ وسليمانَ عليهما السَّلام، وفتحوا بيتَ المقدس مع يُوشَعَ بنِ نُون^(٣)؛ كما تقدَّم^(٤).

وروي أنهم قالوا ذلك حين خرجَ بهم موسى وتبعهم فرعون، فكان وراءهم، والبحرُ أمامهم^(٥)، فحقَّق الله الوعيدَ؛ بأن غرَّق فرعونَ وقومه وأنجاهم.

﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ تقدَّم نظائره. أي يرى ذلك العمل الذي يجبُ به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، إنما يجازيهم على ما يقعُ منهم^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ يعني: الجُدوب. وهذا معروفٌ في اللغة، يقال: أصابتهم سنةٌ، أي: جذب. وتقديره: جذبُ سنة. وفي الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسني يوسف»^(٧).

(١) النكت والعيون ٢/٢٤٩، وزاد المسير ٣/٢٤٥.

(٢) في (ز): حد، وفي (ظ): جرد.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٤٢.

(٤) ٢٢٨/٤ وما بعدها.

(٥) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٤٢، ثم قال: وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل؛ من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلة يقينهم وصبرهم على الدين. واستعطاف موسى بقوله: «عسى ربكم أن يهلك عدوكم» ووعدُه لهم بالاستخلاف في الأرض يدلُّ على أنه يستدعي نفوساً نافرة. ويقوي هذا الظنُّ في بني إسرائيل سلوكهم هذه السبيل في غير قصة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٦٧.

(٧) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ؓ، وسلف ٦/٢.

ومن العرب مَنْ يُعْرَبُ التُّونَ فِي السِّنِينَ، وَأَنْشَدَ الْفَرَاءُ:

أَرَى مَرَّ السَّنِينَ أَخَذَنْ مَنِي كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ مِنَ الْهَلَالِ^(١)

قال النَّحَّاسُ^(٢): وَأَنْشَدَ سَبِيوِيَهَذَا الْبَيْتَ بِفَتْحِ النَّونِ، وَلَكِنْ أَنْشَدَ فِي هَذَا مَا لَا

يَجُوزُ غَيْرُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَقَدْ جَاوَزْتُ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ^(٣)

وَحَكَى الْفَرَاءُ عَنِ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَقَمْتُ عِنْدَهُ سِنِينَ يَا هَذَا؛ مَصْرُوفًا.

قال: وَبَنُو تَمِيمٍ لَا يَصْرِفُونَ، وَيَقُولُونَ: مَضَّتْ لَهُ سِنِينَ يَا هَذَا.

وَسِنِينَ: جَمْعُ سَنَةٍ، وَالسَّنَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْجَذْبِ، لَا بِمَعْنَى الْحَوْلِ. وَمِنْهُ أَسْنَتَ

الْقَوْمِ، أَي: أَجْدَبُوا. قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ:

عَمِرُوا الْعُلَا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافٌ^(٤)

﴿لَمَّا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أَي: لِيَتَعَطَّوْا وَتَرَقَّ قُلُوبُهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا

بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

فِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ أَي: الْخِصْبُ وَالسَّعَةُ. ﴿قَالُوا لَنَا

هَذِهِ﴾ أَي: أَعْطَيْنَاهَا بِاسْتِحْقَاقٍ. ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أَي: فَحَطَّ وَمَرَضَ، وَهِيَ

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ٥٤٦/٢، وفيه رأيت، بدل: أرى. والسرار (بفتح السين وكسرهما): الليلة

التي يستسر فيها القمر آخر الشهر، أي: يخفي. اللسان (سر).

(٢) في إعراب القرآن ١٤٥/٢، وما قبله منه.

(٣) قائله سحيم بن وثيل الزباجي، وصدرة: وماذا يدري الشعراء مني. وهو في طبقات فحول الشعراء

١/٧٢، والمقتضب ٣/٣٣٢، وشرح المفصل ٥/١١، والخزانة ١/٢٦٠.

(٤) ديوان عبد الله بن الزبيري ص ٥٣، وعمرو هو هاشم بن عبد مناف، وهو أول من أطمع الثريد بمكة،

وإنما كان اسمه عمراً، فما سُمِّيَ هاشماً إلا بهشمه الخبز بمكة لقومه. السيرة النبوية ١/١٣٦.

المسألة:

الثانية: ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى﴾ أي: يتشاءموا به. نظيره: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰؤُلَاءِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨]. والأصل: «يتطيروا»؛ أدغمت التاء في الطاء. وقرأ طلحة: «تطيروا» على أنه فعلٌ ماضٍ^(١). والأصل في هذا من الطَّيْرَةِ وَزَجْرِ الطَّيْرِ، ثم كَثُرَ استعمالهم حتى قيل لكلِّ مَنْ تَشَاءَمَ: تَطَيَّرَ^(٢).

وكانت العربُ تَتِيَمَنُ بالسَّانِحِ: وهو الذي يأتي من ناحية اليمين. وتتشاءم بالبارح: وهو الذي يأتي من ناحية الشُّمَالِ^(٣). وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب، ويتأولونه البَيْنَ. وكانوا يَسْتَدِلُّونَ بِمُجَاوِبَاتِ الطُّيُورِ بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. وهكذا الطُّبَاءُ إذا مَضَتْ سَانِحَةٌ أو بارحة، ويقولون إذا بَرَحَتْ: مَنْ لِي بالسَّانِحِ بعد البارح^(٤). إِلَّا أَنَّ أَقْوَى مَا عِنْدَهُمْ كَانَ يَقَعُ فِي جَمِيعِ الطُّيْرِ، فَسَمَّوْا الْجَمِيعَ تَطَيَّرًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وتطيّر الأعاجم إذا رأوا صَبِيًّا يَذْهَبُ بِهِ إِلَى الْمُعَلِّمِ بِالْعِدَاةِ، وَيَتِيَمَّنُونَ بِرُؤْيَةِ صَبِيٍّ يَرْجِعُ مِنَ عِنْدِ الْمُعَلِّمِ إِلَى بَيْتِهِ، وَيَتَشَاءَمُونَ بِرُؤْيَةِ السَّقَاءِ عَلَى ظَهْرِهِ قِرْبَةً مَمْلُوءَةً مَشْدُودَةً، وَيَتِيَمَّنُونَ بِرُؤْيَتِهِ^(٥) فَارْعَ السَّقَاءِ مَفْتُوحَةً قِرْبَتَهُ^(٦)؛ وَيَتَشَاءَمُونَ بِالْحَمَّالِ الْمُثْقَلِ بِالْحِمْلِ، وَالِدَابَّةِ الْمُوقَّرَةِ، وَيَتِيَمَّنُونَ بِالْحَمَّالِ^(٧) الَّذِي وَضَعَ حِمْلَهُ، وَبِالدَّابَّةِ يُحِطُّ عَنْهَا ثِقْلُهَا.

فجاء الإسلامُ بالنَّهْيِ عَنِ التَّطَيُّرِ وَالتَّشَاؤْمِ بِمَا يُسْمَعُ مِنْ صَوْتِ طَائِرٍ مَا كَانَ،

(١) القراءات الشاذة ص ٤٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) زاد المسير ٣/٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٤) الأمثال للقاسم بن سلام ص ٢٤٥ .

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): برؤية، والمثبت من (خ).

(٦) لفظة: قربته، من (م).

(٧) في (د) و(ظ): بالجمال، في الموضعين.

وعلى أيِّ حالٍ كان، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَقْرُوا الطَيْرَ على مَكِنَاتِهَا»^(١). وذلك أن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة، أتى الطيرَ في وَكْرَها فنَفَّرَها، فإذا أخذت ذات اليمينِ مَضَى لحاجته، وهذا هو السانحُ عندهم. وإن أخذت ذات الشمالِ رَجَعَ، وهذا هو البارحُ عندهم. فنهى النبي ﷺ عن هذا بقوله: «أَقْرُوا الطَيْرَ على مَكِنَاتِهَا» هكذا في الحديث^(٢). وأهلُ العربية يقولون: وَكُنَاتِها. قال امرؤ القيس:
وقد أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِها^(٣)

والوَكْنَةُ: اسمٌ لكلِّ وَكْرٍ وَعُشٍّ. وَالوَكْنُ: موضعُ الطائرِ الذي يبيضُ فيه ويُفْرِخُ، وهو الحَرَقُ في الحيطانِ والشجرِ. ويقال: وَكَنَ الطائرُ يَكِنُ وَكُونًا: إذا حَضَنَ بِيضَهُ^(٤).

وكان أيضاً من العرب مَنْ لا يرى التطيُّرَ شيئاً، ويمدحون من كَذَبَ به. قال المَرْقَشُ:

ولقد عَدَوْتُ وَكِنْتُ لا أَعْدُو على وَاقٍ وَحَاتِمِ
فإذا الأشائِمُ كالأيا مِن والأيامِ كالأشائِمِ^(٥)

(١) أخرجه أحمد (٢٧١٣٩) وأبو داود (٢٨٣٥) من حديث أم كُرْز الكعبية رضي الله عنها، وفي إسناده سبع بن ثابت، قال الذهبي في الميزان ١١٥/٢ سبع بن ثابت عن أم كرز لا يكاد يعرف. والمكنات في الأصل: بيض الضباب، واحدها مَكْنَة، بكسر الكاف، وقد تفتح. يقال: مَكِنَتِ الضَّبَّةُ وَأَمَكِنَت. قال أبو عبيد: جائز في الكلام أن يُستعار مَكْنُ الضَّبَابِ فيجعل للطير. وقيل: المكنات بمعنى الأمكنة، وقيل: المكنة من التمكن، يعني: أَوْرُوها على كل مَكْنَة ترونها عليها، ودعوا التطير بها. النهاية (مكن). وينظر غريب الحديث لأبي عبيد ١٣٥/٢.

(٢) ينظر السنن للشافعي ٦٢/٢ - ٦٤.

(٣) سلف ٣٨٢/٥.

(٤) في النسخ: على بيضه، والمثبت من (م).

(٥) البيتان في كتاب الحيوان ٤٣٦/٣، وتأويل مختلف الحديث ص ١٠٦ - ١٠٧ وعيون الأخبار ١/١٤٥، والتمهيد ٢٨٧/٩ والواقعي: هو الصُّرْدُ: وهو طائر فوق العصفور، يصيد العصافير. والحاتم: الغراب الأسود. اللسان (صرد) (حتم) (وقى). وثُمَّة مَرْقَشان؛ الأكبر: وهو ربيعة بن سعد، ويقال: بل هو عمرو ابن سعد. والأصغر: وهو ربيعة بن سفيان من بني سعد بن مالك، وهو ابن أخي المرقش الأكبر، وهو أشعرُ من الأكبر وأطولُ عمراً. ينظر الشعر والشعراء ١/٢١٠ و ٢١٤.

وقال عكرمة: كنتُ عند ابنِ عباس، فمرَّ طائرٌ يصيح، فقال رجلٌ من القوم: خير، خير. فقال ابنُ عباس: ما عند هذا لا خيرٌ ولا شرٌّ^(١).

قال علماؤنا: وأما أقوالُ الطير، فلا تعلقُ لها بما يُجعل دَلالةً عليه، ولا لها علمٌ بكائنٍ فضلاً عن مستقبلٍ فتُخبر به، ولا في الناس من يعلم منطقَ الطير؛ إلا ما كان الله تعالى خصَّ به سليمانَ ﷺ من ذلك، فالتحق التطيرُ بجملة الباطل. والله أعلم.

وقال ﷺ: «ليس مِنَّا مَنْ تحلَّم، أو تكهَّن، أو ردَّه عن سفره تطيرٌ»^(٢).

وروى أبو داودَ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الطيرةُ شركٌ ثلاثاً، وما مِنَّا إلا، ولكنَّ الله يُذهبه بالتوكل»^(٣).

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رجَّعته الطيرةُ عن حاجته فقد أشرك». قيل: وما كفارةُ ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «أن يقولَ أحدهم: اللهم لا طيرَ إلا طيرُكَ، ولا خيرَ إلا خيرُكَ، ولا إلهَ غيرُكَ، ثم يمضي لحاجته»^(٤).

وفي خبرٍ آخر: «إذا وجدَ ذلك أحدُكم فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت،

(١) أورده ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ١٠٨، وابن عبد البر في التمهيد ١٩٤/٢٤، والحافظ ابن حجر في الفتح ٢١٥/١٠ وعزاه للطبري.

(٢) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرج الطبراني في الأوسط (٢٦٨٤)، وأبو نعيم في الحلية ١٧٤/٥، والخطيب في تاريخ بغداد ٢٠١/٥، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٧١١/٢ عن أبي الدرداء ؓ أن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه لم يسكن الدرجاتِ العُلا، ولا أقول لكم الجنة: من تكهن، أو استقسم، أو ردَّه من سفر تطيرٌ». وفي إسناده محمد بن الحسن الهمداني، كذبه ابن معين وأبو داود، وقال أحمد: ما أراه يسوى شيئاً. ميزان الاعتدال ٥١٤/٣.

(٣) سنن أبي داود (٣٩١٠)، وأخرجه أحمد (٣٦٨٧)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وقوله: وما مثلاً إلا.. من قول ابن مسعود ؓ، أدرج في الخبر، وقد بيَّنه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه. فتح الباري ٢١٣/١٠ ومعنى: وما مثلاً إلا، أي: إلا من يعتربه التطير، ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصاراً للكلام واعتماداً على فهم السامع. معالم السنن ٢٣٢/٤.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٠١/٢٤، وفيه: «من حاجته» بدل: «عن حاجته»، وأخرجه أحمد (٧٠٤٥) بنحوه.

ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١). ثم يذهب متوكِّلاً على الله، فإنَّ اللهَ يكفيه ما وَجَدَ في نفسه من ذلك، وكفاهُ اللهُ تعالى ما يُهمُّه.

وقد تقدَّم في «المائدة» الفرقُ بين الفألِ والطَّيرة^(٢).

﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقرأ الحسنُ: «طَيْرُهُمْ»؛ جمعُ طائر، أي: ما قدَّر لهم وعليهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما لحقَّهم من القَحْطِ والشَّدائدِ إنما هو من عند الله عزَّ وجلَّ بذنوبهم، لا من عند موسى وقومه^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: قال قومُ فرعونَ لموسى: «مهما». قال الخليل^(٤): الأصل ما ما، الأولى للشرط، والثانية زائدة، توكيدٌ للجزاء، كما تزداد في سائر الحروف، مثل: إمَّا وحيثما وأينما وكيفما. فكَّرِها حرفين لفظهما واحد؛ فأبدلوا من الألفِ الأولى هاءً، فقالوا: مهما. وقال الكسائي: أصله: مَهْ، أي: أُكْفَفُ ما تأتينا به من آية. وقيل: هي كلمة مُفْرَدَةٌ^(٥)، يُجَارَى بها لِيُجَزَمَ ما بعدها على تقدير: إن. والجواب: «فما نحن لك بمؤمنين».

﴿لِنَسْحَرَنَّ﴾: لِنَتَّصِرَفَنَّ عَمَّا نحن عليه. وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذه اللفظة^(٦).

قيل: بقي موسى في القَيْطِ بعد إلقاء السحرة سُجْدًا عشرين سنة يُرِيهِمُ الآياتِ إلى أن أغرق اللهُ فرعونَ، فكان هذا قولهم.

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر القرشي. قال المنذري في مختصره ٣٧٩/٥: قال أبو القاسم الدمشقي: لا صحبة له تصح. وذكر البخاري وغيره أنه سمع من ابن عباس. فعلى هذا يكون الحديث مرسلًا. اهـ.

(٢) ٢٩٠/٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٤٦/٢، وقرءة الحسن في القراءات الشاذة ص ٤٥.

(٤) في العين ٣٥٨/٣، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٤٦/٢.

(٥) إملاء ما من به الرحمن، للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٥٥/٣.

(٦) ٢٧٢/٢ - ٢٧٣.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: روى إسرائيل عن سِمَاك، عن نَوْفِ الشَّامِيِّ قال: مَكَثَ موسى ﷺ في آل فرعونَ بعد ما غلب السَّحْرَةَ أربعين عاماً. وقال محمد بنُ عثمان بنِ أبي شيبة عن منجاب: عشرين سنة؛ يُريهم الآيات: الجراد والقُمَّل والضفادع والدم^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي: المطر الشديد حتى عأموا فيه. وقال مجاهدٌ وعطاء: الطوفان: الموت^(٢). قال الأخفش^(٣): واحده طُوفانة. وقيل: هو مصدرٌ كالرُّجْحان والثَّقْصان، فلا يُطلَبُ له واحد^(٤). قال النحاس^(٥): الطوفان في اللغة ما كان مُهْلِكاً من موتٍ أو سَيْلٍ؛ أي: ما يُطيف بهم فيهلكهم.

وقال السُّدِّي: ولم يُصِبْ بني إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوت القنِيط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ودام عليهم سبعة أيام. وقيل: أربعين يوماً. فقالوا: أذُعْ لنا ربِّكَ يَكْشِفْ عنا فنؤمِّنْ بك، فدعا ربُّه، فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا. فأُنبت اللُّهُ لهم في تلك السَّنَةِ، ما لم يُنبثه قبل ذلك من الكلا والزرع، فقالوا: كان ذلك الماء نعمةً، فبعث اللُّهُ عليهم الجراد - وهو الحيوانُ المعروف، جمع جرادة في المذكَر والمؤنث، فإن أردت الفصلَ نعتٌ فقلت: رأيتُ جرادةً ذكراً^(٦) - فأكلَ زروعهم وثمارهم، حتى إنها كانت تأكلُ السُّقوف والأبوابَ حتى تَهْدِمُ^(٧) ديارهم.

(١) أخرجهما أبو نعيم في الحلية ٥٠/٦.

(٢) أخرجه الطبري ٣٨٠/١٠.

(٣) في معاني القرآن له ٥٣١/٢.

(٤) تهذيب اللغة ٣٣/١٤.

(٥) في معاني القرآن ٦٩/٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١٤٦/٢.

(٧) في (خ): تهدمت، وفي (د): تهدم.

ولم يدخل دُورَ بني إسرائيلَ منها شيءٌ^(١).

الثالثة: واختلف العلماءُ في قتل الجرادِ إذا حلَّ بأرض قومٍ^(٢) فأفسد، فقيل: لا يُقتل. وقال أهلُ الفقه كلُّهم: يُقتل.

احتجَّ الأولون بأنه خَلَقَ عظيمٌ مِنْ خَلْقِ الله، يأكل من رزق الله، ولا يَجري عليه القلم. وبما روي: «لا تقتلوا الجرادَ؛ فإنه جندُ الله الأعظم»^(٣).

واحتجَّ الجمهور بأنَّ في تركها فسادَ الأموال، وقد رخص النبي ﷺ بقتال^(٤) المسلم إذا أراد أخذَ ماله؛ فالجرادُ إذا أَرادَ فسادَ الأموال، كانت أولى أن يجوزَ قتلُها. ألا ترى أنهم قد اتفقوا على أنه يجوز قتلُ الحيةِ والعقرب؛ لأنهما يُؤذيان الناس؟ فكذلك الجراد.

روى ابنُ ماجه عن جابرٍ وأنسِ بنِ مالك أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللَّهُمَّ أهلكِ كِبَارَه، واقتلِ صِغارَه، وأفسدِ بيضَه، واقطعِ دابِرَه، وخُذْ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميعُ الدعاء». قال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تدعو على جُنْدٍ من أجنادِ الله بِقَطْعِ دابِرِه؟ قال: «إنَّ الجرادَ نثرَةُ الحوتِ في البحر»^(٥).

الرابعة: ثبت في «صحيح» مسلم^(٦) عن عبد الله بن أبي أوفى قال: غَزَوْنَا مع رسولِ الله ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ كُنَّا نَأْكُلُ الجرادَ معه.

ولم يختلف العلماءُ في أكله على الجملة، وأنه إذا أخذ حياً وقطعت رأسه أنه

(١) تفسير الطبري ٣٨٦/١٠ وما بعدها، وعرائس المجالس ص ١٩٤.

(٢) كلمة: قوم، من (د) و(ز).

(٣) حديث ضعيف، وسلف ١٩٦/١، ومن الواضح أن القول الأول ظاهر الفساد.

(٤) في (ط): يقتل.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٢٢١)، وأخرجه الترمذي (١٨٢٣)، وفي إسناده موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي،

قال فيه يحيى: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال البخاري: عنده مناكير. ميزان الاعتدال ٢١٨/٤.

وقوله: «نثرَةُ الحوت»: أي: عطسته. النهاية (نثر).

(٦) الحديث (١٩٥٢)، وهو في صحيح البخاري (٥٤٩٥)، وسلف ٢٤/٣ - ٢٥.

حلالاً باتفاق. وأن ذلك يتنزّل منه منزلة الذكاة فيه. وإنما اختلفوا: هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صيد أم لا؟ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات. وحكمه عندهم حكم الحيتان، وإليه ذهب ابن نافع^(١) ومطرف.

وذهب مالك إلى أنه لا بد له من سبب يموت به؛ كقطع رؤوسه أو أرجله أو أجنحته؛ إذا مات من ذلك، أو يضلّ^(٢) أو يطرح في النار؛ لأنه عنده من حيوان البرّ، فميّثته محرّمة.

وكان اللبث يكره أكل ميت الجراد، إلا ما أخذ حياً ثم مات؛ فإن أخذ ذكاة. وإليه ذهب سعيد بن المسيب.

وروى الدارقطني عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أجل لنا ميتتان: الحوث والجراد، ودمان: الكبد والطحال»^(٣).

وقال ابن ماجه: حدّثنا أحمد بن منيع، حدّثنا سفيان بن عيينة، عن أبي سعد^(٤)، سمع أنس بن مالك يقول: كُنَّ أزواج النبي ﷺ يتهاذين الجراد على الأطباق^(٥). ذكره ابن المنذر أيضاً^(٦).

الخامسة: روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله، عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق ألف أمة: ست مئة منها في البحر، وأربع مئة في البرّ، وإن أول هلاك هذه الأمم الجراد، فإذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل نظام السلك إذا انقطع». ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر

(١) في المفهم ٥/٢٣٧ - ٢٣٨ (والكلام منه): ابن عبد الحكم.

(٢) أي: يُسوى. اللسان (صلق).

(٣) سنن الدارقطني (٤٧٣٢)، وسلف ٣/٢٤.

(٤) في (د) و(ز) و(م): أبي سعيد. وأبو سعد: هو سعيد بن المرزبان البقال. قال البخاري: منكر الحديث وضعفه النسائي، كما في تهذيب الكمال ١١/٥٢.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٢٢٠).

(٦) في الإشراف ٢/٣٤١.

الأصول»^(١) وقال: وإنما صار الجرادُ أوَّلَ هذه الأممِ هلاكاً؛ لأنه خُلِقَ من الطَّيْنَةِ التي فَضَلت من طينة آدم. وإنما تَهْلِكُ الأممُ لهلاكِ الأدميين؛ لأنها مُسَخَّرَةٌ لهم. رَجَعْنَا إلى قصة القَبْطِ: فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشِفَ عنهم الجراد، فدعا فكُشِفَ، وكان قد بَقِيَ من زُرُوعِهِمْ شيء، فقالوا: يَكْفِينَا ما بَقِيَ؛ ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم القُمَّلَ - وهو صِغارُ الدَّبِّي؛ قاله قتادة. والدَّبِّي: الجرادُ قبل أن يَطِيرَ، الواحدة دَبَاة، وأرضٌ مَدْيِيَّة: إذا أكلَ الدَّبِّي نباتها^(٢). وقال ابن عباس: القُمَّلُ: السُّوس الذي في الحِنْطَةِ. وقال ابن زيد: البراغيث. وقال الحسن: دوابُّ سُودٍ صِغار^(٣). وقال أبو عبيدة^(٤): الحَمَنان، وهو ضربٌ من القَرَاد، واحداً حَمَنانة - فأكلت دوابَّهُمْ وزُرُوعَهُمْ، ولزِمَتْ جلودَهُمْ كأنها الجُدْرِيُّ عليهم، وَمَنَعَهُم النَوْمَ والقرار.

وقال حبيب بن أبي ثابت: القُمَّلُ: الجِغْلان^(٥). والقُمَّلُ عند أهل اللغة: ضربٌ من القِرْدان. قال أبو الحسن الأعرابي العدوي^(٦): القُمَّلُ: دوابُّ صِغارٍ من جنس القِرْدان، إلا أنها أصغرُ منها، واحداً قُمَّلة. قال النحاس^(٧): وليس هذا بناقضٍ لِمَا قاله أهلُ التفسير؛ لأنه يجوز أن تكونَ هذه الأشياءُ كلها أُرْسِلت عليهم، وهي أنها

(١) ص ١٣١، وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٢٥٦/٢ - ٢٥٧، وابن عدي في الكامل ١٩٩٠/٥، قال ابن حبان: وهذا شيء لا شك أنه موضوع ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ. قلنا: في إسناده محمد ابن عيسى بن كيسان، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: لا ينبغي أن يُحدِّث عنه، وقال ابن حبان: يروي عن محمد بن المنكدر العجائب. ينظر ميزان الاعتدال ٦٧٧/٣.

(٢) الصحاح (دبي).

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/٣٨٣ - ٣٨٥.

(٤) في مجاز القرآن ١/٢٢٦.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٧٤)، والجعلان: جمع جُعَل، حشرة كالخُنْفَساء يكثر في المواضع النديَّة. المعجم الوسيط (جعل).

(٦) لم نعرفه.

(٧) في معاني القرآن ٣/٧٠. وما قبله منه.

كلها تجتمع في أنها تؤذيهم.

وذكر بعضُ المفسرين أنه كان بعين شمس كثيبٌ من رمل، فضربه موسى بعصاه فصار قُمَّلاً^(١). وواحدُ القُمَّلِ قُمَّلة. وقيل: القُمَّلُ: القُمَّلُ، قاله عطاءُ الخُراساني^(٢). وفي قراءة الحسن: «والقُمَّلُ» بفتح القاف وإسكان الميم^(٣). ففُتِرَعُوا، فلَمَّا كُشِفَ عنهم لم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضَّفادع، جمع ضِفْدِيع، وهي المعروفة التي تكون في الماء، وقد ورد النهي عن قتلها^(٤)، أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسنادٍ صحيح؛ أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل، عن عبد الرزاق. وابن ماجه عن محمد ابن يحيى النيسابوريِّ الذُّهليِّ، عن أبي هريرة قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل الصُّرَدِ^(٥) والضَّفدِيعِ والنَّملةِ والهُدْهُدِ^(٦).

وخرَّج النَّسائيُّ عن عبد الرحمن بن عثمان، أنَّ طبيباً ذَكَرَ ضِفْدَعاً في دواءٍ عند النبي ﷺ، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها^(٧). صحَّحه أبو محمد عبد الحق^(٨).

(١) أخرجه الطبري ٣٩٥/١٠ من قول سعيد بن جبير والحسن.

(٢) أورده البغوي في تفسيره ١٩٢/٢، وأخرجه الطبري ٣٩٧/١٠ من قول زيد بن أسلم.

(٣) القراءات الشاذة ص ٤٥، والمحتسب ٢٥٧/١.

(٤) في (خ) و(ظ) و(م): وفيه مسألة واحدة، وهي أن النهي ورد عن قتلها.

(٥) الصُّرَدُ: هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض ونصفه أسود. النهاية (صرد).

(٦) كذا ذكر المصنف حديثي أبي داود وابن ماجه، وهو وهم منه رحمه الله، فالذي رواه أبو داود (٥٢٦٧) عن أحمد بن حنبل، وابن ماجه (٣٢٢٤) عن محمد بن يحيى النيسابوري (وهو الذي ذكره المصنف أعلاه)، كلاهما (أحمد ومحمد) عن عبد الرزاق... بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهُدْهُدِ، والصُّرَدِ. (وليس فيه ذكر الضَّفدِيع). وأما الحديث الذي أورده المصنف أعلاه، فقد رواه ابن ماجه وحده (٣٢٢٣) عن محمد بن بشار وعبد الرحمن بن عبد الوهاب (وليس عن محمد بن يحيى)... بإسنادهما إلى أبي هريرة... باللفظ الذي ذكره المصنف وأما حديث النهي عن قتل الضَّفدِيع عند أبي داود فهو الآتي بعده. وانظر تحفة الأشراف ٦٩/٥ و ٤٦٨/٩.

(٧) المجتبى ٢١٠/٧، وأخرجه أحمد (١٥٧٥٧)، وأبو داود (٥٢٦٩).

(٨) في الأحكام الوسطى ٢٤٩/٤ - ٢٥٠، والأحكام الصغرى ٨٤٨/٢ - ٨٤٩.

وعن أبي هريرة قال: الضَّرْدُ أَوَّلُ طَيْرِ صَامٍ، وَلَمَّا خَرَجَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْحَرَمِ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ، كَانَتِ السَّكِينَةُ^(١) مَعَهُ وَالضَّرْدُ؛ فَكَانَ الضَّرْدُ دَلِيلَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ، وَالسَّكِينَةُ مِقْدَارَهُ. فَلَمَّا صَارَ إِلَى الْبُقْعَةِ^(٢)، وَقَعَتِ السَّكِينَةُ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ وَنَادَتْ: إِبْنِ يَا إِبْرَاهِيمُ عَلَى مِقْدَارِ ظِلِّي. فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِ الضَّرْدِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْبَيْتِ، وَعَنْ الضَّفْدِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى نَارِ إِبْرَاهِيمَ^(٣). وَلَمَّا تَسَلَّطَتْ عَلَى فِرْعَوْنَ، جَاءَتْ فَأَخَذَتْ الْأَمَكَةَ كُلَّهَا، فَلَمَّا صَارَتْ إِلَى التَّنُّورِ، وَثَبَتْ فِيهَا وَهِيَ نَارٌ تُسَعَّرُ؛ طَاعَةً لِلَّهِ. فَجَعَلَ اللَّهُ نَقِيْقَهَا تَسْبِيْحًا. يُقَالُ: إِنَّهَا أَكْثَرُ الدَّوَابِّ تَسْبِيْحًا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَا تَقْتُلُوا الضَّفْدِ؛ فَإِنَّ نَقِيْقَهُ الَّذِي تَسْمَعُونَ تَسْبِيْحًا^(٤). فَرُوي أَنَّهَا مَلَأَتْ قُرْشَهُمْ وَأَوْعَيْتَهُمْ وَطَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ؛ فَكَانَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى ذَقْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ وَثَبَ الضَّفْدُ فِي فِيهِ. فَشَكَّوْا إِلَى مُوسَى وَقَالُوا: نَتُوبُ؛ فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ، فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَسَالَ النَّيْلُ عَلَيْهِمْ دَمًا. وَكَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّ يَغْتَرِفُ مِنْهُ الْمَاءَ، وَالْقِبْطِيُّ الدَّمَ. وَكَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّ يَصُبُّ الْمَاءَ فِي فَمِ الْقِبْطِيِّ فَيَصِيرُ دَمًا، وَالْقِبْطِيُّ يَصُبُّ الدَّمَ فِي فَمِ الْإِسْرَائِيلِيِّ فَيَصِيرُ مَاءً زُلَالًا^(٥).

﴿أَيْنِكَ مَفْصَلَاتٌ﴾ أَي: مُبَيِّنَاتُ ظَاهِرَاتٍ؛ عَنْ مُجَاهِدٍ^(٦). قَالَ الزَّجَاجُ^(٧): «آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ»: نَصَبَ عَلَى الْحَالِ. وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْآيَةِ وَالْآيَةِ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ. وَقِيلَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا. وَقِيلَ: شَهْرٌ^(٨)؛ فَلهَذَا قَالَ: «مَفْصَلَاتٍ». ﴿فَأَسْتَكْبِرُوا﴾ أَي: تَرَفَّعُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى.

(١) السكينة: ريح سريعة الممر. النهاية (سكن).

(٢) في (ظ): الحرم.

(٣) نواذر الأصول ص ١٣٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨٤١٨)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٢٨) عنه مرفوعاً. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١١٧/٤: صوابه موقوف.

(٥) عرائس المجالس ص ١٩٦. وليس في هذه المبالغات التي أوردها المفسرون نصّ صحيح.

(٦) أخرجه الطبري ٣٩٨/١٠ بنحوه.

(٧) في معاني القرآن ٣٧٠/٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤٤٤/٢ - ٤٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى آدِغْ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ آجَلٍ هُم بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْتَهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: العذاب. وقرئ بضم الراء^(١)؛ لغتان. قال ابن جبير: كان طاعوناً، مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً^(٢). وقيل: المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات.

﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ «ما» بمعنى الذي، أي: بما استودعك من العلم، أو: بما اختصك به فنباك. وقيل: هذا قسم، أي: بعهده عندك إلا ما دعوت لنا؛ ف«ما» صلة^(٣).

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي: بدعائك لإلهك حتى يكشف عنا. ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ أي: نصدقك بما جئت به. ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وكانوا يستخدمونهم؛ على ما تقدم^(٤).

﴿إِلَىٰ آجَلٍ هُم بَلِّغُوهُ﴾ يعني: آجالهم^(٥) الذي ضرب لهم في التغريق. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: ينقضون ما عقده على أنفسهم.

﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْتَهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ واليَمُّ: البحر. «وكانوا عنها» أي: عن النعمة؛ دلَّ عليها: «فانتقمنا». وقيل: عن الآيات، أي: لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها.

(١) قرأ بها مجاهد وابن محيصن كما في القراءات الشاذة ص ٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٣٩٩/١٠ - ٤٠٠ .

(٣) الصواب أنها مصدرية، ينظر الكشاف ١٠٨/٢ - ١٠٩ .

(٤) ٢٦٣/٦ .

(٥) في النسخ الخطية: آجالهم، والمثبت من (م).

قوله تعالى: ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ﴾ يريد بني إسرائيل. ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ﴾ أي: يُسْتَدَلُّونَ بِالْخِدْمَةِ. ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ زَعَمَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَاءُ أَنَّ الْأَصْلَ: فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، ثُمَّ حُذِفَ «فِي» فَنَصَبَ^(١). وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ وَرِثُوا أَرْضَ الْقِبْطِ. فَهَمَا نَصَبَ عَلَى الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ؛ يُقَالُ: وَرِثْتُ الْمَالَ وَأُورِثْتَهُ الْمَالَ؛ فَلَمَّا تَعَدَّى الْفِعْلُ بِالْهَمْزَةِ نَصَبَ مَفْعُولَيْنِ.

والأرض: هي أرض الشام ومصر. ومشارقها ومغاربها: جهات الشرق والغرب بها، فالأرض مخصوصة، عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: أراد جميع الأرض؛ لأن من بني إسرائيل داود وسليمان، وقد ملكا الأرض^(٢). ﴿الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بإخراج الزروع والثمار والأنهار.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هي قوله: ﴿وَرَبُّدُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَمُّوْا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣) [القصص: ٥]. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بِصَبْرِهِمْ عَلَىٰ أَذَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ آمَنُوا بِمُوسَىٰ.

﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(٤) يُقَالُ: عَرَشَ يَعْرِشُ: إِذَا بَنَى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: أَي: مَا كَانُوا يَبْنُونَ مِنَ الْقُصُورِ وَغَيْرِهَا^(٥). وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ تَعْرِشُ الْكُرْمِ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٤٧/٢، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣٩٧/١.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤٤٦/٢ وتفسير الرازي ٢٢١/١٤، وقول الحسن وقتادة أخرجه الطبري ٤٠٦/١٠ - ٤٠٧ دون ذكر مصر.

(٣) المحرر الوجيز ٤٤٦/٢، ونسبه للمهدوي.

(٤) وقع في (خ) و(ز) و(ظ) بدل هذه الآية قوله: ويعرشون بينون، والمثبت من (د) و(م).

(٥) أخرجه الطبري ٤٠٧/١٠.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «يَعْرُشُونَ» بضمّ الراء^(١). قال الكسائي: هي لغة تميم^(٢). وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: «يُعْرُشُونَ» بتشديد الراء وضمّ الياء^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾
قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف، والباقون بضمّها^(٤). يقال: عَكَفَ يَعْكُفُ وَيَعْكُفُ، بمعنى: أقام على الشيء ولزمه. والمصدر منهما على فُعول^(٥). قال قتادة: كان أولئك القوم من لَحْم، وكانوا نزولاً بالرقّة^(٦). وقيل: كانت أصنامهم تماثيل بقر؛ ولهذا أخرج لهم السامري عجلًا^(٧).

﴿قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ نظيره قول جُهَالِ الأعراب - وقد رأوا شجرة خضراء للكفار، تُسَمَّى ذات أنواط^(٨)، يعظمونها في كل سنة يوماً -: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُ أَكْبَرُ. قُلْتُمْ - والذي نفسي بيده - كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» لتركيبت سنن من قبلكم حدّو القذّة بالقذّة^(٩)، حتى إنهم لو

(١) السبعة ص ٢٩٢، والتيسير ص ١١٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٤٧/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤٤٧/٢، وهي قراءة شاذة.

(٤) السبعة ص ٢٩٢، والتيسير ص ١١٣.

(٥) تهذيب اللغة ١/٣٢١، والصحاح (عكف).

(٦) تفسير البغوي ٢/١٩٤، وأخرجه الطبري ١٠/٤٠٩ - ٤١٠ دون قوله: وكانوا نزولاً بالرقّة.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/٤٠٩ من قول ابن جريج.

(٨) سميت بذلك لأنهم كانوا ينطون بها سلاحهم، أي: يعلّقونه بها. النهاية (نوط).

(٩) القذّة: ريشة السهم، جمعها: قُدذ. أي: كما تُقَدّر كل واحدة منهما على قدر صاحبها وتُقطع. يضرب

مثلاً للشيين يستويان ولا يتفاوتان. النهاية (قذذ).

دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه»^(١). وكان هذا في مَخْرَجِهِ إلى حُنَيْن، على ما يأتي بيانه في «براءة» إن شاء الله تعالى^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْطَلُّ مَا كَانُوا يَمَعْلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْمَلَائِكِ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مُهْلِك، والتَّبَار: الهلاك. وكلُّ إناءٍ مُكَسَّر: مُتَّبَرٌّ، وأمر مُتَّبَرٍّ. أي: إنَّ العابد والمعبود مُهْلِكَان. وقوله: ﴿وَيَنْطَلُّ﴾ أي: ذاهبٌ مُضْمَجِلٌ. ﴿مَا كَانُوا يَمَعْلُونَ﴾ «كانوا» صِلَةٌ زائدة.

﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أطلبُ لكم إلهًا غيرَ الله تعالى؟ يقال: بَغَيْتُهُ وبَغَيْتَ له. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْمَلَائِكِ﴾ أي: على عالمي زمانِكُمْ. وقيل: فضَّلهم بإهلاك عدوِّهم وبما خصَّهم به من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنجيتُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤٠﴾

ذَكَرهم مِنْتَهُ. وقيل: هو خطابٌ ليهودِ عصرِ النبي ﷺ. أي: واذكروا إذ أنجينا أسلافكم^(٣)؛ حَسَبَ ما تقدَّم بيانه في سورة البقرة^(٤).

(١) وقع لفظ هذا الحديث (كما أورده المصنف) في أكثر من حديث، فقد أخرجه أحمد (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي ؓ، دون قوله: «حذو القُذَّةُ بالقُذَّة...» إلى آخر الحديث. وقوله: «حذو القُذَّةُ بالقُذَّة» وقع في حديث شداد بن أوس ؓ، أخرجه أحمد (١٧١٣٥)، وقوله: «حتى إنهم لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه» وقع في حديث أبي هريرة ؓ، أخرجه أحمد (٨٣٤٠)، وحديث أبي سعيد الخدري ؓ، أخرجه أحمد (١١٨٠٠)، والبخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) في تفسير الآية (٢٥) منها.

(٣) تفسير الطبري ٤١٣/١٠.

(٤) ٨٠/٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتَهُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتَهُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذكر أن ممّا كرم الله به موسى ﷺ هذا. فكان وعده المناجاة إكراماً له.

﴿وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾، قال ابن عباس ومجاهد ومسروق ﷺ: هي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة^(١). أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة، فلما صامه؛ أنكر خلوف فيه، فاستاك. قيل: يعود خرثوب، فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك، فأفسدته بالسواك. فزيد عليه عشر ليالٍ من ذي الحجة.

وقيل: إن الله تعالى أوحى إليه لما استاك: يا موسى، لا أكلمك حتى يعود فوك إلى ما كان عليه قبل، أما علمت أن رائحة الصائم أحب إلي من ريح المسك. وأمره بصيام عشرة أيام^(٢).

وكان كلام الله تعالى لموسى ﷺ غداة النحر حين فدى إسماعيل من الذبح، وأكمل لمحمد ﷺ الحج^(٣).

وحذفت الهاء من عشر؛ لأن المعدود مؤنث.

والفائدة في قوله: ﴿فِتْمٍ مِيقَتَهُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد علم أن ثلاثين وعشرة

(١) أخرجه الطبري ٤١٤/١٠ - ٤١٥ ، وابن أبي حاتم ١٥٥٦/٥ (٨٩٢٠).

(٢) الوسيط ٤٠٥/٢ ، وزاد المسير ٢٥٥/٣ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ١٥٥٦/٥ (٨٩١٨) بنحوه من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٧٨١/٢ .

أربعون، لثلاً يُتوهَمُ أَنَّ المراد: أتمننا الثلاثين بعشرٍ منها؛ فبيِّن أنَّ العشر سوى الثلاثين^(١). فإن قيل: فقد قال في «البقرة»: «أربعين» [الآية: ٥١]، وقال هنا: «ثلاثين»، فيكون ذلك من البداء^(٢). قيل: ليس كذلك، فقد قال: ﴿وَأَتَمَمْنَهَا بِعَشْرِ﴾ والأربعون، والثلاثون والعشرة؛ قولٌ واحد ليس بمختلف. وإنما قال القولين على تفصيلٍ وتأليف، قال: «أربعين» في قولٍ مؤلف، وقال: «ثلاثين» يعني: شهراً متتابعاً وعشراً. وكلُّ ذلك أربعون؛ كما قال الشاعر: عشر وأربع^(٣)

يعني: أربع عشرة، ليلة البدر. وهذا جائزٌ في كلام العرب.

الثانية: قال علماؤنا: دلَّت هذه الآية على أن ضُربَ الأجل للمواعدة سنةً ماضية، ومعنى قديمٍ أسسه الله تعالى في القضايا، وحكم به للأمم، وعرفهم به مقادير التأنِّي في الأعمال. وأوَّلُ أجلٍ ضربه الله تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات^(٤)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. وقد بيَّنَّا معناه فيما تقدَّم في هذه السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٥٤].

قال ابن العربي^(٥): فإذا ضُربَ الأجلُ لمعنى يحاول فيه تحصيلُ المؤجل، فجاء الأجلُ ولم يتيسَّر، زيدَ فيه تبصرةً ومعذرةً. وقد بيَّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام، فضرب له أجلاً ثلاثين ثم زاده عشراً تنمةً أربعين. وأبطأ موسى عليه السلام في هذه العشرِ على قومه، فما عَقَلُوا جوازَ التأنِّي والتأخُرِ حتى قالوا: إنَّ موسى ضلَّ أو نسي، ونكثوا عهده وبدلوا بعده، وعبدوا إلهاً غيرَ الله.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٤٨/٢، وتفسير الرازي ٢٢٦/١٤.

(٢) يقال: بدأ له في هذا الأمر بدأة - بالمد - أي: نشأ له فيه رأي. الصحاح (بدو).

(٣) قائله أبو نواس، وهو في ديوانه ص ٢٢٣، وهو بتمامه:

كالبدر ليلة عشر وأربع لسُعوده

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٠/٢.

(٥) في أحكام القرآن ٧٨٠/٢.

قال ابن عباس: إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف فيكم هارون، فلما فصل^(١) موسى إلى ربه زاده الله عشراً، فكانت فتشهم في العشر الذي زاده الله^(٢)، بما فعلوه من عبادة العجل، على ما يأتي بيانه^(٣).

ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدرة، كما أن الأجل مقدر. ولا يكون إلا باجتهاد^(٤) من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر؛ من وقت وحال وعمل، فيكون مثل ثلث المدّة السالفة، كما أجل الله لموسى. فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدّة واحدة جاز، ولكن لا بد من التريص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر، قاله ابن العربي.

روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة»^(٥).

قلت: وهذا أيضاً أصل لإعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى. وكان هذا لطفاً بالخلق، ولينفد القيام عليهم بالحق. يقال: أعذر في الأمر، أي: بالغ فيه^(٦)، أي: أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده.

وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثه الرسل إليهم؛ لِيَتِمَّ حُجَّتُهُ عَلَيْهِمْ، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قيل: هم

(١) أي: خرج، الصحاح (فصل).

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٥، عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ص ٣٣٣ من هذا الجزء.

(٤) عبارة أحكام القرآن لابن العربي ٧٨١/٢ (والكلام منه): الزيادة التي تكون على الأجل غير مقدرة، كما أن الأجل غير مقدر، وإنما يكون ذلك باجتهاد...

(٥) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣). قال الحافظ ابن حجر ٢٤٠/١١: المعنى: أنه لم يبق له اعتذار، كأن يقول: لو مُدَّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به.

(٦) الصحاح (عذر).

الرسول. ابن عباس: هو الشَّيب^(١). فإنه يأتي في سِنَّ الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سِنَّ الصُّبا.

وجَعَلَ السَّتين غايةَ الإعذار؛ لأنَّ السَّتين قريبٌ من مُعْتَرَكِ العباد^(٢)، وهو سِنَّ الإناية والخشوع والاستسلام لله، وترقُبِ المَنِيَّةِ ولقاءِ الله، ففيه إعذارٌ بعد إعذار^(٣)؛ الأوَّلُ بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والثاني بالشَّيب، وذلك عند كمالِ الأربعين، قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. فذكر عَزَّ وجلَّ أنَّ مَنْ بلغ أربعين، فقد آنَّ له أن يعلمَ مقدارَ نِعَمِ الله عليه وعلى والديه ويشكرها.

قال مالك: أدركت أهلَ العلمِ ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويُخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم؛ اعتزلوا الناس.

الثالثة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنَّ التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله تعالى: «ثلاثين ليلةً»، لأنَّ الليالي أوائلُ الشهور. وبها كانت الصحابةُ ﷺ تُخبر عن الأيام، حتى روي عنها أنها كانت تقول: صُمْنَا خمساً مع رسول الله ﷺ. والعجم تخالف في ذلك، فتحسب بالأيام؛ لأنَّ معولها على الشمس. ابن العربي^(٤): وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك؛ ولهذا قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾. يقال: أرخت تاريخاً، وورخت توريقاً، لغتان^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ المعنى: وقال موسى - حين أراد المضيَّ للمناجاة والمغيب فيها - لأخيه هارون: كن خليفتي^(٦)،

(١) أخرجه البيهقي ٣/ ٣٧٠.

(٢) في (د) و(ز): العباد. وسيذكر المصنف هذا المعنى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة فاطر، وفيه: معترك المنايا، بدل: معترك العباد.

(٣) ذكر هذا الكلام الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٤٠ ونسبه لابن بطال.

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٧٨١، وما قبله منه.

(٥) الصحاح (أرخ).

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.

فدلّ على النّياية.

وفي «صحيح» مسلم: عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لعليّ حين خلفه في بعض مغازيه: «أما تَرْضَى أن تكونَ مني بمنزلة هارونَ من موسى، إلاّ أنه لا نبيّ بعدي»^(١).

فاستدلّ بهذا الروافضُ والإماميةُ وسائرُ فرقِ الشيعة على أن النبيّ ﷺ استخلف عليّاً على جميع الأمة، حتى كَفَر الصحابةُ الإماميةُ - قَبَّحهم الله - لأنهم عندهم تركوا العملَ الذي هو النصُّ على استخلاف عليّ، واستخلفوا غيرهَ بالاجتهاد منهم. ومنهم من كَفَر عليّاً إذ لم يَقُمْ بطلب حَقِّه. وهؤلاء لا شكَّ في كُفْرهم وكُفْر مَنْ تَبِعهم على مَقالتهم^(٢). ولم يعلموا أن هذا استخلافٌ في حياة - كالأوكالة التي تنقضي بعزل الموكلِ أو بموته - لا يقتضي أنه مُتَمادٍ بعد وفاته، فينحلُّ على هذا ما تعلَّق به الإماميةُ وغيرهم^(٣). وقد استخلف النبيُّ ﷺ على المدينة ابنَ أمِّ مكتومٍ وغيره^(٤)، ولم يُلْزم من ذلك استخلافه دائماً بالاتِّفاق. على أنه قد كان هارونُ شُرْكَ مع موسى في أصل الرسالة، فلا يكونُ لهم فيه على ما راموه دلالة^(٥). والله الموقِّق للهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمرٌ بالإصلاح. قال ابنُ جُريج: كان من الإصلاح أن يزجرَ السامريَّ ويغيِّر عليه^(٦). وقيل: أي: أُرْفُق بهم، وأصْلِح أمرهم، وأصْلِح نفسك، أي: كُنْ مُصلِحاً. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تَسْلُكْ سَبِيلَ العاصيين، ولا تكن عوناً للظالمين.

(١) صحيح مسلم (٢٤٠٤)، وهو عند أحمد (١٥٨٣) و(١٦٠٨)، والبخاري (٤٤١٦). وقد سلف ٣٩٨/١.

(٢) المفهم ٢٧٣/٦.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥٠/٢.

(٤) سلف ٤٠٠/١.

(٥) المفهم ٢٧٣/٦.

(٦) المحرر الوجيز ٤٥٠/٢، وأخرجه الطبري ٤١٦/١٠ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أي: في الوقت الموعود. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أسمعته كلامه من غير واسطة. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ﴾ سأل النَّظَرَ إليه، واشتاق إلى رؤيته لَمَّا أسمعته كلامه. ف ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ أي: في الدنيا.

ولا يجوز الحَمْلُ على أنه أراد: أرني آيةً عظيمةً لأنظَرَ إلى قُدرتك؛ لأنه قال: «إليك» وقال: «لن تراني». ولو سأل آيةً لأعطاه الله ما سأل، كما أعطاه سائر الآيات. وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنَعٌ عن طلب آيةٍ أخرى، فبطل هذا التأويل^(١).

﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ ضَرَبَ له مِثَالاً مِمَّا هو أَقْوَى مِنْ بِنِيَّتِهِ وَأَثْبَتُ، أي: فَإِنِ ثَبَّتَ الْجَبَلُ وَسَكَنَ؛ فَسَوْفَ تَرَانِي، وَإِنِ لَمْ يَسْكُنْ؛ فَإِنَّكَ لَا تُطِيقُ رُؤْيِي؛ كَمَا أَنَّ الْجَبَلَ لَا يُطِيقُ رُؤْيِي.

وذكر القاضي عياض^(٢) عن القاضي أبي بكر بن الطَّيِّبِ ما معناه: أن موسى عليه السلام رأى الله، فلذلك خَرَّ صَعِقًا، وَأَنَّ الْجَبَلَ رَأَى رَبَّهُ، فَصَارَ دَكًّا بِإِدْرَاكِ خَلْقِهِ اللَّهُ لَهُ. وَاسْتَنْبَطَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾. ثم قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ و«تجلَّى» معناه: ظهر، مِنْ قَوْلِكَ: جَلَوْتُ الْعُرُوسَ، أي: أبرزتها. وَجَلَوْتُ السَّيْفَ: أبرزته مِنْ الصَّدَا، جِلَاءً فِيهِمَا. وَتَجَلَّى الشَّيْءُ: انْكَشَفَ^(٣). وَقِيلَ: تَجَلَّى أَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ؛ قَالَهُ قُطْرُبٌ وَغَيْرُهُ.

(١) تفسير الرازي ٢٣٠/١٤.

(٢) في الشفا ١/٣٨٥.

(٣) الصحاح (جلو).

وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة: «دَكَّا»^(١)، يدلُّ على صِحَّتِهَا ﴿دَكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، وأنَّ الجبل مذكَّر. وقرأ أهل الكوفة: «دَكَّاء»^(٢)، أي: جعله مِثْلَ أرضٍ^(٣) دَكَّاء، وهي الناتئة لا تَبْلُغُ أن تكونَ جبلاً. والمذكَّر: أدكُّ، وجمع دَكَّاء: دَكَّاءات ودكُّ، مثل: حَمْرَوات وحُمُرٌ^(٤). قال الكِسائي: الدُّكُّ من الجبال: العِراض، واحدها: أدكُّ. غيرُه: والدَّكَّاءات جمع دَكَّاء: رَوَابٍ من طينٍ ليست بالغلَظ. والدَّكُّدكُّ كذلك من الرمل: ما التبدَّ بالأرض فلم يرتفع. وناقَة دَكَّاء: لا سَنَامٌ لها^(٥).

وفي التفسير: فساخ الجبلُ في الأرض، فهو يذهب فيها حتى الآن. وقال ابن عباس: جعله تراباً. عَطِيَّةُ العَوْفي: رملاً هائلاً.

﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أي: مَغْشِيًا عليه، عن ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل: ميتاً^(٦)؛ يقال: صَعِقَ الرجل فهو صَعِقٌ. وصَعِقَ فهو مصعوق^(٧). وقال قتادة والكلبي: حَرَّ موسى صَعِقًا يومَ الخميس يومَ عَرَفَةَ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يومَ النَّحْرِ^(٨).

﴿فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: من مسألة الرؤية في الدنيا^(٩). وقيل: سأل من غير استئذان؛ فلذلك تاب^(١٠). وقيل: قاله على جهة الإنابة إلى الله

(١) قرأ بها نافع المدني وأبو عمرو البصري، ووافقهما ابن كثير المكي وابن عامر الشامي وعاصم الكوفي.

السبعة ص ٢٩٣، والتيسير ص ١١٣.

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي من أهل الكوفة، وأما عاصم الكوفي فقرأ: «دَكَّا»، كما سلف.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): الأرض.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٤٨/٢، وينظر معاني القرآن له ٧٥/٣.

(٥) مجمل اللغة ٣١٨/١.

(٦) تفسير البغوي ١٩٧/٢ - ١٩٨، وتنظر هذه الآثار في تفسير الطبري ٤٢٧/١٠ - ٤٢٨.

(٧) تهذيب اللغة ١٧٨/١.

(٨) تفسير البغوي ١٩٨/٢ عن الكلبي.

(٩) أخرجه الطبري ٤٣٤/١٠.

(١٠) الوسيط ٤٠٨/٢.

والخشوع له عند ظهور الآيات^(١).

وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون. وأيضاً عند أهل السنة والجماعة الرؤية جائزة. وعند المُبتدعة سأل لأجل القوم لبيّن لهم أنها غير جائزة^(٢)، وهذا لا يقتضي التوبة. فقيل: أي: تبّث إليك من قتل القنطي. ذكره القشيري. وقد مضى في «الأنعام»^(٣) بيان أن الرؤية جائزة.

قال عليّ بن مهديّ الطبري^(٤): لو كان سؤال موسى مستحيلاً، ما أقدم عليه مع معرفته بالله، كما لم يَجْزُ أن يقولَ له: يا ربّ، ألكِ صاحبةٌ وولد؟. وسيأتي في «القيامة»^(٥) مذهب المعتزلة والردّ عليهم، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: من قومي. وقيل: من بني إسرائيل في هذا العصر. وقيل: بأنك لا تُرى في الدنيا؛ لوعدك السابق في ذلك^(٦).

وفي الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُخَيِّرُوا بين الأنبياء، فإنَّ الناسَ يَضَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فأرفع رأسي، فإذا أنا بموسى أخذُ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أصعقَ فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي، أو حوسبَ بِضَعْقَتِهِ الأولى»، أو قال: «كَفَّتْهُ ضَعْقَتُهُ الأولى»^(٧).

(١) مجمع البيان ١٧/٩ - ١٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤٥٢/٢.

(٣) ٤٨٢/٨ - ٤٨٥.

(٤) علي بن محمد بن مهدي، أبو الحسن، تلميذ أبي الحسن الأشعري، كان من المُبرزين في علم الكلام، له كتاب «تأويل الأحاديث المشكولات الواردة في الصفات»، وهو من طبقة القفال الشاشي. طبقات الشافعية الكبرى ٤٦٦/٣.

(٥) في تفسير الآيتين (٢٢ و ٢٣).

(٦) تفسير الطبري ٤٣٤/١٠ - ٤٣٥، والمحرر الوجيز ٤٥٢/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٥٢٦/١١ - واللفظ له - وأحمد (١١٢٨٦)، والبخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري. وأخرجه أحمد (٧٥٨٦)، والبخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة. وسلفت القطعة الأولى منه ٢٥٣/٤.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة^(١) عن كعب قال: إن الله تبارك وتعالى قَسَمَ كلامه ورؤيته بين محمدٍ وموسى صلى الله وسلم عليهما، فكلمه موسى مرتين، وراه محمدٌ ﷺ مرتين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْؤُوسَ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْؤُوسَ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ الاصطفاء: الاجتباء، أي: فضلتك. ولم يقل: على الخلق؛ لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه، وقد كلم الملائكة، وأرسله وأرسل غيره^(٢). فالمراد: «على الناس» المرسل إليهم. وقرأ: «برسالتني» على الأفراد نافع وابن كثير. والباقون بالجمع^(٣). والرسالة مصدر، فيجوز أفرادها. ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسائل^(٤) فاختلفت أنواعها، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه، كما قال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَيْرِ﴾ [لقمان: ١٩]، فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين، ووحد في قوله: «لصوت» لما أراد به جنساً واحداً من الأصوات^(٥). ودل هذا على أن قومه لم يشاركه في التكليم ولا واحد من السبعين، كما بيّناه في «البقرة»^(٦).

قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ﴾ إشارة إلى القناعة، أي: إقنع بما أعطيتك^(٧). ﴿وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك، يقال: دابةٌ

(١) في المصنف ٥٢٧/١١.

(٢) تفسير الرازي ٢٣٦/١٤.

(٣) السبعة ص ٢٩٣، والتيسير ص ١١٣.

(٤) في (م): الرسالة.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٧٦/١.

(٦) ١١٤/٢.

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): آتيتك.

شُكُور: إذا ظَهَرَ عليها من السَّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلْفِ^(١). والشاكر معرَّضٌ للمزيد كما قال: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ويُروى أنَّ موسى عليه السلام مكثَ بعد أن كلَّمه اللهُ تعالى أربعين ليلةً لا يراه أحدٌ إلا مات من نور الله عزَّ وجلَّ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوذِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد التوراة. وروى في الخبر أنه قبضَ عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه، فمرَّ به في العُلا حتى أدناه، حتى سَمِعَ صَرِيْفَ القلم حين كتب اللهُ له الألواح، ذكره الترمذيُّ الحكيم^(٣).

وقال مجاهد: كانت الألواح من زُمُرْدَةٍ خضراء. ابن جُبَيْر: من ياقوتة حمراء. أبو العالية: من زَبْرَجِد. الحسن: من خشب، نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صماء، لَيْنُهَا اللهُ لموسى عليه السلام، فقطَّعها بيده، ثم شَقَّها بأصابعه، فأطاعته كالحديد لداود. قال مقاتل: أي: كتبنا له في الألواح كَنْقُشَ الخاتم. الربيع بن أنس: نزلت التوراة، وهي سبعون وِقرَ بعير. وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف، إذ هي مكتوبةٌ بأمره، كتبها جبريلُ بالقلم الذي كتبَ به الذكر. واستمِدَّ من نهر النور^(٤). وقيل: هي كتابةٌ أظهرها اللهُ وخلقها في الألواح.

وأصل اللُّوح: اللُّمَعُ^(٥) بفتح اللام. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ

(١) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ١٢/١٠، ومجمل اللغة ١٠/١٠٥١.

(٢) أخرج هذا القول ابن عدي في الكامل ٤/١٦١٨، والحاكم ٢/٥٧٦ من قول عبد الرحمن بن معاوية أبي الحويرث قال الذهبي في تلخيص المستدرک: إسناده لَيِّن.

(٣) لم نقف عليه في المطبوع من نواذر الأصول، وأخرج الطبري ١/٦٦٧ نحوه من قول أبي العالية.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٥٦٢ - ١٥٦٣، والنكت والعيون ٢/٢٥٩ - ٢٦٠، والوسيط ٢/٤٠٨ - ٤٠٩، وتفسير البغوي ٢/١٩٩.

(٥) في (ظ) و(م): لوح، والمثبت من (خ) و(د) و(ز). وينظر معجم مقاييس اللغة ٥/٢٢٠.

تَحْفُوظٍ ﴿ البروج: ٢١-٢٢. فكان اللُّوحُ تلوح فيه المعاني ^(١). ويُروى أنها لوحان، وجاء بالجمع؛ لأنَّ الاثنينِ جَمْعٌ ^(٢). ويقال: رجلٌ عظيمُ الألواح، إذا كان كبيرَ عَظْمِ اليدين والرَّجلين ^(٣).

ابنُ عباس: وتكسَّرت الألواحُ حين ألقاها، فرفعت إلاً سُدَّسَها. وقيل: بقي سُبُعُها ورفعت سِتَّةَ أسباعِها. فكان في الذي رُفِعَ تفصيلُ كلِّ شيءٍ، وفي الذي بقي الهدى والرحمة ^(٤). وأسند أبو نعيم الحافظُ عن عمرو بن دينار قال: بلغني أنَّ موسى ابنَ عمرانَ نبيَّ اللهِ ﷺ صام أربعين ليلةً، فلمَّا ألقى الألواحَ تكسَّرت، فصام مثلها فرُدَّت إليه ^(٥).

ومعنى «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»: مما يُحتاج إليه في دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ^(٦)، عن الثوري وغيره. وقيل: هو لفظٌ يُذكر تفخيماً ولا يُراد به التعميم؛ تقول: دخلت السوقَ فاشتريتُ كلَّ شيءٍ. وعند فلانٍ كلُّ شيءٍ. و﴿تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحاف: ٢٥]. ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. وقد تقدَّم ^(٧).

﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل شيءٍ أمروا به من الأحكام، فإنه لم يكن عندهم اجتهادٌ، وإنما خصَّ بذلك أُمَّةَ محمد ﷺ.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حَذَفُ، أي: فقلنا له: خُذْهَا بِقُوَّةٍ؛ أي: بجِدِّ ونشاط. نظيره: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] وقد تقدَّم ^(٨).

(١) النكت والعيون ٢/٢٦٠.

(٢) زاد المسير ٣/٢٥٨.

(٣) تهذيب اللغة ٥/٢٤٨.

(٤) النكت والعيون ٢/٢٦٣ - ٢٦٤.

(٥) حلية الأولياء ٣/٣٤٩.

(٦) النكت والعيون ٢/٢٦٠، زاد المسير ٢/٢٥٨.

(٧) ٣٣٨/١.

(٨) ١٦٥/٢.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَاخُدُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي، ويتدبروا الأمثال والمواعظ. نظيره: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]. وقال: ﴿فَيَسْبِغُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. والعفو أحسن من الاقتصاص، والصبر أحسن من الانتصار. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وأذونها المباح^(١).

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، قال الكلبي: «دار الفاسقين» ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود، والقرون الذين^(٢) أهلكوا. وقيل: هي جهنم؛ عن الحسن ومجاهد. أي: فلتكن منكم على ذكر، فاخذروا أن تكونوا منها. وقيل: أراد بها مصر، أي: سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم؛ عن ابن جبير. قتادة: المعنى: سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها، يعني الشام^(٣). وهذان القولان يدلُّ عليهما ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية، وقد تقدّم^(٤). وقرأ ابن عباس وقسامة بن زهير: «سأورثكم»^(٥) من «ورث». وهذا ظاهر.

وقيل: الدار: الهلاك، وجمعه أدوار. وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون، أوحى إلى البحر أن اقف بأجسادهم إلى الساحل، قال: ففعل، فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم هلاك الفاسقين^(٦).

(١) تفسير البغوي ٢/٢٠٠، وزاد المسير ٣/٢٥٩.

(٢) في (خ) و(د) و(ز) و(م): التي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لتفسير البغوي ٢/٢٠٠ والكلام منه.

(٣) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٢/٢٦١، والمحرد الوجيز ٢/٤٥٣، والوسيط ٢/٤٠٩ - ٤١٠،

وتفسير البغوي ٢/٢٠٠، وزاد المسير ٣/٢٦٠.

(٤) ص ٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٦. قال الزمخشري في الكشاف ٢/١١٧: هي قراءة حسنة، يصححها قوله:

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ وينظر البحر ٤/٣٨٩. وقسامة بن زهير: المازني التميمي

البصري، روى عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما، توفي بعد الثمانين. تهذيب

التهذيب ٣/٤٤٠.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٥٦٦ (٨٩٨٠).

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال قتادة:
سامنهم فهم كتابي، وقاله سفيان بن عيينة. وقيل: سأصريفهم عن الإيمان بها^(١).
وقيل: سأصريفهم عن نفعها^(٢)، وذلك مجازاة على تكبرهم؛ نظيره: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦١]. والآيات على هذا: المعجزات، أو الكتب المنزلة. وقيل:
خلق السماوات والأرض، أي: أصرفهم عن الاعتبار بها^(٣). ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: يَرُونَ
أنهم أفضل الخلق، وهذا ظنٌ باطل، فلهذا قال: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فلا يتبعون نبياً، ولا
يضعون إليه لتكبرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يعني: هؤلاء المتكبرين. أخبر عنهم أنهم
يتركون طريق الرشد، ويتبعون سبيل الغي والضلال؛ أي: الكفر؛ يتخذوه ديناً. ثم
علل فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ذلك الفعل الذي فعلته بهم بتكذيبهم.
﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: كانوا في تركهم تدبر الحق كالغافلين. ويحتمل أن
يكونوا غافلين عما يُجازون به؛ كما يقال: ما أغفل فلاناً عما يُرادُ به^(٤).

وقرأ مالك بن دينار: «وإن يروا» بضم الياء في الحرفين؛ أي: يُفعل ذلك بهم^(٥).

(١) زاد المسير ٣/٢٦٠، وقول سفيان أخرجه الطبري ١٠/٤٤٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٢/٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/٤٤٣ من قول ابن جريج.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/٧٩، وزاد المسير ٣/٢٦١.

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/١١٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٥٥٤.

وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة: «سَبِيلَ الرُّشْدِ» بضمّ الراء وإسكان الشين^(١). وأهل الكوفة إلا عاصماً: «الرَّشْدِ» بفتح الراء والشين.

قال أبو عبيد: فرّق أبو عمرو بين الرُّشد والرَّشْد فقال: الرُّشد في الصَّلاح. والرَّشْد في الدِّين.

قال النحاس^(٢): سيبويه يذهبُ إلى أنّ الرُّشد والرَّشْد مثلُ السُّخْطِ والسَّخْطِ، وكذا قال الكسائي.

والصحيحُ عن أبي عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد؛ قال إسماعيلُ بن إسحاق: حدّثنا نصرُ بن عليّ، عن أبيه، عن أبي عمرو بن العلاء قال: إذا كان الرُّشد وسطَ الآية فهو مُسَكَّنٌ، وإذا كانَ رأسَ الآية فهو محرَّكٌ.

قال النحاس: يعني برأسِ الآية نحو ﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، فهما عنده لغتان بمعنى واحد؛ إلاّ أنّه فتحَ هذا ليتفقَ الآيات. ويقال: رَشَدَ يَرُشِدُ، ورَشِيدٌ يَرُشِدُ. وحكى سيبويه رَشَدَ يَرُشِدُ^(٣). وحقيقة الرُّشد والرَّشْد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يُريد، وهو ضدُّ الحَيِّية.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا الَّذِي يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد خروجه إلى الطُّور. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ هذه قراءةُ أهلِ المدينة وأهلِ البصرة^(٤). وقرأ أهلُ الكوفة إلاّ عاصماً: «من

(١) قرأ بها من أهل المدينة نافع، ومن أهل البصرة أبو عمرو، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وعاصم من الكوفيين. السبعة ص ٢٩٣، والتيسير ص ١١٣.

(٢) في إعراب القرآن ١٤٩/٢ - ١٥٠، وما قبله منه.

(٣) لم تقف عليه.

(٤) قرأ بها من أهل المدينة نافع، ومن أهل البصرة أبو عمرو، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي وعاصم الكوفي. السبعة ص ٢٩٤، والتيسير ص ١١٣.

حَلِيهِمْ» بكسر الحاء. وقرأ يعقوبُ: «من حَلِيهِمْ» بفتح الحاءِ والتخفيف^(١). قال النحاس^(٢): جمع حَلِيٍّ: حُلِيٍّ وحَلِيٍّ؛ مثلُ نَذِيٍّ ونُذِيٍّ ونُذِيٍّ. والأصلُ: حُلُوي، ثم أدغمت الواو في الياء، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسرت الحاء لكسرة اللام، وضُمَّها على الأصل.

﴿عَجَلًا﴾ مفعول. ﴿جَسَدًا﴾ نعتٌ أو بدل. ﴿لَهُ خُورًا﴾ رفع بالابتداء. يقال: خار يَخُورُ خُورًا: إذا صاح. وكذلك جَارَ يَجَارُ جُورًا^(٣). ويقال: خَوِرَ يَخُورُ خَوْرًا: إذا جَبُنَ وَضَعُفَ.

ورُوي في قصص العجل^(٤): أَنَّ السَّامِرِيَّ - واسمه موسى بن ظَفَر - ينسب إلى قرية تدعى سَامِرَةَ. وُلد عام قَتْلِ الأبناء، وأخفته أمه في كهف جبلٍ فعذاه جبريلُ؛ فعرفه لذلك، فأخذ - حينَ عبرَ البحرَ على فرسٍ وَدِيقٍ^(٥) ليتقدَّم فرعونَ في البحر - قبضةً من أثر حافر الفرس. وهو معنى قوله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦].

وكان موسى وعد قومَه ثلاثين يوماً، فلما أبطأ في العشر الزائد، ومضت ثلاثون ليلةً قال لبني إسرائيل - وكان مطاعاً فيهم -: إِنَّ معكم حُلِيًّا من حُلِيٍّ آل فرعون - وكان لهم عيدٌ يتزينون فيه، ويستعيرون من القَبْطِ الحُلِيَّ، فاستعاروا لذلك اليوم، فلما أخرجهم الله من مصر، وغرَّق القَبْطَ، بَقِيَ ذلك الحُلِيُّ في أيديهم - فقال لهم السَّامِرِيُّ: إِنَّه حرامٌ عليكم؛ فهاتوا ما عندكم فنحرقه.

وقيل: هذا الحُلِيُّ ما أخذَه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأنَّ هارون قال لهم: إن الحُلِيَّ غنيمَةٌ، وهي لا تحلّ لكم؛ فجمعها في حُفْرَةٍ حَفَرها، فأخذها السَّامِرِيُّ.

(١) ويعقوب من العشرة. النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٧٢.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٥٠، وما قبله منه.

(٣) في النسخ خار يخار خواراً، والمثبت من (م) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١ والكلام منه.

(٤) تنظر هذه القصص في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها، وعرائس المجالس ص ٢١٠ - ٢١١.

(٥) هي التي تشتهي الفحل. النهاية (ودق).

وقيل: استعاروا الحُلِيِّ ليلة أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القَبِظَ أَنَّ لَهُمْ عرساً أو مجتمعاً، وكان السَّامِرِيُّ سَمِعَ قَوْلَهُمْ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلاً جسداً، أي: مُضْمَتًا، غير أنهم كانوا يسمعون منه خواراً.

وقيل: قلبه الله لحماً ودماً^(١). وقيل: إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب في النار على الحُلِيِّ؛ صار عجلاً له خوار، فخارَ خَوْرَةَ واحدة ولم يُثَنَّ^(٢)، ثم قال للقوم: ﴿هَذَا إِلَهَكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. يقول: نَسِيَهُ هَاهُنَا وَذَهَبَ يَطْلُبُهُ فَضَلَّ عَنْهُ، فتعالوا نعبذ هذا العجل. فقال الله لموسى وهو يُناجيه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]. فقال موسى: يا رب، هذا السَّامِرِيُّ أخرج لهم عجلاً من حُلِيِّهِمْ، فمن جعل له جسداً؟ - يريد اللحم والدم - ومن جعل له خواراً؟ فقال الله سبحانه: أنا، فقال: وعزتك وجلالك، ما أضلهم غيرك. قال: صدقت يا حَكِيمَ الْحُكَمَاءِ^(٣). وهو معنى قوله: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال القفال: كان السامريُّ احتالَ بأن جوفَ العجل، وكان قابلَ به الرِّيح، حتى جاء من ذلك ما يُحاكي الخوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح في الجسد من التراب الذي كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل. وهذا كلامٌ فيه تهافتٌ، قاله القشيري.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْفِيهِمْ﴾ بَيَّنَّ أَنَّ الْمَعْبُودَ يَجِبُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْكَلَامِ. ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى حُجَّة^(٤). ﴿أَتَّخَذُوهُ﴾ أي: إلهاً. ﴿وَكَاوُوا﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٣٦ عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/١٥٦٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١/٦٧١ عن السدي بنحوه، وينظر عرائس المجالس ص ٢١٢. وهذه الأخبار من الإسرائيليات. قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٩/١١٠: ما وقع في القصص أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب؛ فهو من وضع القصاصين.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٧٨.

ظَلِيمِينَ ﴿١﴾ أي: لأنفسهم فيما فعلوا من اتّخاذه. وقيل: وصاروا ظالمين، أي: مشركين^(١) لجعلهم العجل إلهاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بعد عود موسى من الميقات. يقال للنادم المُتَحِير: قد سَقَطَ في يده.

قال الأخفش^(٢): يقال: سَقَطَ في يده، وأَسَقَطَ. وَمَنْ قَالَ: «سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ» عَلَى بِنَاءِ الْفَاعِلِ^(٣)؛ فَالْمَعْنَى عِنْدَهُ: سَقَطَ النَّدَمُ؛ قَالَه الْأَزْهَرِيُّ وَالنَّحَّاسُ وَغَيْرُهُمَا^(٤).

والندمُ يكون في القلب، ولكنّه ذَكَرَ اليَدَ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ تَحَصَّلَ عَلَى شَيْءٍ: قَدْ حَصَلَ فِي يَدِهِ أَمْرٌ كَذَا؛ لِأَنَّ مَبَاشِرَةَ الْأَشْيَاءِ فِي الْغَالِبِ بِالْيَدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ [الحج: ١٠]. وَأَيْضاً: النَّدَمُ وَإِنْ حَلَّ بِالْقَلْبِ^(٥) فَآثَرُهُ يَظْهَرُ فِي الْبَدَنِ^(٦)؛ لِأَنَّ النَّادِمَ يَعْضُ يَدَهُ، وَيَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أَي: نَدِمَ. ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ أَي: مِنَ النَّدَمِ. وَالنَّادِمُ يَضَعُ ذَقَنَهُ فِي يَدِهِ^(٧).

وقيل: أصله من الاستئسار، وهو أن يضرب الرجل الرجل، أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتفه؛ فالمرمى مسقوط به في يد الساقط^(٨).

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤١١/٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في معاني القرآن ٥٣٢/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٥١/٢.

(٣) قرأ بها ابن السمينغ. القراءات الشاذة ص ٤٦.

(٤) تهذيب اللغة ٣٩٢/٨، وإعراب القرآن ١٥١/٢، ومعاني القرآن للزجاج ٣٧٨/٢.

(٥) في (م): في القلب.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣٧٨/٢.

(٧) مجمع الأمثال للميداني ٣٣١/١.

(٨) تفسير الطبري ٤٤٨/١٠.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: انقلبوا بمعصية الله.

﴿قَالُوا لَيْن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخذوا في الإقرار بالعبودية والاستغفار. وقرأ حمزة والكسائي: «لئن لم ترحمننا ربنا وتغفر لنا» بالتاء على الخطاب، وفيه معنى الاستغاثة والتضرع والابتهاال في السؤال والدعاء. «ربنا» بالنصب على حذف النداء، وهو أيضاً أبلغ في الدعاء والخضوع، فقراءتهما أبلغ في الاستكانة والتضرع، فهي أولى^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رَّبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَكُن مَعَ الْآعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ لم ينصرف «غضبَانَ» لأن مؤنثه غضبى، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفي^(٢) التانيث في قولك: حمراء. وهو نصب على الحال.

«وَأَسِفًا»: شديد الغضب. قال أبو الدرداء: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك^(٣). وهو أسيف وأسيف وأسفان وأسوف. والأسيف أيضاً: الحزين.

ابن عباس والسدي: رجع حزيناً من صنيع قومه^(٤). وقال الطبري: أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان^(٥).

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٤٧٧، وينظر السبعة ص ٢٩٤، والتيسير ص ١١٣.

(٢) في (ظ): ألف والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/١٥١.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/٤٥٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/٤٥٠.

(٥) تفسير الطبري ١٠/٤٤٩.

ابن العربي: وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضباً، لكنّه كان سريع الفَيْئَة؛ فتلك بتلك. قال ابن القاسم: سمعتُ مالكا يقول: كان موسى عليه السلام إذا غَضِبَ طلع الدُّخَانُ من قَلْنُسُوْتِهِ، ورفعَ شعْرُ بدنِه جُبَيْتَهُ^(١). وذلك أنّ الغضبَ جَمْرَةٌ تتوقّد في القلب؛ ولأجله أمر النبي ﷺ من غضب أن يضطجع، فإن لم يذهب غضبه اغتسل^(٢)؛ فيُخِمِدُهَا اضطجاعه ويطفئها اغتساله^(٣). وسُرْعَةُ غضبه كان سبباً لصكّه مَلَكَ الموت ففقاً عينه. وقد تقدّم في «المائدة»^(٤) ما للعلماء في هذا.

وقال الترميذي الحكيم^(٥): وإنما استجازَ موسى عليه السلام ذلك لأنه كليمُ الله؛ كأنه رأى أن من اجترأ عليه أو مدَّ إليه يداً بأذى فقد عظم الخطب فيه. ألا ترى أنه احتجَّ عليه فقال: من أين تنزعُ روحي؟ أمن فيمي وقد ناجيتُ به ربي! أم من سمعي وقد سمعت به كلام رَبِّي! أم من يدي وقد قبضتُ منه^(٦) الألواح! أم من قدمي وقد قمتُ بين يديه أكلّمه بالظُّور! أم من عيني وقد أشرقَ وجهي لنوره. فرجعَ إلى رَبِّه مُفْحَمًا.

وفي «مُصَنَّف» أبي داود عن أبي ذرٍّ قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غَضِبَ أحدكم وهو قائمٌ فليجلس، فإن ذهبَ عنه الغضبُ؛ وإلا فليضطجع»^(٧). وروى أيضاً عن أبي وائل القاصِّ قال: دخلنا على عروة بن محمد السَّعْدِيّ^(٨) فكلّمه رجلٌ

(١) سلف ٤٠٧/٧، وهو من الإسرائيليات.

(٢) لم نقف عليه بهذا السياق، والقسم الأول منه سيرد قريباً، والقسم الثاني أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٣٠/٢ من حديث معاوية رضي الله عنه، وفي إسناده ياسين بن معاذ الزيات. قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي وابن الجنيدي: متروك. ميزان الاعتدال ٣٥٨/٤. وتحرف في مطبوع الحلية: ياسين (يعني ابن معاذ) عن عبد الله، إلى: ياسين بن عبد الله.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٢/٢ - ٧٨٣.

(٤) ١٣١/٦.

(٥) في نوادر الأصول ص ٤٣.

(٦) في (ظ): بها.

(٧) سنن أبي داود (٤٧٨٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٣٤٨).

(٨) عامل عمر بن عبد العزيز على اليمن، وكان من صالح العُمَّال، ينظر تهذيب الكمال ٣٢/٢٠.

فأغضبه؛ فقام، ثم رجع وقد توضأ، فقال: حدّثني أبي عن جدّي عطية قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تَطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»^(١).

قوله تعالى: ﴿يَسْمَا خَلَقْتُنِي مِنْ بَعْدِي﴾ ذمّ منه لهم، أي: بنس العمل عملتم^(٢) بعدي. يقال: خلّفه، بما يكره، ويقال في الخير أيضاً؛ يقال منه: خلّفه بخير أو بشر في أهله وقومه بعد شخصه^(٣).

﴿أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: سبقتموه. والعجلة: التقدّم بالشيء قبل وقته، وهي مذمومة. والسرعة: عمل الشيء في أوّل أوقاته، وهي محمودة^(٤)؛ قال يعقوب: يقال: عجلت الشيء: سبقته، وأعجلت الرجل: استعجلته^(٥)، أي: حملته على العجلة. ومعنى «أمر ربكم» أي: ميعاد ربكم، أي: وعد أربعين ليلة. وقيل: أي: تعجلتم سخط ربكم. وقيل: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ﴾ فيه مسالتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ﴾ أي: ممّا اعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه في إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جبّير^(٧). ولهذا قيل: «ليس الخبر كالمعاينة»^(٨). ولا التفات لما

(١) سنن أبي داود (٤٧٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٧٩٨٥) وإسناده ضعيف.

(٢) في (خ): عملكم، وفي (ظ): عملتموه.

(٣) تفسير البغوي ٢/٢٠٢. وقوله: شخصه؛ في القاموس: شخص من بلد إلى بلد: ذهب.

(٤) تفسير الرازي ١١/١٥، وعزاه للواحدي.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٥١/٢.

(٦) في (خ) و(م): من ربكم. وينظر تفسير الرازي ١١/١٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/٤٥١، من قول سعيد بن جبّير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) هو حديث عن النبي ﷺ؛ أخرجه أحمد (١٨٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وسلف ٣٠٩/٤.

رُوي عن قتادة - إن صحَّ عنه، ولا يصحُّ - أن إلقاء الألواح إنما كان لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد ﷺ، ولم يكن ذلك لأُمَّته^(١). وهذا قول رديء لا ينبغي أن يُضاف إلى^(٢) موسى ﷺ^(٣).

وقد تقدّم عن ابن عباس ؓ أن الألواح تكسّرت، وأنه رُفِعَ منها التفصيل وبقيَ فيها الهدى والرحمة^(٤).

الثانية: وقد استدلَّ بعضُ جهّال المتصوّفة بهذا على جواز رمي الثياب إذا اشتدَّ طَرَبُهُم على المَغْنَى. ثم منهم من يرمي بها صحاحاً، ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها؛ قال: هؤلاء في غيبة فلا يلامون؛ فإنَّ موسى عليه السلام لما غلب عليه الغمُّ بعبادة قومه العجل، رمى الألواح فكسرها، ولم يدر ما صنع.

قال أبو الفرج الجوزي^(٥): من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رمي كاسر؟ والذي ذكر في القرآن: إلقاءها، فمن أين لنا أنها تكسّرت؟ ثم لو قيل: تكسّرت؛ فمن أين لنا أنه قصد كسرها؟ ثم لو صحّحنا ذلك عنه قلنا: كان في غيبة، حتى لو كان بين يديه بحرٌ من نارٍ لخاصه. ومن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المَغْنَى من غيره، ويحدّثون من بئر لو كانت عندهم. ثم كيف تُقاسُ أحوالُ الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء.

وقد سُئِلَ ابنُ عَقِيل^(٦) عن تواجدِهِم وتخريق ثيابهم فقال: خطأ وحرام، وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن إضاعة المال^(٧). فقال له قائلٌ: فإنَّهم لا يعقلون ما يفعلون. فقال:

(١) أخرجه الطبري ٤٥٢/١٠. قال ابن كثير في تفسيره ٤٧٧/٣: كأنه تلقأ قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة.

(٢) في (خ) و(د) و(ز): يوصف إلى.

(٣) قاله ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٥٧/٢.

(٤) تقدم ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

(٥) في تلييس إبليس ص ٢٥١.

(٦) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، أبو الوفا البغدادي الحنبلي، توفي سنة (٥١٣هـ). السير ٤٤٣/١٩.

(٧) سلف ٤٨٢/٤.

إِنْ حَضَرُوا هَذِهِ الْأَمَكَّةَ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ الطَّرْبَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ فَيَزِيلُ عَقُولَهُمْ، أَثِمُوا بِمَا أَدْخَلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّخْرِيقِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَفْسَدُوا^(١)، وَلَا يَسْقُطُ عَنْهُمْ خَطَابُ الشَّرْعِ؛ لِأَنَّهُمْ مُخَاطَبُونَ قَبْلَ الْحَضُورِ بِتَجَنُّبِ هَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي يُفْضِي إِلَى ذَلِكَ. كَمَا هُمْ مَنَهِيُّونَ عَنِ شُرْبِ الْمَسْكَرِ، كَذَلِكَ هَذَا الطَّرْبُ الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ التَّصَوُّفِ وَجَدًّا إِنْ صَدَقُوا فِيهِ أَنَّهُ^(٢) سَكْرٌ طَبْعٌ، وَإِنْ كَذَبُوا أَفْسَدُوا مَعَ الصَّخْوِ، فَلَا سَلَامَةَ فِيهِ مَعَ الْحَالِينَ، وَتَجَنَّبُ مَوَاضِعَ الرَّيْبِ وَاجِبٌ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: بلحيته وذؤابته. وكان هارونَ أكبرَ من موسى صلوات الله وسلامه عليهما بثلاث سنين، وأحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى؛ لأنَّه كان لَيِّنَ الغَضَبِ^(٤).

وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات:

الأوَّل: أنَّ ذلك كان متعارفًا عندهم؛ كما كانت العرب تفعله مِنْ قبض الرجل على لحيه أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال^(٥).

الثاني: أنَّ ذلك إنما كان^(٦) لِيُسِرَّ إِلَيْهِ نَزْوَلُ الْأَلْوَاحِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَنَاجَاةِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْفِيَهَا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ التَّوْرَةِ. فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي؛ لِثَلَا يَشْتَبِهَ سِرَّارُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِإِذْلَالِهِ^(٧).

الثالث: إنما فعل ذلك به؛ لأنَّه وقع في نفسه أنَّ هَارُونَ مَائِلٌ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ أَمْرِ الْعَجَلِ. وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ.

(١) في النسخ: يفسدوا، والمثبت من (م).

(٢) في (خ) و(ظ): إن فيه، وفي (م): أن فيه.

(٣) تلبس إبليس ص ٢٥٢.

(٤) تفسير البغوي ٢/٢٠٢.

(٥) النكت والعيون ٢/٢٦٤.

(٦) في (ظ): إنما كان ذلك.

(٧) المحرر الوجيز ٢/٤٥٧.

الرابع: ضَمَّ إليه أخاه ليعلم ما لديه؛ فكره ذلك هارون لئلا يظنَّ بنو إسرائيل أنه أهانه؛ فبيَّن له أخوه أنهم استضعفوه، يعني عبدة العجل، وكادوا يقتلونه، أي قاربوا^(١). فلما سمع عذره قال: ربِّ اغفر لي ولأخي؛ أي: اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقى من أجله الألواح، ولأخي؛ لأنه ظنَّه مُقَصِّراً في الإنكار عليهم، وإن لم يقع منه تقصير، أي: اغفر لأخي إن قصَّر. قال الحسن: عبد كلُّهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثمَّ مؤمن غير موسى وهارون لَمَا اقتصر على قوله: ربِّ اغفر لي ولأخي، ولَدَعَا لذلك المؤمن أيضاً^(٢). وقيل: استغفر لنفسه من فعله بأخيه، فعَلَّ ذلك لِمَوْجِدته عليه؛ إذ لم يَلْحَقْ به فيعرفه ما جرى ليرجع فيتلافاهم؛ ولهذا قال: ﴿يَهْدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ الآية^(٣) [طه: ٩٢ و٩٣]. فبيَّن هارون أنه إنما أقام خوفاً على نفسه من القتل. فدَلَّت الآية على أن لمن خَشِيَ القتل على نفسه عند تغيير المُنكر أن يَسْكُت. وقد تقدَّم بيانُ هذا في «آل عمران»^(٤).

ابن العربي^(٥): وفيها دليلٌ على أن الغضب لا يغيِّر الأحكام كما زعم بعضُ الناس، فإن موسى عليه السلام لم يغيِّر غضبه شيئاً من أفعاله، بل اطَّردت على مجراها من إلقاء لوح، وعتاب أخ، وصدك ملك. المَهْدَوِيّ: لأنَّ غضبه كان لله عزَّ وجلَّ، وسكوته عن بني إسرائيل خوفاً أن يتحاربوا ويتفرَّقوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ وكان ابنُ أمِّه وأبيه. ولكنها كلمة لين وعطف.

قال الرَّجَّاج^(٦): قيل: كان هارونُ أخا موسى لأُمَّه لا لأبيه.

(١) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٣/٢.

(٢) تفسير الرازي ٦/١٥.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٤٥٧/١٠.

(٤) ٧٥/٥.

(٥) في أحكام القرآن ٧٨٣/٢، وما قبله منه.

(٦) لم نقف عليه في معاني القرآن له، وقال هذا القولُ النحاسُ في إعراب القرآن ١٥١/٢.

وَقُرِّيْ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكسرها^(١)؛ فمن فتح جعل «ابن أمّ» اسماً واحداً كخمسة عشر، فصار كقولك: يا خمسة عشر أقبولوا. ومن كسر الميم جعله مضافاً إلى ضمير المتكلم، ثم حذف ياء الإضافة؛ لأنّ مبنى النداء على الحذف، وأبقى الكسرة في الميم لتدلّ على الإضافة، كقوله: «يا عبّاد»^(٢). يدلّ عليه قراءة ابن السّمِينَع: «يا ابن أمّي» بإثبات الياء على الأصل^(٣).

وقال الكسائي والفرّاء وأبو عبّيد: «يا ابن أمّ» بالفتح، تقديره: يا ابن أمّا^(٤). وقال البصريون: هذا القول خطأ؛ لأنّ الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين اسماً واحداً. وقال الأخفش وأبو حاتم: «يا ابن أمّ» بالكسر كما تقول: يا غلام غلام أقبل، وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة^(٥). وإنّما هذا فيما يكون مضافاً إليك؛ فأما المضاف إلى مضافٍ إليك فالوجه أن تقول: يا غلام غلامي، ويا ابن أخي. وجوّزوا: يا ابن أمّ، يا ابن عمّ، لكثرتها في الكلام^(٦). قال الزّجاج والنحاس: ولكن لها وجه حسنٌ جيّد، يجعل الابن مع الأمّ ومع العمّ اسماً واحداً؛ بمنزلة قولك: يا خمسة عشر أقبولوا، فحذفت الياء كما حذفت من: يا غلام^(٧).

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾: استذلّوني وعدّوني ضعيفاً. ﴿وَكَاذِبًا﴾ أي: قاربوا.

(١) قرأ بالفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص، وقرأ بالكسر ابن عامر وعاصم - في رواية أبي بكر - وحزمة والكسائي. السبعة ص ٢٩٥، والتيسير ص ١١٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٥٢/٢، وتفسير الرازي ١٢/١٥.

(٣) ذكرها الزمخشري في كشافه ١١٩/٢، وأبو حيان في البحر ٣٩٦/٤ دون نسبة.

(٤) في (م): أمّاه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٥٢/٢، وينظر معاني القرآن للفرّاء ٣٩٤/١، ومعاني القرآن للأخفش ٥٣٣/٢. وقوله: وهي لغة شاذة من كلام النحاس؛ قال: لأن الثاني ليس بمنادى، فلا ينبغي أن تحذف منه الياء.

(٦) أمالي ابن الشجري ٢٩٥/٢.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣٧٨/٢، وإعراب القرآن للنحاس ١٥٢/٢. وينظر أمالي ابن الشجري ٢٩٦/٢.

﴿يَقْتُلُونَنِي﴾ بنونين؛ لأنه فعلٌ مستقبل. ويجوزُ الإدغام في غير القرآن^(١). ﴿فَلَا تُشْمِتُ
بِكَ الْأَعْدَاءَ﴾ أي: لا تُسْرِّهم.

والشَّماتةُ: السرور بما يُصيبُ أخاك من المصائب في الدِّين والدنيا، وهي مُحَرَّمَةٌ
مَنْهِيٌّ عنها. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ بِأَخِيكَ؛ فِيعافِيهِ اللهُ
وَبِتَيْلِكَ»^(٢). وكان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ منها ويقول: «اللهمَّ إني أعوذُ بك من سوءِ
القضاء، ودَرْكِ الشقاء، وشَماتَةِ الأعداء». أخرجه البخاري وغيره^(٣). وقال الشاعر:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كَلَّا كَلَّهُ أَنَاخَ بِأَخْرِينَا
فقل للشَّامِتِينَ بنا أفيقُوا سَيْلَقِي الشَّامِتُونَ كما لَقِينَا^(٤)

وقرأ مجاهد ومالك بن دينار: «تَشَمَّتْ»؛ بالنصب في التاء وفتح الميم،
«الأعداء» بالرفع^(٥). والمعنى: لا تفعل بي ما تَشَمَّتُ من أجله^(٦) الأعداء، أي: لا
يكون ذلك منهم لِفعلٍ تفعله أنت بي. وعن مجاهد أيضاً: «تَشَمَّتْ» بالفتح فيهما؛
«الأعداء» بالنصب^(٧). قال ابن جني: المعنى: فلا تشمت بي أنت يا رب. وجاز هذا
كما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ونحوه. ثم عاد إلى المراد، فأضمر فعلاً

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٥٢/٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦) من حديث وائلة بن الأسقع بلفظ: «لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لِأَخِيكَ، فِيرحمه اللهُ
وَبِتَيْلِكَ». وقال: حديث حسن غريب.

(٣) صحيح البخاري (٦٣٤٧)، وأخرجه أحمد (٧٣٥٥)، ومسلم (٢٧٠٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٤) نسب هذين البيتين ابن قتيبة في عيون الأخبار ١١٤/٣ للفرزدق ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس
٧٤٧/٢، والأصفهاني في الأغاني ٣٩٦/٢١ للعلاء بن قرظة خال للفرزدق، ونسبه البغدادي في خزنة
الأدب ٢٨٧/٥ لذي الإصبع العدواني. وقوله: كَلَّا كَلَّهُ - وفي الخزنة: شراشره، ومعناها: الثَّقُلُ -
الكلكل من الفرس: ما بين محزومه إلى ما مسَّ الأرض منه إذا ربض، وقد يستعار لما ليس بجسم،
فيجعل للدهر كلكل. اللسان (كلل).

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٦، والمحتسب ٢٥٩/١، وينظر إعراب القرآن للنحاس ١٥٢/٢.

(٦) في (ز) و(ظ): يشمت مني بأجله، وفي (د): يشمت مني لأجله.

(٧) القراءات الشاذة ص ٤٦، والمحتسب ٢٥٩/١.

نَصَبَ بِهِ الْأَعْدَاءَ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ^(١).

قال أبو عبيد: وحُكيت عن حميد: «فلا تُشْمِتْ» بكسر الميم^(٢). قال النحاس^(٣): ولا وجه لهذه القراءة؛ لأنه إن كان من شَمِتَ؛ وجب أن يقول: تُشْمِتَ. وإن كان من أَشْمِتَ؛ وجب أن يقول: تُشْمِتَ.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ قال مجاهد: يعني الذين عبدوا العجل^(٤). ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الغضب من الله: العقوبة. ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأنهم أمروا بقتل بعضهم بعضاً. وقيل: الذلّة: الجزية. وفيه بُعد؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم، وإنما أخذت من ذريّاتهم^(٥).

ثم قيل: هذا من تمام^(٦) كلام موسى عليه السلام؛ أخبر الله عز وجلّ به عنه، وتمّ الكلام. ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾^(٧). وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم؛ فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم - كما تقدم بيانه في «البقرة»^(٨) - أخبرهم أنّ من مات منهم

(١) المحتسب ٢٥٩/١، والمحزر الوجيز ٤٥٧/٢.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٦.

(٣) في إعراب القرآن ١٥٢/٢، وعنه نقل المصنف قول أبي عبيد السالف.

(٤) أخرجه الطبري ٤٦١/١٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٨٤/٣.

(٦) قوله: تمام، من (م).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٥٣/٢.

(٨) ١١٠/٢.

قتيلاً فهو شهيد، ومن بقي حياً فهو مغفور له^(١).

وقيل: كان ثم طائفة أشربوا في قلوبهم العجل - أي: حبه - فلم يتوبوا؛ فهم المعثون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾.

وقيل: أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات^(٢)، وقيل: أراد أولادهم، وهو ما جرى على فريضة والنضير، أي: سينال أولادهم^(٣). والله أعلم.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفتريين.

وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ما من مُبتدِعٍ إلا وتجد فوق رأسه ذلّة، ثم قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ حتى قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: المبتدعين^(٤).

وقيل: إن موسى أمر بذبح العجل، فجرى منه دم؛ وبرده بالمبرد وألقاه مع الدم في اليم، وأمرهم بالشرب من ذلك الماء؛ فمن عبّد ذلك العجل وأشربه ظهر ذلك على أطراف فمه، فبذلك عرف عبدة العجل. وقد مضى هذا في «البقرة»^(٥).

ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره. وقد مضى هذا في غير موضع.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد فعلها. ﴿وَهُمْ آمَنُوا إِنَّ رَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة ﴿لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن. وكذلك قرأها معاوية

(١) عرائس المجالس ص ٢١٣.

(٢) أخرجه الطبري ٤٦٢/١٠ عن ابن جريج.

(٣) تفسير البغوي ٢٠٢/٢، وزاد المسير ٢٦٦/٣.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٢٦٦/٣، والرازي في تفسيره ١٣/١٥.

(٥) ٢٥٦/٢.

ابن قُرة: «سكن» بالنون^(١).

وأصل السُّكوت: السكونُ والإمساك، يقال: جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن، أي: أمسك عن الجري.

وقال عكرمة^(٢): سكت موسى عن الغضب؛ فهو من المقلوب، كقولك: أدخلت الإصبع في الخاتم، وأدخلت الخاتم في الإصبع. وأدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت رأسي في القلنسوة.

﴿أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾ التي ألقاها. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: «هُدًى» من الضلالة، «وَرَحْمَةٌ» أي: من العذاب.

والتَّسْخُ: نَقْل ما في كتابٍ إلى كتابٍ آخر. ويقال للأصل الذي كتبت منه: نُسخة، وللفرع: نسخة.

ف قيل: لما تكسَّرت الألواح؛ صام موسى أربعين يوماً، فرُدَّت عليه وأعيدت له تلك الألواح في لوحين، ولم يَفْقِد منها شيئاً، ذكره ابن عباس^(٣). قال القشيري: فعلى هذا «وفي نُسْخَتِهَا» أي: وفيما نُسخ من الألواح المُتكسِّرة، ونُقِل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة.

وقال عطاء: وفيما بقي منها^(٤). وذلك أنه لم يَبْق منها إلا سُبْعُها، وذهب سِتَّةُ أسباعها^(٥). ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء.

وقيل: المعنى: «وفي نُسْخَتِهَا» أي: وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هُدًى.

(١) القراءات الشاذة ص ٤٦ .

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ١٤/١٥ . وينظر معاني القرآن للزجاج ٣٧٩/٢ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢٠٣/٢ ، والرازي في تفسيره ١٥/١٥ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٢٠٣/٢ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٢٦٤/٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الطبري ٤٥٦/١٠ ،

وفيه: فَرُقَّتْ إلا سُدِّسها.

وقيل: المعنى: وفيما كُتِبَ له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصلٍ يُنقل عنه. وهذا كما يقال: انسخ ما يقول فلان، أي: أثبتته في كتابك.

قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخافون. وفي اللام ثلاثة أقوال: قول الكوفيين هي زائدة. قال الكسائي: حدثني من سَمِعَ الفرزدق يقول: نقدتُ لها مئة درهم، بمعنى نقدتها. وقيل: هي لامٌ أجل، المعنى: والذين هم من أجل ربهم يرهبون؛ لا رياءً ولا سُمةً؛ عن الأخفش. وقال محمد بن يزيد: هي متعلقة بمصدر^(١)، المعنى: للذين هم رهبتهم لربهم. وقيل: لما تقدّم المفعولُ حَسُنَ دخولُ اللام، كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّيَاسَةِ تَعِبْرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]. فلما تقدّم المعمولُ - وهو المفعولُ - ضَعُفَ عملُ الفعل، فصار بمنزلة ما لا يتعدى^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِيَّ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: مفعولان، أحدهما: حُذفت منه مِن، وأنشد سيبويه:

مِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرَّجَالَ سَمَاحَةً
وَبِرًّا إِذَا هَبَّ الرِّيَّاحُ الزَّعَازِعُ^(٣)
وقال الراعي يمدح رجلاً:

اخترتُك الناسَ إذ رئتُ خلائقَهُم
واختلَّ من كان يُرَجَى عنده السُّؤلُ^(٤)

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٥٤/٢ ، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٥٣٥/٢ . ومحمد بن يزيد هو المبرّد.

(٢) المحرر الوجيز ٤٥٩/٢ ، وتفسير الرازي ١٥/١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٥٤/٢ ، وينظر كتاب سيبويه ٣٩/١ ، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٤١٨/١ ، وفيه: وخيراً، بدل: وبيراً.

(٤) ديوان الراعي النميري ص ١٩٤ ، وفيه: واعتلّ، بدل: واختلّ.

يريد: اخترتكم من الناس. وأصلُ اختار: اختير؛ فلما تحركت الياقوتة وقبلها فتحة قلبت ألفاً، نحو: قال وباع.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: ماتوا. والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة. ويروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا^(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾ أي: أمتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِن أَرِئَا هَآئِكَ﴾ [النساء: ١٧٦]. «وإيأي» عطف. والمعنى: لو شئت أمتنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضّر بني إسرائيل حتى لا يتهموني^(٢).

أبو بكر بن أبي شيبة^(٣): حدّثنا يحيى بن سعيد القطان، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد، عن عليّ ؑ قال: انطلق موسى وهارون صلى الله عليهما، وانطلق شبر وشبير - هما ابنا هارون - فانتهوا إلى جبل فيه سرير، فنام^(٤) عليه هارون فقبض روحه. فرجع موسى إلى قومه، فقالوا: أنت قتلته، حسدنا على لينة وعلى خُلُقه، أو كلمة نحوها - الشك من سفيان - فقال: كيف أقتله ومعى ابناه! قال: فاختراروا من شئتم، فاختراروا من كل سبب عشرة. قال: فذلك قوله: ﴿وَإِنخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمِغْنِيَنَّهُ﴾ فانتهوا إليه، فقالوا: من قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحد، ولكن الله توفاني. قالوا: يا موسى، ما تُعصى^(٥). فأخذتهم الرجفة، فجعل يتردد^(٦) يمينا وشمالاً، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَتْلِكَنَّهُمَا فَعَلَ السَّفَهَاءَ مِثًّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِئْتَانُكَ﴾. قال: فدعا الله فأحياهم، وجعلهم أنبياء كلهم^(٧).

(١) معاني القرآن للنحاس ٨٦/٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٥٤/٢.

(٣) في المصنف ٥٢٩/١١ - ٥٣٠، وهو عنده من طريق آخر عن سفيان. وأخرجه الطبري ٤٧٠/١٠.

(٤) في (خ) و(د) و(ز) و(م): فقام، والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٥) عند الطبري: يا موسى لن تُعصى بعد اليوم.

(٦) في النسخ: فجعلوا يترددون، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة. وعند الطبري: فجعل موسى

يرجع...

(٧) ذكره ابن كثير في التفسير، وقال: هذا أثر غريب جداً.

وقيل: أخذتهم الرجفة لقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(١) [النساء: ١٥٣]؛ لما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]. على ما تقدّم بيانه في «البقرة»^(٢). وقال ابن عباس: إنّما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا من عبَد العجل، ولم يرضوا عبادته^(٣). وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا أرنا الله جهرة.

وقال وهب: ما ماتوا، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تبيّن مفاصلهم، وخاف موسى عليهم الموت^(٤). وقد تقدّم في «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوماً وليلة^(٥). وقيل غير هذا في معنى سبب أخذهم بالرجفة. والله أعلم بصحة ذلك. ومقصود الاستفهام في قوله: «أَتُهْلِكُنَا» الجحد، أي: لست تفعل ذلك. وهو كثير في كلام العرب. وإذا كان نفيًا كان بمعنى الإيجاب، كما قال:

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطنون راح^(٦)
وقيل: معناه الدعاء والطلب؛ أي: لا تهلكتنا، وأضاف إلى نفسه. والمراد: القوم الذين ماتوا من الرجفة. وقال المبرّد: المراد بالاستفهام: استفهام استعطاف^(٧)، كأنه يقول: لا تهلكتنا، وقد علم موسى أنّ الله لا يهلك أحداً بذنب غيره؛ ولكنه كقول عيسى: ﴿إِن تَعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقيل: المراد بالسفهاء السبعون^(٨). والمعنى: أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٥٩/٢.

(٢) ١١٣/٢ وما بعدها.

(٣) أخرجه الطبري ٤٧٢/١٠.

(٤) تفسير البغوي ٢٠٣/٢.

(٥) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٢١٤، ولم نقف عليه في «البقرة».

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١٥٤/٢، والبيت لجريز، وهو في ديوانه ٨٩/١.

(٧) في (خ) و(د) و(ز) و(م): استعظام، وفي (ظ): إعظام، والمثبت من الوسيط للواحد ٤١٥/٢، وتفسير البغوي ٢٠٤/٢، وتفسير الرازي ١٩/١٥.

(٨) المحرر الوجيز ٤٦٠/٢.

السفهاء في قولهم: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما هذا إلا اختبارك وامتحانك. وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل، ولم يُضفها إلى نفسه؛ كما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى. وقال يوشع: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فلما رجع إلى قومه، ورأى العجل منصوباً للعبادة وله حُوار قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بالفتنة. ﴿مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ وهذا ردٌّ على القدرية^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: وفقنا للأعمال الصالحة التي تكتب لنا بها الحسنات. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: جزاء عليها. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تُبِّنا؛ قاله مجاهد وأبو العالِيَّة وفتادة^(٢). والهُود: التوبة؛ وقد تقدّم في «البقرة»^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي: المستحقين له، أي: هذه الرجفة والصاعقة عذابٌ مِنِّي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ. وقيل: المعنى: «من أشاء»، أي: مَنْ أَشَاءُ أَنْ أُضِلَّهُ.

قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عموم^(٤)، أي: لا نهاية لها؛ أي: مَنْ دَخَلَ فِيهَا لَمْ تَعِجْزْ عَنْهُ. وقيل: وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى إِنَّ الْبَهِيمَةَ لَهَا رَحْمَةٌ وَعَطْفٌ عَلَى وَلَدِهَا.

(١) حَزَّ الْغُلَاصِمُ لِشَيْثِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٢٦/١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٨٨/٣، وأخرجه الطبري ٤٨١/١٠.

(٣) ١٥٨/٢.

(٤) في (ظ): من الخلق، بدل: عموم.

قال بعض المفسرين: طمع في هذه الآية كلُّ شيءٍ حتى إبليس، فقال: أنا شيء، فقال الله تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾. فقالت اليهود والنصارى: نحن متقون، فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية. فخرجت الآية عن العموم، والحمد لله^(١).

روى حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كتبها الله عزَّ وجلَّ لهذه الأمة^(٢). والحمد لله^(٣).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: روى يحيى بن أبي كثير، عن نَوْفِ الْبِكَالِيِّ الْجَمِيرِيِّ: لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربِّه قال الله تعالى لموسى: أن أجعل لكم الأرض مسجداً وظهوراً؛ تصلون حيث أدرتكم^(٤) الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحرُّ والعبد والصغير والكبير. فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً. فقال الله تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾. فجعلها

(١) أخرجه الطبري ٤٨٤/١٠ عن ابن جريج.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٨٨/٣ - ٨٩، وأخرجه الطبري ٤٨٣/١٠.

(٣) قوله: والحمد لله، من (ظ).

(٤) في (د) و(ز): أدرتكم، وفي (ظ): أدرتكم.

لهذه الأمة. فقال موسى: يا رب، اجعلني نبيهم. فقال: نبيهم منهم. قال: رب اجعلني منهم^(١). قال: إنك لن تُدرِكهم. فقال موسى: يا رب، أتيتك بوفد بني إسرائيل، فجعلت وفادتنا لغيرنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَدْخُلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. فرَضِيَ موسى. قال نَوْف: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم^(٢).

وذكر أبو نعيم^(٣) أيضاً هذه القصة من حديث الأوزاعي قال: حدثنا يحيى بن أبي عمرو السيباني قال: حدثني نَوْف البكالي^(٤) - إذا افتتح موعظة - قال: ألا تحمدون ربكم الذي حَضَرَ^(٥) غَيْبَتِكُمْ، وأخذ^(٦) سهمكم، وجعل وفادة القوم لكم؛ وذلك أن موسى عليه السلام وقد ببني إسرائيل، فقال الله لهم: إني قد جعلت لكم الأرض مسجداً؛ حيثما صليتم منها^(٧) تُقبَلت صلاتكم إلا في ثلاث مواطن، من صلي فيهن لم أقبَل صلاته: المقبرة، والحمام، والمرحاض. قالوا: لا، إلا في كنيسة. قال: وجعلت لكم التراب ظهوراً إذا لم تجدوا الماء. قالوا: لا، إلا بالماء. قال: وجعلت لكم حيثما صلي الرجل فكان وحده تُقبَلت صلاته. قالوا: لا، إلا في جماعة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَلْتُنَّهَا لِالَّذِينَ

(١) في (ظ): رب أخرني حتى تجعلني منهم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٣٨، والطبري ١٠/٤٩٠. قال ابن حجر في تقريب التهذيب: كذب ابن عباس ما رواه نوف عن أهل الكتاب.

(٣) في حلية الأولياء ٦/٤٨. والخبر عن نوف، وسلف الكلام عليه.

(٤) بعدها في (ز) و(ظ) والحلية: قال: كان عمرو البكالي. ولعل صوابها: أبو عمرو البكالي، فقد قيل في كنية نوف: أبو عمرو. ينظر تهذيب الكمال ٣٠/٦٥.

(٥) في (م): حفظ، والمثبت من النسخ الخطية موافق للحلية.

(٦) بعدها في (م): لكم بعد.

(٧) في (د) و(ز) و(م): فيها، والمثبت من (ظ)، وهو موافق للحلية.

يَنْقُوتُونَ»، وَخَلَصَتْ هَذِهِ الْعِدَّةُ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا^(١).
و«يَتَّبِعُونَ» يَعْنِي فِي شَرَعِهِ وَدِينِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ.

وَالرُّسُولُ وَالنَّبِيُّ اسْمَانِ لِمَعْنِيَيْنِ؛ فَإِنَّ الرُّسُولَ أَحْصَى مِنَ النَّبِيِّ. وَقَدَّمَ الرُّسُولَ
اهْتِمَامًا بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ، وَإِلَّا فَمَعْنَى النُّبُوَّةِ هُوَ الْمَتَقَدِّمُ؛ وَلِذَلِكَ رَدَّ رِسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى
الْبِرَاءِ حِينَ قَالَ: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَقَالَ لَهُ: «قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»
خَرَّجَهُ فِي الصَّحِيحِ^(٢). وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي قَوْلِهِ: «وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» تَكَرُّرَ
الرِّسَالَةِ، وَهُوَ مَعْنَى وَاحِدٍ^(٣)، فَيَكُونُ كَالْحَشْوِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ. بِخِلَافِ قَوْلِهِ:
«وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» فَإِنَّهُمَا لَا تَكَرُّرَ فِيهِمَا.

وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ رِسُولٍ نَبِيٍّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رِسُولًا؛ لِأَنَّ الرُّسُولَ وَالنَّبِيَّ قَدْ اشْتَرَكَا
فِي أَمْرِ عَامٍّ، وَهُوَ النَّبَأُ، وَافْتَرَقَا فِي أَمْرٍ خَاصٍّ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ. فَإِذَا قُلْتَ: مُحَمَّدٌ
رِسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرِسُولٌ^(٤) وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿الْأُمِّيِّتُ﴾ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمَّةِ الْأُمِّيَّةِ، الَّتِي هِيَ عَلَى
أَصْلِ وِلَادَتِهَا، لَمْ تَتَعَلَّمِ الْكِتَابَةَ وَلَا قِرَاءَتَهَا؛ قَالَ ابْنُ عَزِيزٍ^(٥).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: كَانَ نَبِيِّكُمْ ﷺ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ وَلَا يَحْسُبُ^(٦)، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوْنَ بِيَمِينِكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٨].
وَرُوي فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٦٢، وأخرجه الطبري ١٠/٤٨٣ و ٤٩٠.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٨٨)، والبخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٦٢.

(٤) بعدها في (ز) و(ظ) و(م): الله. والكلام من المفهم ٧/٤٠.

(٥) في نزهة القلوب ص ١١٢.

(٦) أورده البغوي في تفسيره ٢/٢٠٥.

نحسب». الحديث^(١). وقيل: نسب النبي ﷺ إلى مكة أم القرى، ذكره النحاس^(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ روى البخاري قال: حدثنا محمد بن سنان قال: حدثنا فُلَيْحٌ قال: حدثنا هلالٌ، عن عطاء ابن يسار قال: لَقِيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صِفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وجزراً للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب^(٣) في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يُقيم به المِلة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وأذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفًا^(٤).

في غير البخاري: قال عطاء: ثم لقيت كعباً، فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته: قلوباً غُلُوفياً، وأذاناً صُمومياً، وأعيناً عُمومياً^(٥). قال ابن عطية^(٦): وأظنُّ هذا وهماً وعجمة^(٧). وقد روي عن كعب أنه قالها: قلوباً غُلُوفياً، وأذاناً صُمومياً، وأعيناً عُمومياً^(٨). قال الطبري: هي لغة جَمِيرية^(٩). وزاد كعب في صفة النبي ﷺ قال: مولده بمكة، وهجرته بطابة، وملكه بالشام، وأمته الحامدون؛

(١) أخرجه أحمد (٥٠١٧)، والبخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠): (١٥).

(٢) في معاني القرآن ٨٩/٣.

(٣) في (ظ) و(م): سخاب، وكلاهما بمعنى.

(٤) صحيح البخاري (٢١٢٥). وهو في مسند أحمد (٦٦٢٢).

(٥) أخرجه الطبري ٤٩٢/١٠.

(٦) في المحرر الوجيز ٤٦٣/٢.

(٧) في (خ) و(ظ) و(م): أو عجمة، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق للمحرر الوجيز.

(٨) هذه رواية الإمام أحمد (٦٦٢٢).

(٩) تفسير الطبري ٤٩٢/١٠.

يُحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ مَنْزِلٍ، يُوضِّئُونَ أَطْرَافَهُمْ، وَيَأْتِرُونَ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِهِمْ، رِعَاةُ الشَّمْسِ، يَصَلُّونَ الصَّلَاةَ حَيْثُمَا أَدْرَكَتَهُمْ وَلَوْ عَلَى ظَهْرِ الْكُنَاسَةِ^(١)، صَفَّهُمْ فِي الْقِتَالِ مِثْلُ صَفَّهُمْ فِي الصَّلَاةِ. ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتِينَ مَرْمُوسٍ﴾^(٢) [الصف: ٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ قال عطاء: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ» بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. «وينهاهم عن المنكر» عبادة الأصنام، وقطع الأرحام^(٣).

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هي المحللات؛ فكأنه وصفها بالطيب؛ إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً. وبحسب هذا يقول في الخبائث: إنها المحرمات. وكذلك^(٤) قال ابن عباس: الخبائث هي لحم الخنزير والربا وغيره^(٥). وعلى هذا حلل مالك المتقدرات، كالحيات، والعقارب، والخنافس ونحوها.

ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم، إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها؛ لأنَّ عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلَّه الشرع. ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقدرات؛ فيحرم العقارب، والخنافس، والوزغ، وما جرى هذا المجرى. والناس على هذين القولين^(٦)، وقد تقدّم في «البقرة» هذا المعنى^(٧).

(١) الكُنَاسَةُ: مُلَقَى الْقَمَامِ. اللسان (كنس).

(٢) أخرجه الدارمي (٥) و(٧) و(٨)، وأبو نعيم في الحلية ٣٨٧/٥، والبغوي في تفسيره ٢٠٥/٢، وعندهم: الحمادون، بدل: الحامدون. وإسناده ضعيف، وهو موقوف على كعب.

(٣) تفسير البغوي ٢٠٥/٢.

(٤) في (د) و(ز) و(م): لذلك.

(٥) أخرجه الطبري ٤٩٣/١٠.

(٦) المحرر الوجيز ٤٦٣/٢.

(٧) ١١/٣.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإِضْرُ: الثَّقْلُ؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير. والإِضْرُ أيضاً: العَهْدُ؛ قاله ابن عباس والضحاك والحسن. وقد جَمَعَتْ هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهداً أن يقوموا بأعمالٍ يُقال؛ فَوَضِعَ عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد، وثَقُلُ تلك الأعمال^(١)؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض، ومُؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصابَ ثوبَ أحدهم بولٌ قرَضَه، ورُوي: جِلْدُ أحدهم^(٢). وإذا جمعوا الغنائم نزلت نارٌ من السماء فأكلتها^(٣)، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها^(٤)، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَالأَغْلَلُ أَلْقَى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فالأغلال: عبارةٌ مستعارةٌ لتلك الأثقال. ومن الأثقال تركُ الاشتغال يوم السبت، فإنه يُروى أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً، فضربَ عنقه^(٥). هذا قول جمهور المفسرين. ولم يكن فيهم الدية، وإنما كان القصاص^(٦). وأمروا بقتل أنفسهم علامةً لتوبتهم؛ إلى غير ذلك. فُشِبَ ذلك بالأغلال، كما قال الشاعر:

فليس كعهدِ الدَّارِ يا أمَّ مالكٍ ولكن أحاطتْ بالرقابِ السلاسلُ
وعادَ الفتى كالكَهْلِ ليس بقائلٍ سوى العدلِ شيئاً فاستراحَ العواذلُ^(٧)
فُشِبَ حدودَ الإسلامِ وموانعُه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسلِ المُحيطاتِ

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٦٣. وأخرج الأقوال السالفة الطبري ١٠/٤٩٣ - ٤٩٤.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦) بالرواية الأولى، ومسلم (٢٧٣): (٧٤) بالرواية الثانية من قول أبي موسى الأشعري.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٨٥) من حديث أبي هريرة. وسلف ٦/١٣٠.

(٤) أخرجه أحمد (١٣٥٧٦)، ومسلم (٣٠٢) من قول أنس بن مالك.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٥٢٩ من قول أبي مالك أو سعيد بن جبير.

(٦) المحرر الوجيز ٢/٤٦٤.

(٧) البيتان لأبي خراش الهذلي. وهما في ديوان الهذليين ٢/١٥٠.

بالرَّقاب. ومن هذا المعنى قولُ أبي أحمد بن جحش^(١) لأبي سفيان:
إِذْهَبَ بِهَا إِذْهَبَ بِهَا طَوَّقَتْهَا طَوَّقَ الْحَمَامَةَ
أي: لَزِمَكَ عَارِهَا. يقال: طَوَّقَ فُلَانٌ كَذَا إِذَا لَزِمَهُ^(٢).

التاسعة: إن قيل: كيف عطف الأغلال وهو جمعٌ على الإضر وهو مفرد؟
فالجواب أن الإصرَ مصدرٌ يقع على الكثرة.

وقرأ ابنُ عامر: «أصارهم» بالجمع، مثل: أعمالهم. فجمعه لاختلاف ضروب
المائم. والباقون بالتوحيد^(٣)؛ لأنه مصدرٌ يقع على القليل والكثير من جنسه مع أفرادٍ
لفظه. وقد أجمعوا على التوحيد في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِ إِصْرًا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
وهكذا كلُّ ما يَرِدُ عليك من هذا المعنى، مثل: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿لَا يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ ظَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. و﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَيْثُ﴾ [الشورى: ٤٥]. كلُّه بمعنى
الجمع^(٤).

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: وقروه ونصروه. قال
الأخفش: وقرأ الجحدريُّ وعيسى: «وَعَزَّرُوهُ»؛ بالتخفيف^(٥). وكذا: «وَعَزَّرْتُمُوهُمْ»
[المائدة: ١٢]. يقال: عَزَّرَهُ يَعَزِّرُهُ وَيُعَزِّرُهُ^(٦).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ القرآن. والفَلَّاحُ: الظَّفَرُ بالمطلوب. وقد تقدَّم هذا^(٧).

(١) الأسدي، وهو أخو أم المؤمنين زينب رضي الله عنهما، اسمه: عبد: بغير إضافة، كان ضريراً، شهد
بدرًا والمشاهد، عدا أبو سفيان على داره لما هاجر إلى المدينة، ولما فتحت مكة قال أبياتاً لأبي سفيان
منها البيت الذي ذكره المصنف. السيرة النبوية ٤٩٩/١ - ٥٠٠، والإصابة ٦/١١.

(٢) المحرر الوجيز ٤٦٤/٢.

(٣) السبعة ص ٢٩٥، والتيسير ص ١١٣.

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٧٩/١.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٦، والمحتسب ٢٦١/١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١٥٥/٢ - ١٥٦. وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

(٧) ٢٧٨/١.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ جَمِيعًا آلَى لَكُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِثُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

ذكر أن موسى بشر به، وأن عيسى بشر به. ثم أمره أن يقول بنفسه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. و﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ كلمات الله تعالى كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهْدُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

أي: يدعون الناس إلى الهداية. و﴿يَهْدُونَ﴾ معناه في الحكم.

وفي التفسير: إن هؤلاء قوم من وراء الصين، من وراء نهر الرَّمْل، يعبدون الله بالحق والعدل، آمنوا بمحمد وتركوا السبت، يستقبلون قبلتنا، لا يصل إلينا منهم أحد، ولا منا إليهم أحد. فروي أنه لما وقع الاختلاف بعد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق، ولم يقدرُوا أن يكونوا بين ظهرانِي بني إسرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحية من أرضه^(١) في عزلة من الخلق، فصار لهم سرب في الأرض، فمشوا فيه سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين، فهم على الحق إلى الآن. وبين الناس وبينهم بحر لا يوصل إليهم بسببه^(٢).

ذهب جبريل بالنبِي ﷺ إليهم ليلة المعراج فآمنوا به، وعلمهم سوراً من القرآن، وقال لهم: «هل لكم مكيال وميزان؟» فقالوا: لا، قال: «فمن أين معاشكم؟» قالوا: نخرج إلى البرية فنزرع، فإذا حصدنا وضعناه هناك، فإذا احتاج أحدنا إليه يأخذ حاجته، قال: «وأين نساؤكم؟» قالوا: في ناحية منا، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها في وقت الحاجة. قال: «فيكذب أحدكم في حديثه؟» قالوا: لو فعل ذلك أحدنا أخذته لظي، إن النار تنزل فتحرقه. قال: «فما بال بيوتكم مستوية؟» قالوا: لئلا يعلو

(١) في (د) و(ز): اليمن.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/٥٠١ - ٥٠٢ بنحوه من قول ابن جريج وابن عباس رضي الله عنهما. وذكر ابن كثير في تفسيره ٣/٤٩٢ أنه خبر عجيب.

بعضنا على بعض. قال: «فما بال قبوركم على أبوابكم؟» قالوا: لثلاث نغفل عن ذكر الموت. ثم لما رجَعَ رسولُ الله ﷺ إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(١) [الأعراف: ١٨١]. يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام. يُعلمه أن الذي أعطيتُ موسى في قومه أعطيتُك في أمتك. وقيل: هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب^(٢). وقيل: هم قومٌ من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخته، ولم يُبدلوا، ولم يقتلوا الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَأَنْجَسْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُتُوا هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفَعْنَا لَكُمْ خُطْبَتَنَا سَازِيدَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْسًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّةً﴾ عدَّدَ نِعَمَهُ على بني إسرائيل، وجعلهم أسباطاً ليكون أمرُ كلِّ سبطٍ معروفاً من جهة رئيسهم، فيخفف الأمرُ على موسى. وفي التنزيل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا﴾ [المائدة: ١٢]. وقد تقدَّم. وقوله: «اثنتي عشرة» والسَّبَطُ مذكَّرٌ؛ لأن بعده «أُمَّةً»، فذهب التانيثُ إلى الأُمِّ. ولو قال: اثني عشر، لتذكير السَّبَطِ جاز، عن الفراء^(٣). وقيل: أراد بالأسباط القبائل والفرق؛ فلذلك أنثَ العدد. قال الشاعر:

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢٧٠/٢ مطولاً من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٣١/١٥.

(٣) معاني القرآن ١/٣٩٧. وزاد المسير ٣/٢٧٥.

وإنَّ قريشاً كلَّها عَشْرُ أبْطِنٍ وأنت بريءٌ من قبائلها العَشْرِ^(١)
 فذهب بالبطن إلى القَبيلة والفَصيلة؛ فلذلك أنثها. والبطن مُدْكَرٌ؛ كما أنَّ الأسباط
 جمع مُدْكَرٌ^(٢). الزجاج^(٣): المعنى: قَطَعْنَاهُمْ اثنتي عشرة فِرْقَةً.
 ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من «اثنتي عشرة»، ﴿أُمَّامًا﴾ نَعَتْ للأسباط.
 وروى المُفَضَّل عن عاصم: «وَقَطَعْنَاهُمْ مُخَفَّفًا»^(٤).

«أَسْبَاطًا» الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام.
 والأسباط مأخوذٌ من السَّبَط، وهو شجرٌ تُعَلِّفُهُ الإبل^(٥). وقد مضى في «البقرة»^(٦)
 مستوفى.

وروى مَعْمَرٌ، عن هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ:
 ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ «قالوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ. وقيل
 لهم: ﴿أَدْخُلُوا الْبَابَ مُخَذَّاءً﴾ فدخلوا متورِّكين على أَسْتَاهِمِهِمْ»^(٧).

﴿يَمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ مرفوع؛ لأنه فعلٌ مستقبل، وموضعه نصبٌ. و«ما»
 بمعنى المصدر، أي: بظلمهم^(٨). وقد مضى في «البقرة» ما في هذه الآية من المعاني

(١) قائله النواح الكلابي فيما ذكره العيني في شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ٤/٤٨٤، وهو في الكتاب ٣/٥٦٥، والكامل ٢/٨٠٢، والخصائص ٢/٤١٧، وصدده عندهم: وإن كلاباً هذه عشر أبطن.

(٢) تفسير الطبري ١٠/٥٠٣.

(٣) في معاني القرآن له ٢/٣٨٢.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٦٥، ونسبها لأبي حيوة، وذكر ابن عطية أن أبان رواها عن عاصم. وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/٩٢، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/٣٨٢.

(٦) ٤١٧/٢.

(٧) أخرجه أحمد (٨١١٠)، والبخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، وسلف ٢/١٢٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٥٦.

والأحكام^(١). والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَمْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَكَتِهِمْ شِرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبِّكَرُؤْ وَعَلَّامُ السُّعُورِ ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: عن أهل القرية؛ فعبر عنهم بها لما كانت مستقرًا لهم، أو سبب اجتماعهم، نظيره: ﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اهتزَّ العرشُ لموت سعد بن معاذ»^(٢) يعني: أهل العرش من الملائكة، فرحاً واستبشاراً بقدمه ﷺ^(٣).

أي: واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم، وما مسخ الله منهم قردةً وخنازير. وهذا سؤال تقرير وتوبيخ. وكان ذلك علامةً لصدق النبي ﷺ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم^(٤).

وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأننا من سبط خليله إبراهيم، ومن سبط إسرائيل وهم بكر الله^(٥)، ومن سبط موسى كليم الله، ومن سبط ولده عزيز، فنحن من أولادهم. فقال الله عز وجل لنبيه: سلهم يا محمد عن القرية، أما عذبته^(٦)

(١) ١٢١/٢ وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد (١٤١٥٣)، والبخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) من حديث جابر ﷺ. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١١٨٤)، وعن أنس ﷺ عند أحمد (١٣٤٥٤)، ومسلم (٢٤٦٧).

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): به، أي: بقدمه والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٥/٢ - ٧٨٦.

(٤) الوسيط ٤١٩/٢، وتفسير البغوي ٢٠٨/٢.

(٥) سلف ٣٨٨/٧ نحوه من قول السدي.

(٦) في النسخ الخطية: عذبهم، والمثبت من (م).

بذنوبهم، وذلك بتغيير قرع من فروع الشريعة^(١).

واختلف في تعيين هذه القرية، فقال ابن عباس وعكرمة والسُّدِّيُّ: هي أيلة. وعن ابن عباس أيضاً أنها مدين، بين أيلة والطور. الزُّهْرِيُّ: طَبْرِيَّة. قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحلٌ من سواحل الشام، بين مدين وعَيْنون، يقال لها: مَقْنَاءُ^(٢).

وكان اليهودُ يَكْتُمون هذه القصةَ لما فيها من السُّبَّةِ عليهم.

﴿أَلَيْ كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: كانت بقرُب البحر، تقول: كنت بحضرة الدار، أي: بقرُبها^(٣).

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يصيدون الحيتان، وقد نُهوا عنه. يقال: سَبَت اليهودُ: تركوا العمل في سَبْتهم. وسُبِت الرجل - للمفعول - سُبَاتاً: أخذَه ذلك، مثل الحَرَس. وأسبَت: سَكَن فلم يتحرَّك. والقومُ: صاروا في السبت. واليهودُ: دخلوا في السبت، وهو اليوم المعروف. وهو من الراحة والقَطْع. ويُجمع أسبُت وسُبُوت^(٤) وأسبات^(٥).

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «مَن احتجمَ يومَ السبت، فأصابه برصٌ، فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه»^(٦). قال علماؤنا: وذلك لأن الدَّمَ يجمُد يومَ السبت، فإذا مددته لَستخرجه، لم يَجْرٍ وعاد برصاً^(٧).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٥/٢.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٥٠٧/١٠ - ٥٠٩، وينظر النكت والعيون ٢٧١/٢، والمحرم الوجيز ٤٦٧/٢.

(٣) وقال أبو حيان في البحر ٤١٠/٤: ويحتمل أن يريد معنى الحاضرة على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في قرى البحر.

(٤) تهذيب اللغة ٣٨٦/١٢، والصحاح (سبت).

(٥) لم نقف على هذا الجمع.

(٦) أخرجه البزار (٣٠٢٢) (زوائد)، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٤٠/٩ من حديث أبي هريرة ؓ، وفي

إسناده سليمان بن أرقم، قال الدارقطني: متروك، وقال ابن معين: ليس بشيء، ميزان الاعتدال ١٩٦/٢.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٨١٦) عن الزهري مرسلًا، وهو المحفوظ فيما قاله البيهقي.

(٧) كلام غير صحيح مستند إلى خبر باطل.

وقراءة الجماعة: «يَعْدُونَ». وقرأ أبو نَهَيْك: «يُعِدُونَ» بضم الياء وكسر العين وشدّ الدال^(١). الأولى من الاعتداء، والثانية من الإعداد، أي: يُهَيِّتُونَ الآلَةَ لِأَخْذِهَا. وقرأ ابن السَّمِينَع: «في الأسباب» على جمع السبت^(٢). ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ وقرئ: «إسباتهم»^(٣).

﴿شُرْعًا﴾ أي: شوارع ظاهرة على الماء كثيرة^(٤). وقال اللَّيْث: حيتان شُرْعٌ رافعة رؤوسها. وقيل: معناه أن حيتان البحر كانت تَرِدُ يوم السبت عَنَقًا^(٥) من البحر فتزاحم^(٦) أَيْلَةً. ألهمها الله تعالى أنها لا تُصَاد يوم السبت؛ لِئَنهِيَ تعالى اليهودَ عن صيدها. وقيل: إنها كانت تُشْرَعُ على أبوابهم كالكبش البيض رافعة رؤوسها - حكاة بعض المتأخرين - فتعدّوا، فأخذوها في السبت، قاله الحسن^(٧). وقيل: يوم الأحد، وهو الأصح على ما يأتي بيانه.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ﴾ أي: لا يفعلون السبت. يقال: سَبَتَ يَسْبِتُ إذا عَظَّمَ السبت. وقرأ الحسن: «يُسْبِتُونَ» بضم الياء^(٨)، أي: يدخلون في السبت؛ كما يقال: أجمعنا، وأظهرنا، وأشهرنا، أي: دخلنا في الجمعة والظهر والشهر^(٩).

(١) هي في تفسير الرازي ٣٧/١٥، والبحر ٤/٤١٠ دون نسبة، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٦، وابن جني في المحتسب ١/٢٦٤ وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٦٧ أن أبا نَهَيْك قرأ: «يَعْدُونَ». قال ابن جني: أراد يعتدون، فأسكن التاء ليدغمها في الدال، ونقل فتحها إلى العين فصار يَعْدُونَ.

(٢) لم نقف عليها عند غير المصنف، وسلف أننا لم نقف على أن السبت يُجمع على أسباب.

(٣) يعني مصدر «أسبت» كما في البحر المحيط ٤/٤١١، وهي قراءة عمر بن عبد العزيز ؑ كما في القراءات الشاذة ص ٤٧. ووقع في (م): «أسباتهم».

(٤) تفسير الطبري ١٠/٥٠٩.

(٥) أي: مسرعة، ينظر النهاية (عتق).

(٦) في تهذيب اللغة ١/٤٢٨ (والكلام منه) واللسان (شرع): يتاحم.

(٧) النكت والعيون ٢/٢٧٢.

(٨) القراءات الشاذة ص ٤٧.

(٩) تفسير الطبري ١٠/٥١٠.

﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: حيثانهم.

﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ أي: نُشَدُّ عليهم في العبادة وَنَخْتَبِرُهُمْ. والكاف في موضع نصب. ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بِفِسْقِهِمْ^(١). وسُئِلَ الحسين بن الفضل: هل تجدُ في كتاب الله: الحلالُ لا يأتيك إلا قوتاً، والحرامُ يأتيك جزفاً جزفاً^(٢)؟ قال: نعم، في قصة داود وأيالة: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيْثَانُهُمْ يَوْمَ سَكَنَتْهُمُ تُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام^(٣)، وأنَّ إبليس أَوْحَى إليهم فقال: إنما نُهَيْتُمْ عن أخذها يومَ السبت، فَاتَّخَذُوا الحياض؛ فكانوا يَسوقون الحيتان إليها يومَ الجمعة فتبقى فيها، فلا يُمكنها الخروج منها لِقَلَّةِ الماء، فَيأخذونها يوم الأحد^(٤).

وروي أشهبُ عن مالك قال: زَعَمَ ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجلُ خيطاً ويضع^(٥) فيه وَهَقَّةً^(٦)، وألقاها في ذَنبِ الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وَتِدٌ، وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرَّقَ الناس حين رأوا مَنْ صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثرَ صيدُ الحوت، ومُشِيَ به في الأسواق، وأعلن الفسقةُ بصيده، فقامت فرقةٌ من بني إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهي واعتزلت.

وقيل: إنَّ الناهين قالوا: لا نُسَاكِنُكُمْ، فقسموا القريةً بجدار. فأصبح الناهون ذاتَ يومٍ في مَجَالِسِهِمْ ولم يخرج من المعتدين أحداً، فقالوا: إن للناس لشأناً، فعلوا

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٥٧/٢ .

(٢) الجَزْفُ: الأخذ بالكثرة، وجَزَفَ له في الكيل: أكثر. اللسان (جذف).

(٣) عرائس المجالس ص ٢٩٠ .

(٤) تفسير البغوي ٢/٢٠٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٨٦ .

(٥) في (خ): وجعل، وفي المحرر الوجيز (والكلام منه) ٢/٤٦٧ - ٤٦٨ : ويصنع. وهذا الأثر أخرجه الطبري ١٠/٥١٩ مطولاً.

(٦) في القاموس: الوَهَقُ، محرَّكة ويُسَكَّنُ: الحبل يُرمى في أنشودة، فتؤخذ به الدابة...

على الجدار فنظروا فإذا هم قردة؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم؟! فتقول برأسها نعم. قال قتادة: صار الشبان قردةً والشيخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم^(١).

فعلى هذا القول إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين. ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم: إذا علمتم أن الله مهلكنا، فلم تعظوننا؟ فمسحهم الله قردةً. ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ^(٢) إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: قال الواعظون: موعظتنا إياكم معذرةً إلى ربكم، أي: إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون. أسند هذا القول الطبري عن ابن الكلبي^(٣).

وقال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افتقرت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية: فرقة عصت وصادت، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً. وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا اثني عشر ألفاً. وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة قالت للناحية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ تريد العاصية. ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ على غلبة الظن، وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية. فقالت الناحية: موعظتنا معذرةً إلى الله لعلهم يتقون. ولو كانوا فرقتين لقاتل الناحية للعاصية: ولعلكم تتقون، بالكاف.

ثم اختلف بعد هذا؛ فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهي؛ قاله ابن عباس. وقال أيضاً: ما أدري ما فعل بهم

(١) عرائس المجالس ص ٢٩٠ - ٢٩١، وتفسير البغوي ٢/٢٠٨، وأخرجه الطبري ١٠/٥١٥ - ٥١٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً. وسلف هذا الكلام ٢/١٦٩ - ١٧٠.

(٢) قرأ حفص: «معذرة» بالنصب، والباقون بالرفع، كما سيأتي.

(٣) تفسير الطبري ١٠/٥٢١، والكلام في المحرر الوجيز ٢/٤٦٨.

وهو الظاهر من الآية^(١).

وقال عكرمة: قلت لابن عباس لما قال: ما أدري ما فُعلَ بهم: ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه وخالفوه، فقالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ؟﴾ فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نَجَّوا، فكساني حُلَّة^(٢). وهذا مذهب الحسن^(٣).

ومما يدلُّ على أنه إنما هَلَكَتِ الفرقة العاديّة لا غير قوله: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي النَّبِيِّ﴾ [البقرة: ٦٥] الآية.

وقرأ عيسى وطلحة: «مَعذِرَةٌ» بالنصب. ونصبه عند الكسائي من وجهين: أحدهما على المصدر. والثاني على تقدير: فعلنا ذلك معذرة. وهي قراءة حَفْص عن عاصم. والباقون بالرفع^(٤)، وهو الاختيار؛ لأنهم لم يُريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً من أمر لِيُمُوا عليه، ولكنهم قيل لهم: لِمَ تَعْطُونَ؟ فقالوا: موعظتنا مَعذِرَةٌ. ولو قال رجلٌ لرجل: مَعذِرَةٌ إلى الله وإليك من كذا، يُريد اعتذاراً، لَنَصَبَ. هذا قول سيبويه^(٥).

ودلّت الآية على القول بسدِّ الذرائع^(٦). وقد مضى في «البقرة». ومضى فيها الكلام في الممسوخ هل يُنسل أم لا، ميّناً^(٧). والحمد لله.

ومضى في «آل عمران» و«المائدة» الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٨). ومضى في «النساء»^(٩) اعتزال أهل الفساد ومُجانبتهم، وأنَّ من جالسهم كان مثلهم؛ فلا معنى للإعادة.

(١) المحرر الوجيز ٤٦٨/٢، وينظر تفسير البغوي ٢٠٨/٢ - ٢٠٩، والكشاف ١٢٦/٢ - ١٢٧.

(٢) أخرجه الطبري ٥١٤/١٠.

(٣) ذكره البغوي ٢٠٩/٢.

(٤) السبعة ص ٢٩٦، والتيسير ص ١١٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٥٧/٢ - ١٥٨، وينظر الكتاب ٣٢٠/١.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٧/٢.

(٧) ١٦٨/٢ وما بعدها.

(٨) ٧٣/٥ و ٢٥٣/٦.

(٩) ١٨٥/٧.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّبَعَ لَنَا مِنَ النُّسْيَانِ الْآنِفِينَ﴾ [التوبة: ٦٧].

والنُّسْيَانُ يُطْلَقُ عَلَى السَّاهِي وَالْعَامِدِ التَّارِكِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوه عن قَصْدٍ^(١)، ومنه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ومعنى ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد. وفيه إحدى عشرة قراءة:

الأولى: قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي: «بَيْسٍ» على وزن فَعِيلٍ^(٢).

الثانية: قراءة أهل مكة: «بَيْسٍ» بكسر الباء والوزنُ واحد^(٣).

والثالثة: قراءة أهل المدينة: «بَيْسٍ» الباء مكسورة، بعدها ياء ساكنة، بعدها سين مكسورة منوَّنة^(٤). وفيها قولان. قال الكسائي: الأصلُ فيه: «بَيْسٍ» خفيفة الهمزة، فالتفتت ياءان، فحُذِفَتْ إحداهما وكُسِرَ أوَّلُهُ، كما يُقال: رَغِيفٌ وشِهِيدٌ. وقيل: أراد «بَيْسٍ» على وزن فَعِيلٍ، فكسَرَ أوَّلُهُ، وخَفَّفَ الهمزة، وحذفت الكسرة، كما يقال: رَجِمَ ورَجِمَ.

الرابعة: قراءة الحسن: الباء مكسورة، بعدها همزة ساكنة، بعدها سين مفتوحة^(٥).

الخامسة: قرأ أبو عبد الرحمن المقرئ: «بَيْسٍ» الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوَّنة^(٦).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٧٨٧/٢.

(٢) وأيضاً هي قراءة ابن كثير وعاصم في رواية حفص. السبعة ص ٢٩٦، والتيسير ص ١١٤.

(٣) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٦٩/٢، وأبو حيان في البحر ٤١٣/٤، وقال: هي لغة تميم. وقراءة ابن كثير المكي هي بفتح الباء كما سلف.

(٤) قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر ٢٧٢/٢.

(٥) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢٦٧/١.

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٦٩/٢، وأبو حيان في البحر ٤١٣/٤.

السادسة: قال يعقوب القارئ: وجاء عن بعض القراء: «بعذاب بَيْسٍ» الباء مفتوحة والهمزة مكشورة والسين مفتوحة^(١).

السابعة: قراءة الأعمش: «بَيْسٍ» على وزن فَيْعِلٍ^(٢). ورُوي عنه: «بَيْسٍ» على وزن فَيْعِلٍ^(٣). ورُوي عنه: «بَيْسٍ» بياء مفتوحة وهمزة مُشَدَّدة مكسورة، والسين في كلِّه مكسورة منوَّنة، أعني قراءة الأعمش^(٤).

العاشر: قراءة نصر بن عاصم: «بعذاب بَيْسٍ» الباء مفتوحة، والياء مشدَّدة بغير همز^(٥).

قال يعقوب القارئ: وجاء عن بعض القراء: «بَيْسٍ» الباء مكسورة، وبعدها همزة ساكنة، وبعدها ياء مفتوحة^(٦). فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس^(٧).

قال علي بن سليمان: العرب تقول: جاء ببناتٍ بَيْسٍ، أي: بشيء رديء. فمعنى «بِعَذَابٍ بَيْسٍ»: بعذاب رديء.

وأما قراءة الحسن، فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها، قال: لأنه لا يُقال: مررتُ برجلٍ بَيْسٍ، حتى يُقال: بَيْسٍ الرجل، أو بَيْسٍ رجلاً.

قال النحاس: وهذا مردودٌ من كلام أبي حاتم، حكى النحويون: إن فعلت كذا وكذا فبها ونعمت. يُريدون^(٨): فيها ونعمت الخصلة. والتقديرُ على قراءة الحسن:

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٤/٤١٢، وقيدها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٦٩ بتشديد الهمزة.

(٢) قال ابن عطية: وهذا شاذٌّ، لأنه لا يوجد فَيْعِلٌ في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل، مثل سيّد وميّت. وكذلك قال السمين في الدر المصون ٥/٤٩٨.

(٣) وهي رواية شعبة بخلف عنه.

(٤) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٦٩ - ٤٧٠.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٧، والمحتسب ١/٢٦٥.

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/٢٦٧ دون نسبة، ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٧٠ نسبتها للحسن والأعمش.

(٧) في إعراب القرآن ٢/١٥٨ - ١٥٩. وينظر الدر المصون ٥/٤٩٦ - ٤٩٨.

(٨) في النسخ الخطية: يريد، والمثبت من (م) وإعراب القرآن للنحاس.

بعذاب يُنْسَ العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: فلما تجاوزوا في معصية الله. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يقال: خَسَّاهُ فَخَسَأَ، أي: باعدته وطرده^(١). وقد تقدّم في «البقرة»^(٢). ودلّ على أن المعاصي سبب النّعمة وهذا لا خفاء به. فقيل: قال لهم ذلك بكلام يُسمع، فكانوا كذلك. وقيل: المعنى: كَوَّنَاهُمْ قِرَدَةً^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَ عَلَىٰهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سَاءً

الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

أي: أعلم أسلافهم أنهم إن غيروا ولم يؤمنوا بالنبّي الأمّي بعث الله عليهم من يُعذبهم. وقال أبو عليّ: «أَذَّنَ» بالمدّ: أعلم. و«أَذَّنَ» بالتشديد: نادى. وقال قوم: أذن وأذن بمعنى أعلم، كما يقال: أيقن وتيقن^(٤). قال زهير:

فقلتُ تَعَلَّمُ أن للصيدِ غِرَّةً فإلا تُضَيِّعها فإنك قاتِلُهُ^(٥)
وقال آخر:

تَعَلَّمُ أن شرَّ الناسِ حيٌّ يُنادي في شِعارِهِمُ يَسَارُ^(٦)
أي: إعلم.

ومعنى ﴿يَسُوءُهُمْ سَاءً﴾: يُذَيِّقُهُمْ، وقد تقدّم في «البقرة»^(٧). قيل: المراد بـ«يُخْتَنَصِرُ»^(٨).

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٦٠/٢.

(٢) ١٧٤/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤٧٠/٢.

(٤) الحجة للقراء السبعة ٤٠٤/٢ و ٤١٠، وحكى هذا الكلام عن سيويه، وهو في كتابه ٦٢/٤.

(٥) ديوان زهير ص ١٣٤.

(٦) قائله زهير أيضاً، وهو في ديوانه ص ٣٠٠.

(٧) ٨٤/٢.

(٨) ذكره الرازي في تفسيره ٤٢/١٥.

وقيل: العرب. وقيل: أمة محمد ﷺ، وهو أظهر؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة. والله أعلم. قال ابن عباس: «سوء العذاب» هنا أخذ الجزية^(١). فإن قيل: فقد مُسخوا، فكيف تُؤخذ منهم الجزية؟ فالجواب أنها تُؤخذ من أبنائهم وأولادهم، وهم أذل قوم، وهم اليهود^(٢). وعن سعيد بن جبير: «سوء العذاب» قال: الخراج، ولم يجب نبي قط الخراج إلا موسى عليه السلام، هو أول من وضع الخراج، فجياه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك، ونبينا عليه الصلاة والسلام^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الَّذِينَ صَلَّوْا وَرَمَوْا دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْا نَفْسَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا﴾ أي: فرقناهم في البلاد. أراد به تشتيت أمرهم، فلم تجتمع^(٤) لهم كلمة. ﴿مِّنْهُمْ الَّذِينَ صَلَّوْا﴾ رَفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ. والمراد: مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَنْ لَمْ يُبَدِّلْ مِنْهُمْ وَمَاتَ قَبْلَ نَسْخِ شَرْعِ مُوسَى. أَوْ هُمُ الَّذِينَ وَرَاءَ الصِّينِ، كَمَا سَبَقَ^(٥).

﴿وَمِنْتَهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ منصوبٌ عَلَى الظرف. قال النحاس: ولا نعلم أحداً رَفَعَهُ^(٦). والمراد الكفارُ منهم. ﴿وَبَلَّوْا نَفْسَهُمْ﴾ أي: اختبرناهم. ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي: بِالْخِصْبِ وَالْعَافِيَةِ. ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: الْجَذْبِ وَالشَّدَائِدِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لِيَرْجِعُوا عَنِ كُفْرِهِمْ^(٧).

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/٥٣٠ - ٥٣١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/٩٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/٥٣٢.

(٤) في (د) و(م): تجمع، والكلام في تفسير البغوي ٢/٢٠٩.

(٥) ٣٠٢/٧، وينظر الكشاف ٢/١٢٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٠.

(٧) الوسيط ٢/٤٢٢.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَشْتَرُوا بِهَا يَأْخُذُوا الْقُرْآنَ يَأْخُذُونَ عَلَيْهِمْ يُمِيتُهُ الْكِتَابُ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخْرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني أولاد الذين فرّقهم في الأرض. قال أبو حاتم: «الْخَلْفُ» بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجميع فيه سواء. «والْخَلْفُ» بفتح اللام: البَدَل، ولدًا كان أو غريبًا. وقال ابن الأعرابي: «الْخَلْفُ» بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح^(١). قال لبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهِم وبقيتُ في خَلْفِ كجِلْدِ الأَجْرِبِ^(٢)

ومنه قيل للردّيء من الكلام: خَلْفٌ، ومنه المثل السائر: سَكَتَ أَلْفًا ونطق خَلْفًا^(٣). فَخَلَفَ في الدَّمِّ، بالإسكان، وَخَلَفَ بالفتح في المدح. هذا هو المستعمل المشهور. قال عنه: «يَحْمِلُ هذا العلمُ من كلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ»^(٤). وقد يُستعمل كلُّ واحدٍ منهما موضع الآخر. قال حسان بن ثابت:

لنا القَدَمُ الأولى إليك وَخَلَفْنَا لأولنا في طاعةِ الله تابعٌ^(٥)
وقال آخر:

إنّا وجدنا خَلْفًا بئسَ الخَلْفُ أغلَقَ عَنّا بابَه ثم خَلَفَ
لا يُدخِلُ البَوابُ إلاّ مَنْ عَرَفَ عبدًا إذا ما ناء بالِحِمْلِ وَقَفَ^(٦)

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢١٠.

(٢) سلف ٦/ ٤٢٢.

(٣) الصحاح (خلف)، وينظر كتاب الأمثال للقاسم بن سلام ص ٥٥، ومجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٣٠.

(٤) سلف ١/ ٦٣.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢، والبيت في ديوان حسان عنه ص ١٤٨.

(٦) الرجز في الكامل عن الرياشي لأعرابي يذم رجلاً اتخذ وليمةً ٣/ ١٣١١. وفي اللسان (خضف) باختلاف في تربيته، وفيه: خضف، بدل: وقف.

ويروى: خَصَف، أي: رَدَم^(١). والمقصود من الآية الذم.

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾، قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرؤوه وعلموه، وخالفوا حكمه وأتوا محارمه مع دراستهم له^(٢). فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة جِرْصِهِمْ وَنَهَمِهِمْ^(٣). ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم لا يتوبون. ودلّ على أنّهم لا يتوبون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ والعرض: متاع الدنيا، بفتح الراء. وبإسكانها: ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير^(٤).

والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة.

ثم ذمهم باغترارهم في قولهم: «سَيُغْفَرُ لَنَا»، وأنهم بحالٍ إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مُصِرُّون، وإنما يقول: سَيُغْفَرُ لَنَا؛ مَنْ أَقْلَعَ وَنَدِمَ^(٥).

قلت: وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجودٌ فينا. أسند الدارمي أبو محمد: حدّثنا محمد بن المبارك، حدّثنا صدقة بن خالد، عن ابن جابر، عن شيخ يُكنى أبا عمرو^(٦)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سَيَلَى الْقُرْآنُ فِي صَدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ فِي تَهَافُتٍ، يَقْرَؤُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذُّنَابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاؤُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا؛ إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً^(٧).

(١) قوله: ردم: أي: شرط. اللسان (ردم).

(٢) تفسير البغوي ٢/٢١٠.

(٣) في (ظ): ونهمتهم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/١٠٠.

(٥) المحرر الوجيز ٢/٤٧٢.

(٦) في النسخ الخطية: أبا عمر، والمثبت من (م)، وسنن الدارمي، وإتحاف المهرة ١٣/٣٠٥.

(٧) سنن الدارمي (٣٣٤٦)، وإسناده ضعيف.

وقيل: إن الضمير في «يأتهم» ليهود المدينة، أي: وإن يأت يهود يثرب الذين كانوا على عهد النبي ﷺ عَرْضٌ مِثْلَهُ يأخذوه كما أخذه أسلافهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ يريد التوراة. وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام، وألا يميل الحكام بالرُشا إلى الباطل^(١).

قلت: وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق لازم لنا على لسان نبينا ﷺ وكتاب ربنا، على ما تقدم بيانه في «النساء»^(٢). ولا خلاف فيه في جميع الشرائع، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: قرؤوه، وهم قريبو عهد به^(٣). وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَأَدَّارَسُوا مَا فِيهِ» فأدغم التاء في الدال^(٤).

قال ابن زيد: كان يأتيهم المُحِقُّ برشوة، فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المُبِطِلُ أخذوا منه الرشوة، وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له. وقال ابن عباس: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وقد قالوا الباطل في عُفْران ذنوبهم الذي يُوجبونه ويقطعون به^(٥). وقال ابن زيد: يعني في الأحكام التي يحكمون بها، كما ذكرنا.

وقال بعض العلماء: إن معنى «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ» أي: مَحَوَّه بترك العمل به والفهم له^(٦)، من قولك: دَرَسَتِ الرِّيحُ الْأَثَارَ: إِذَا مَحَّتْهَا^(٧). وخطَّ دَارِسٌ، وَرَبَعَ دَارِسٌ: إِذَا

(١) المحرر الوجيز ٤٧٢/٢.

(٢) ٢٠٧/٧ وما بعدها.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١٠٠/٣.

(٤) المحتسب ٢٦٧/١، وإعراب القرآن للنحاس ١٦٠/٢.

(٥) أخرجهما الطبري ٥٣٩/١٠ و ٥٤٠.

(٦) النكت والعيون ٢٧٥/٢.

(٧) تهذيب اللغة ٣٥٩/١٢.

أَمْحَى وَعَفَا أَثْرَهُ. وهذا المعنى مُوَاطِئُ - أي: موافق - لقوله تعالى: ﴿بَدَّ فَرْقٍ مِّنَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١] الآية. وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَأَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالتوراة، أي: بالعمل بها، يقال: مَسَّكَ بِهِ وَتَمَسَّكَ بِهِ، أي: استمسك به^(٢). وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر «يُمَسِّكُونَ»^(٣) بالتخفيف من أَمَسَّكَ يُمَسِّكُ. والقراءة الأولى أولى؛ لأنَّ فيها معنى التكرير والتكثير للتمسُّك بكتاب الله تعالى وبدينه، فبذلك يُمدحون. فالتمسُّك بكتاب الله والذين يحتاجُ إلى المُلازمة والتكرير لفعل ذلك^(٤). وقال كعب بن زهير - فجاء به على طبعه - يذمُّ بكثرة نقض العهد^(٥).

فما تُمَسِّكُ بالعهد الذي زَعَمْتَ إِلَّا كما تُمَسِّكُ الماءَ الغَرَابِيلُ^(٦)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ «نتقنا» معناه: رَفَعْنَا. وقد تقدّم بيانه في «البقرة». ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي: كأنه - لارتفاعه - سحابةٌ تُظَلُّ. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدِّ. وقد مضى في «البقرة» إلى آخر الآية^(٧).

(١) ٢٦٨/٢ - ٢٦٩.

(٢) الصحاح (مسك).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٦٠/٢، وقراءة أبي بكر في السبعة ص ٢٩٧، والتيسر ص ١١٤.

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٨٢/١.

(٥) من قوله: فجاء به... إلى هذا الموضع، وقع في (م) بعد البيت، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ١٦١/٢ (والكلام منه).

(٦) ديوان كعب ص ٨٥، وصدر البيت فيه: وما تمسك بالوصل...

(٧) تقدم ما ذكره المصنف في الموضوعين ١٦٤/٢ - ١٦٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ أي: واذكر لهم مع ما سبق من تذكير الموائيق في كتابهم ما أخذت من الموائيق من العباد يوم النَّزْرِ. وهذه آيةٌ مُشْكِلَةٌ، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه:

فقال قوم: معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض.

قالوا: ومعنى ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ دلهم بخلقه على توحيده؛ لأنَّ كلَّ بالغٍ يعلم ضرورةً أنَّ له ربًّا واحداً، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: قال^(١). فقام ذلك مقامَ الإشهاد عليهم والإقرار منهم، كما قال تعالى في السماوات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. ذهب إلى هذا الفقهاء وأطنب^(٢).

وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعلَ فيها من المعرفة ما عَلِمَتْ به ما خاطبها^(٣).

قلت: وفي الحديث عن النبي ﷺ غيرُ هذين القولين، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام. روى مالك في «موطئه»^(٤) أن عمر بن الخطاب ؓ سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٦١/٢ .

(٢) ذكر نحو هذا الكلام الرازي في تفسيره ٥٠/١٥ .

(٣) النكت والعيون ٢٧٧/٢ .

(٤) ٨٩٨ - ٨٩٩ ، ومن طريقه أخرجه أحمد (٣١١) ، وأبو داود (٤٧٠٣) ، والترمذي (٣٠٧٥) ،

والنسائي في الكبرى (١١١٢٦) كلهم من طريق مسلم بن يسار عن عمر ؓ .

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ فقال عمر رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ يَعْمَلُونَ». فقال رجل: ففيم العمل؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ النَّارَ».

قال أبو عمر ^(١): هذا حديثٌ منقطع الإسناد؛ لأنَّ مسلمَ بن يسار لم يلقَ عمر ^(٢). وقال فيه يحيى بن معين: مسلم بن يسار لا يُعرف، بينه وبين عمر نُعيمُ بن ربيعة، ذكره النسائي ^(٣)، ونُعيم غير معروف بحمل العلم. لكن معنى هذا الحديث قد صحَّح عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم ^(٤).

روى الترمذي وصحَّحه عن أبي هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا [مِنْ ذُرِّيَّتِهِ] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ وَبَيْضاً مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: يَا رَبُّ

(١) في التمهيد ٦/٣-٧، والاستذكار ٢٦/٩٠.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/٥٠٣-٥٠٤: الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر نُعيم بن ربيعة عمداً لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيه، ولهذا يُرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٦/٤-٥ من طريق النسائي، وليس هو في سننه من هذه الطريق، إنما فيه من طريق أخرى (١١١٢٦) وينظر تحفة الأشراف ٨/١١٣.

(٤) حديث عمر رضي الله عنه أخرجه أحمد (١٩٦)، والترمذي (٢١٣٥) و(٣١١١). وحديث ابن مسعود رضي الله عنه سلف ٢٩٦/١. وحديث علي رضي الله عنه أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧). وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه أحمد (١٠٢٨٦)، ومسلم (٢٦٥١).

مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتِكَ. فرأى رجلاً منهم فأعجبَه وبَيَّضَ ما بين عَيْنَيْهِ، فقال: أي رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فقال: هذا رجلٌ من آخرِ الأممِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقال له: داود، فقال: رَبِّ، كم جعلتَ عُمرَه؟ قال: ستينَ سنةً، قال: أي رَبِّ، زِدْه من عُمرِي أربعينَ سنةً، فلَمَّا انقضى عُمر آدمَ عليه السلام، جاءه مَلَكُ الموتِ فقال: أو لم يبقَ من عُمرِي أربعونَ سنةً؟ قال: أو لم تُعْطِها ابنك داود؟ قال: فَجَحَدَ آدمُ، فَجَحَدَتِ ذُرِّيَّتُه، ونَسِيَ آدمُ، فَتَسَبَّتِ ذُرِّيَّتُه^(١).

في غير الترمذي: «فحينئذٍ أمر بالكتابِ والشهودِ»^(٢) في رواية: «فرأى فيهم الضعيفَ والغني والفقير^(٣)، والمبتلى والصحيح. فقال له آدمُ: يا رَبِّ، ما هذا؟! ألا سَوَّيتَ بينهم؟! قال: أردتُ أن أشكرَ»^(٤).

وروى عبد الله بن عمرو^(٥) عن النبي ﷺ أنه قال: «أخِذُوا من ظَهْرِهِ كما يُؤْخَذُ بِالْمُشْطِ مِنَ الرَّأْسِ»^(٦). وجعل اللهُ لهم عقولاً كنملة سليمان، وأخذَ عليهم العَهْدَ بأنَّه ربُّهم، وأن لا إله غيرُه. فأقرُّوا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنَّه سيبعثُ إليهم الرُّسُلَ، فشهد بعضهم على بعض. قال أبيُّ بن كعب: وأشهدَ عليهم السماواتِ السَّبعَ، فليس من أحدٍ يُولد إلى يومِ القيامةِ إلَّا وقد أخذَ عليه العَهْدَ^(٧).

(١) قوله: آدم، ليس في النسخ الخطية، وأثبتناه من (م)، وسنن الترمذي (٣٠٧٦) وما سلف بين حاصرتين منه وسلفت هذه القطعة ١/ ٢٩٤.

(٢) هو عند الترمذي أيضاً (٣٣٦٨)، وأخرجه ابن حبان (٦١٦٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(ظ): والذليل.

(٤) أخرج هذه الرواية أبو يعلى في مسنده (٦٣٧٧) من حديث أبي هريرة ؓ. وأوردها باللفظ الذي ذكره المصنف ابن العربي في أحكام القرآن ٧٨٩/٢. وقوله: «أردت أن أشكر» قال السندي (كما في حاشية المسند ١٥٧/٣٥): أي: ولا يحصل منهم الشكر على النعمة إلا إذا عرفوها بضدِّها.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): عمر، والمثبت من (خ) و(م).

(٦) أخرجه الطبري ٥٥٢/١٠، وأورده ابن كثير ٥٠٢/٣، وضعف رفعه، وذكر أن وقفه على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أصح.

(٧) المحرر الوجيز ٤٧٤/٢، وقول أبيي ؓ أخرجه أحمد (٢١٢٣٢).

واختلف في الموضع الذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا، على أربعة أقوال: فقال ابن عباس: ببطن نَعْمَان، وإد إلى جَنْبِ عَرَفَةَ^(١). ورُوي عنه أن ذلك بِدَهْنَا^(٢) - أرض بالهند - الذي هبط فيه آدم عليه السلام.

وقال يحيى بن سلام: قال ابن عباس في هذه الآية: أهبط الله آدم بالهند، ثم مسح على ظهره، فأخرج منه كلَّ نَسَمَةٍ هو خالفها إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(٣) قال يحيى: قال الحسن: ثم أعادهم في صُلب آدم عليه السلام^(٤). وقال الكلبي: بين مكة والطائف^(٥).

وقال السُّدِّي: في السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها، مسح على ظهره، فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذُرِّيَّةً بيضاء مثل اللؤلؤ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي. وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذُرِّيَّةً سوداء وقال لهم: ادخلوا النار ولا أبالي^(٦). قال ابن جريج: خرجت كلُّ نفس مخلوقة للجنة بيضاء، وكلُّ نفس مخلوقة للنار سوداء^(٧).

الثانية: قال ابن العربي رحمه الله^(٨): فإن قيل: فكيف يجوز أن يُعذَّب الخلق وهم لم يُذنبوا، أو يُعاقبهم على ما أرادَه منهم، وكتبه عليهم، وساقهم إليه^(٩)؟ قلنا:

(١) أخرجه الطبري ١٠/٥٥٠.

(٢) في النسخ: برهبا، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/٢٢٥ (طبعة الشيخ محمود شاكر رحمه الله)، وتفسير البغوي ٢/٢١٢، والكلام فيه.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/٥٤٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/٥٥٥ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٢/٢١٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/٥٦٠.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/٥٥٦ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) في أحكام القرآن ٢/٧٩١.

(٩) في النسخ الخطية: وساقه إليهم، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

ومن أين يمتنع ذلك، أعقلاً أم شرعاً؟ فإن قيل: لأنَّ الرحيم الحكيم مِنَّا لا يجوزُ أن يفعل ذلك. قلنا: لأنَّ فوقه أميراً يأمره وناهياً ينهَاهُ^(١)، وربُّنا تعالى لا يُسأل عمَّا يفعلُ وهم يُسألون، ولا يجوزُ أن يُقاسَ الخلقُ بالخالق، ولا تُحملَ أفعالُ العباد على أفعال الإله^(٢). وبالْحَقِيقَةِ الأفعال كُلُّهَا لله جلاً جلاله، والخلقُ بأجمعهم له^(٣)، صرَّفهم كيف شاء، وحَكَمَ بينهم بما أراد^(٤)، وهذا الذي يَجِدُهُ الأدميُّ إنَّما تبعثُ عليه رِقَّةُ الجِبِلَّةِ^(٥)، وشفقةُ الجَنَسِيَّةِ، وحبُّ الثناء والمدح؛ لما يتوقَّعُ في ذلك مِنَ الانتفاع، والباري تعالى متقدِّسٌ عن ذلك كُلِّهِ^(٦) فلا يجوزُ أن يُعتبرَ به.

الثالثة: واختلف في هذه الآية؛ هل هي خاصَّةٌ أو عامَّةٌ؟ فقيل: الآية خاصَّةٌ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾. فخرجَ مِن هذا مَنْ كان من ولد آدمٍ لِصُلْبِهِ. وقال جلاً وعزًّا: ﴿أَوْ قَوْلُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، فخرجَ منها كلُّ مَنْ لم يكن له آباءٌ مشركون. وقيل: هي مخصوصةٌ فيمن أخذَ عليه العهد على ألسنة الأنبياء. وقيل: بل هي عامَّةٌ لجميع الناس؛ لأن كلَّ أحدٍ يعلم أنه كان طفلاً فَعُذِّي وَرُبِّي، وأن له مُدَبِّراً وخالقاً. فهذا معنى ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾.

ومعنى ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي: إنَّ ذلك واجبٌ عليهم^(٧). فلما اعترف الخلقُ لله سبحانه بأنَّه الربُّ ثم ذهلوا عنه، ذكَّرهُم بأنبيائه، وختمَ الذِّكْرَ بأفضل أصفِيائه؛ لتقومَ حجته عليهم، فقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. ثم مكَّنه من الصيطرة، وآتاه السلطنة، ومكَّن له دينه في الأرض.

(١) في النسخ الخطية: أميراً وناهياً نهاء، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) في أحكام القرآن: ولا يجوز أن يقاس الخالق بالمخلوق، ولا تحمل أفعال الإله على أفعال العباد.

(٣) لفظة: له، من (م) وأحكام القرآن.

(٤) في (خ): حكم فيهم ما أراد، وفي أحكام القرآن: حكم فيهم كما أراد.

(٥) في النسخ الخطية: الجبلية، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٦) قوله: كله، من (م).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٦٢/٢.

قال الطُّرْتُوشِي: إِنَّ هَذَا الْعَهْدَ يَلْزِمُ الْبَشَرَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَذْكُرُونَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، كَمَا يَلْزِمُ الطَّلَاقُ مَنْ شُهِدَ عَلَيْهِ بِهِ وَقَدْ نَسِيَهُ^(١).

الرابعة: وقد استدلَّ بهذه الآية مَنْ قَالَ: إِنَّ مَنْ مَاتَ صَغِيرًا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ لِإِقْرَارِهِ فِي الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ. وَمَنْ بَلَغَ الْعَقْلَ لَمْ يُغْنِهِ الْمِيثَاقُ الْأَوَّلُ. وَهَذَا الْقَائِلُ يَقُولُ: أَطْفَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ فِي الْبَابِ.

وهذه المسألة اختلف فيها لاختلاف الآثار، والصحيح ما ذكرناه^(٢). وسيأتي الكلام في هذا في «الروم» إن شاء الله^(٣). وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» والحمد لله^(٤).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: «مِنْ بَنِي آدَمَ». وألفاظ الآية تقتضي أنَّ الْأَخَذَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَلَيْسَ لآدَمَ فِي الْآيَةِ ذِكْرٌ بِحَسَبِ اللَّفْظِ^(٥).

ووجه النَّظْمِ^(٦) على هذا: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ ذُرِّيَّتَهُمْ. وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ ظَهَرَ آدَمَ لِأَنَّ الْمَعْلُومَ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ بَنُوهُ، وَأَنَّهُمْ أُخْرِجُوا يَوْمَ الْمِيثَاقِ مِنْ ظَهْرِهِ، فَاسْتغْنَى عَنْ ذِكْرِهِ لِقَوْلِهِ: «مِنْ بَنِي آدَمَ»^(٧).

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَرَأَ الْكُوفِيُّونَ وَابْنُ كَثِيرٍ بِالتَّوْحِيدِ وَفَتَحَ التَّاءَ^(٨)، وَهِيَ تَقَعُ لِلْوَاحِدِ

(١) المحرر الوجيز ٤٧٥/٢ .

(٢) المنهم ٦٧٧/٦ - ٦٧٨ .

(٣) في تفسير الآية (٣٠) منها.

(٤) ص ٥١١ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤٧٤/٢ .

(٦) في (ظ): النظر.

(٧) تفسير البغوي ٢١٢/٢ .

(٨) السبعة ص ٢٩٨ ، والتيسير ص ١١٤ ، والكشف عن وجوه القراءات ٤٨٣/١ ، والكلام منه إلى نهاية المسألة.

والجمع، قال الله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، فهذا للواحد؛ لأنه إنما سأل هبةً ولِد، فبُشِّرَ بيحيى. وأجمع القراء على التوحيد في قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨]، ولا شيء أكثر من ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣] فهذا للجمع. وقرأ الباقون «ذُرِّيَّاتِهِمْ» بالجمع، لأنَّ الذُرِّيَّةَ لِمَا كانت تقعُ للواحد؛ أتى بلفظ لا يقع للواحد، فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يَشْرُكُهَا فيه شيء، وهو الجمع؛ لأنَّ ظهورَ بني آدم استخرج منها ذُرِّيَّاتٌ كثيرةٌ متناسبة، أعقابٌ بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله، فجمع لهذا المعنى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ تقدّم القولُ فيها في «البقرة» عند قوله: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [الآية: ٨١]، مستوفى، فتأملُه هناك^(١).

«أَنْ يَقُولُوا»، «أَوْ يَقُولُوا»: قرأ أبو عمرو بالياء فيهما^(٢)، ردَّهما على لفظ الغيبة المتكرَّر قبله، وهو قوله: ﴿مَنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أيضاً لفظ غيبة. وكذا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، ﴿وَأَلَّاهُمْ﴾ فحملَه على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة.

وقرأ الباقون بالتاء فيهما، ردُّوه^(٣) على لفظ الخطاب المتقدم في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾. ويكون: «شَهِدْنَا»، من قول الملائكة. لَمَّا قالوا: «بلى» قالت الملائكة: «شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا» «أَوْ تَقُولُوا» أي: لثلاثا تقولوا.

وقيل: معنى ذلك: أنهم لَمَّا قالوا: «بلى»، فأقرُّوا له بالرُّبُوبِيَّةِ، قال الله تعالى للملائكة: اشهدوا، قالوا: شَهِدْنَا بإقراركم لثلاثا تقولوا، أو تقولوا. وهذا قول مجاهد

(١) ٢٢٦/٢.

(٢) السبعة ص ٢٩٨، والتيسير ص ١١٤.

(٣) في النسخ الخطية: ردُّه، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٤٨٤، والكلام منه.

والضحَّاك والسُّدِّي^(١).

وقال ابنُ عباس وأبيُّ بن كعب: قوله: «شَهِدْنَا» هو مِن قول بني آدم، والمعنى: شَهِدْنَا أَنْكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا^(٢)، وقال ابن عباس: أشهدَ بعضهم على بعض، فالمعنى على هذا: قالوا: بلى شَهِدَ بعضُنَا على بعض^(٣).

فإذا كان ذلك من قول الملائكة؛ فيوقف على «بلى»، ولا يحسنُ الوقفُ عليه إذا كان من قول بني آدم^(٤)؛ لأنَّ «أَنْ» متعلِّقة بما قبل «بلى» من قوله: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ﴾ لثلاثا يقولوا. وقد روى مجاهد عن ابن عمرو^(٥) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمُشْطِ مِنَ الرَّأْسِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟» قالوا: بلى، قالت الملائكة: شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا. أي: شَهِدْنَا عَلَيْكُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالرَّبُّوبِيَّةِ؛ لثلاثا تقولوا، فهذا يدلُّ على التَّاء. قال مكِّي: وهو الاختيارُ لِصِحَّةِ معناه، ولأنَّ الجماعةَ عليه.

وقد قيل: إنَّ قوله: «شَهِدْنَا» من قول الله تعالى والملائكة. والمعنى: فَشَهِدْنَا عَلَى إِقْرَارِكُمْ؛ قاله أبو مالك، ورُوي عن السُّدِّي أيضاً^(٦). ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: اقتدينا بهم. ﴿أَفَنُكِّنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى: لست تفعل هذا. ولا عذر للمقلِّد في التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾

فَكَانَ مِنَ الْفَاوِرِّ ﴿١٧٥﴾

ذَكَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ قِصَّةَ عَرَفُوها فِي التَّوْرَةِ. وَاخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ الَّذِي أَوْتِيَ الْآيَاتِ،

(١) أخرجه الطبري ٥٥٢/١٠ ، و ٥٦١ .

(٢) أخرجه الطبري ٥٥٦/١٠ - ٥٥٧ .

(٣) تفسير البغوي ٢/٢١٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٧٦ ، وينظر تفسير الرازي ١٥/٥٢ .

(٥) في النسخ والكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٤٨٤ ، والكلام منه: عمر وسلف في المسألة الأولى.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/٥٦٣ .

فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بلعام بن باعوراء^(١)، ويقال: باعر^(٢)، من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش، وهو المعني بقوله: ﴿وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ولم يقل: آية، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف مخبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه، ثم صار بحيث إنه كان أول من صنّف كتاباً أن ليس للعالم صانع.

قال مالك بن دينار: بُعث بلعام بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان، فأعطاه وأقطعاه فاتبع دينه، وترك دين موسى، ففيه نزلت هذه الآيات^(٣).

روى^(٤) المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: كان بلعام قد أوتي النبوة^(٥)، وكان مُجاب الدعوة، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل يريد قتال الجبارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعوه على موسى، فقام ليدعوه، فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك، فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، واندلج لسانه على صدره، فقال: قد ذهب مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة، وسامكر لكم، فإنني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم، فإن الله يبغض الزنى، فإن وقعوا فيه هلكوا، ففعلوا، فوقع بنو إسرائيل في الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً. وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثعلبي وغيره^(٦).

وروي أن بلعام بن باعوراء دعا ألا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستجيب له وبقي في التيه، فقال موسى: يا رب، بأي ذنب بقينا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام،

(١) أخرجه الطبري ٥٦٦/١٠ - ٥٦٨.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): باعم، وفي (م): ناعم، والمثبت من (خ).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٦١٨/٥.

(٤) قوله: روى، من (م).

(٥) قوله: أوتي النبوة، مردود، كما سيرد.

(٦) عرائس المجالس ص ٢٣٩ - ٢٤١، وأخرجه الطبري ٥٧٦/١٠ عن سيّار.

قال: فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمّع دعائي عليه، فدعا موسى أن ينزِع الله عنه الاسم الأعظم، فسلخه الله ما كان عليه^(١).

وقال أبو حامد في آخر كتاب «منهاج العارفين» له: وسمعتُ بعضَ العارفين يقول: إنَّ بعضَ الأنبياء سألَ الله تعالى عن أمرٍ يُلعم وطرده بعدَ تلك الآيات والكرامات، فقال الله تعالى: لم يشكُرني يوماً من الأيام على ما أعطيتُهُ، ولو شكُرني على ذلك مرّةً لما سلبتُهُ.

وقال عكرمة: كان يُلعم نبياً وأوتي كتاباً، وقال مجاهد: إنَّه أوتي النبوة، فرشاه قومُهُ على أن يسكتَ ففعلَ وتركهم على ما هم عليه^(٢). قال الماورديُّ: هذا غيرُ صحيح؛ لأنَّ الله تعالى لا يصطفي لنبوتِهِ إلاَّ مَنْ يعلمُ^(٣) أنَّه لا يخرجُ عن طاعتهِ إلى معصيته^(٤).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفِي، وكان قد قرأ الكُتُب وعَلِمَ أنَّ الله مرسلٌ رسولاً في ذلك الوقت، وتمنى أن يكونَ هو ذلك الرسول، فلما أرسلَ الله محمداً ﷺ حسدهُ وكفَر به^(٥). وهو الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ: «أمنَ شِعْرُهُ وكَفَر قلبُهُ»^(٦).

وقال سعيد بن المسيَّب: نزلت في أبي عامر بن صيفي، وكان يلبسُ المُسوخَ في

(١) عرائس المجالس ص ٢٤١، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٤، وهذه الأخبار كلها من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٧٣ - ٥٧٤.

(٣) في (م): علم.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٧٩، وردّه أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦ وقال: وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٣، وأخرجه مختصراً الطبري ١٠/ ٥٧٠ - ٥٧١ من قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٤ بهذا اللفظ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج أحمد (١٩٤٥٧)، ومسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد بن سويد ؓ أن النبي ﷺ استنشد من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشده... فقال النبي ﷺ: «فلقد كاد يُسلمُ في شعره».

الجاهليّة، فكفّر بالنبِيِّ ﷺ، وذلك أنّه دَخَلَ على النبيِّ ﷺ المدينة، فقال: يا محمد، ما هذا الذي جئتُ به؟ قال: «جئتُ بالحنيفيّة دين إبراهيم»، قال: فأنيّ عليها، فقال النبيُّ ﷺ: «لستَ عليها، لأنّك أدخلتَ فيها ما ليس منها»، فقال أبو عامر: أمانتَ الله الكاذبَ منّا طريداً وحيداً، فقال النبيُّ ﷺ: «نعم، أمانتَ الله الكاذبَ منّا كذلك»، وإنّما قال هذا يُعرضُ برسولِ الله ﷺ حيثُ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ. فخرَجَ أبو عامر إلى الشّام، ومَرَّ إلى قيصر، وكتبَ إلى المنافقين: استعدُّوا، فأنيّ آتيكم من عند قيصرَ بجندٍ لِنُخْرِجَ محمداً مِنَ المدينة، فماتَ بالشّام وحيداً^(١)، وفيه نزل: ﴿وَإِذْ صَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وسيأتي في «براءة».

وقال ابن عباس في رواية: نزلت في رجلٍ كان له ثلاثُ دَعَوَاتٍ يُستجابُ له فيها، وكانت له امرأة يُقال لها: البسوس، وكان له منها ولدٌ، فقالت: اجعل لي منها دعوة واحدة، فقال: لك واحدة، فما تأمرين؟ قالت: أدعُ الله أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رَغِبَتْ عنه، فدعا الله عليها أن يجعلها كلبه نَبَاحَةً. فذهبَ فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: لا صبرَ لنا عن هذا، وقد صارت أمنا كلبه يُعيّرنا الناسُ بها، فادعُ الله أن يردها كما كانت^(٢)، فدعا الله فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعواتُ فيها^(٣). والقولُ الأوّلُ أشهرُ، وعليه الأكثرُ.

قال عبادة بن الصامت: نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ، فانسلكوا منها، ولم يقبلوها^(٤). قال ابن عباس: كان بلعام من مدينة الجبارين، وقيل: كان من اليمن^(٥).

(١) عرائس المجالس ص ٢٤٢، ومجمع البيان ٦٥/٩ - ٦٦.

(٢) في (خ) و(ظ): إلى مثل ما كانت عليه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٦١٧/٥، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص ٢٢٣ - ٢٢٤ وأورده ابن كثير في تفسيره ٥٠٧/٣ - ٥٠٨، وقال: غريب.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أخرجهما الطبري ٥٦٨/١٠ - ٥٦٩ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا﴾ أي: من معرفة الله تعالى، أي: نُزِعَ منه العلمُ الذي كان يعلمه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «العلمُ علمان: علمٌ في القلب، فذلك العلمُ النَّافِعُ، وعلمٌ على اللسان، فذلك حُجَّةُ الله تعالى على ابنِ آدم»^(١)، فهذا مثلُ علمِ بلعامِ وأشباهه، نعوذُ بالله منه، ونسأله التوفيقَ والمماتَ على التحقيق.

والانسلاخُ: الخروجُ، يُقال: انسلختَ الحيَّةَ من جليدها، أي: خرجتَ منه^(٢)، وقيل: هذا من المقلوب، أي: انسلختَ الآياتَ منه.

﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لَحِقَ به، يُقال: أتبعَت القومَ، أي: لحقتهم.

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، انتظروا خروجَ محمدٍ ﷺ فكفروا به^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُنَكِّتُهَا إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَأْنُكَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ يريدُ بلعامَ، أي: لو شِئْنَا لأمتناه قبلَ أن يعصي، فرفعناه إلى الجنة، ﴿بِهَا﴾ أي: بالعملِ بها^(٤). ﴿وَلَنُنَكِّتُهَا إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: رَكَنَ إليها، عن ابنِ جببر والسدي. مجاهد: سَكَنَ إليها^(٥)، أي: سَكَنَ إلى لذاتها، وأصلُ الإخلاقِ اللُّزومُ، يُقال: أخلَدَ فلانٌ بالمكانِ: إذا أقامَ به ولزمه، قال زهير:

لَمَنِ الدِّيَارُ غَشِيَتْهَا بِالْفَدَقِ كَالْوَحْيِ فِي حَجْرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ^(٦)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢٣٥/١٣، والدارمي في سننه (٣٦٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١١٥٠) عن الحسن مرسلاً. وأخرجه الدارمي (٣٦٤) من قول الحسن.

(٢) تفسير أبي الليث ٥/١.

(٣) تفسير البغوي ٢/٢١٥، وتفسير الرازي ٥٤/١٥ - ٥٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٣.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/٥٨٤.

(٦) ديوان زهير ص ٢٦٨، ووقع في النسخ: بالغرقد، والمثبت من الديوان، وهو الصواب فيما قاله =

يعني: المُقيم، فكأنَّ المعنى: لَزِمَ لَذَاتِ الأَرْضِ، فَعَبَّرَ عَنْهَا بِالأَرْضِ، لِأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: مَا زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ. وَقِيلَ: كَانَ هَوَاهُ مَعَ الكُفَّارِ^(١). وَقِيلَ: اتَّبَعَ رِضَا زَوْجِيهِ^(٢)، وَكَانَتْ رَغِبَتْ فِي أَمْوَالٍ حَتَّى حَمَلَتْهُ عَلَى الدَّعَاءِ عَلَى مُوسَى.

﴿فَمَثَلُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبْرًا، ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ شَرْطٌ وَجَوَابُهُ، وَهُوَ فِي مَوْضِعِ الحَالِ، أَي: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ لِأَهْتَاءِ، وَالمَعْنَى: أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا يَرَعُوهُ عَنِ المَعْصِيَةِ، كَمَثَلِ الكَلْبِ الَّذِي هَذِهِ حَالُهُ^(٣)، فَالمَعْنَى: أَنَّهُ لِأَهْتَاءِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، طَرَدَتْهُ أَوْ لَمْ تَطْرُدْهُ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: الكَلْبُ مُنْقَطِعُ الفُؤَادِ، لَا فُؤَادَ لَهُ، إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ، كَذَلِكَ الَّذِي يَتْرُكُ الهَدْيَ لَا فُؤَادَ لَهُ، وَإِنَّمَا فُؤَادُهُ مُنْقَطِعٌ^(٤). قَالَ القَتَيْبِيُّ: كُلُّ شَيْءٍ يَلْهَثُ فَإِنَّمَا يَلْهَثُ مِنْ إِغْيَاءٍ أَوْ عَطَشٍ، إِلَّا الكَلْبَ فَإِنَّهُ يَلْهَثُ فِي حَالِ الكَلَالِ وَحَالِ الرَّاحَةِ، وَحَالِ المَرَضِ وَحَالِ الصَّحَّةِ، وَحَالِ الرِّيِّ وَحَالِ العَطَشِ، فَضَرَبَهُ اللهُ مَثَلًا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ فَقَالَ: إِنْ وَعَظْتَهُ ضَلَّ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ ضَلَّ، فَهُوَ كَالكَلْبِ إِنْ تَرَكْتَهُ لَهَثَ، وَإِنْ طَرَدْتَهُ لَهَثَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى المُلْدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاةَ عَلَيْنُكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ﴾^(٥) [الأعراف: ١٩٣].

قال الجوهري: لَهَثَ الكَلْبُ؛ بِالْفَتْحِ؛ يَلْهَثُ لَهْثًا وَلُهْثًا؛ بِالضَّمِّ: إِذَا أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنَ التَّعَبِ أَوْ العَطَشِ، وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ إِذَا أُغْيِيَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ لِأَنَّكَ إِذَا حَمَلْتَ عَلَى الكَلْبِ نَبِيحَ وَوَلَّى هَارِبًا، وَإِنْ تَرَكْتَهُ شَدَّ عَلَيْكَ وَنَبِيحَ،

= الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ شَاكِرٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ (طَبْعَتُهُ) ١٣/٢٧٠.

قال ثعلب شارح الديوان: القُدْفَدُ: المَرْتَفَعُ فِيهِ صِلاَبَةٌ وَحِجَارَةٌ. كَالوَحِيِّ: كَالكِتَابِ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٠/٥٨٥ مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدٍ.

(٢) ذَكَرَهُ أَبُو اللَّيْثِ ١/٥٨٣.

(٣) فِي (خ) وَ(د) وَ(ز) وَ(م): حَالَتُهُ، وَالمُثَبِّتُ مِنْ (ظ) وَإِعْرَابِ القُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٣/١٦٣، وَالكَلَامُ مِنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٠/٥٨٦ - ٥٨٧.

(٥) تَأْوِيلُ مُشْكَلِ القُرْآنِ ص ٢٨٦.

فِيْتَعِبُ نَفْسَهُ مُقْبِلًا عَلَيْكَ وَمُدْبِرًا عَنْكَ، فَيَعْتَرِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ مَا يَعْتَرِيهِ عِنْدَ الْعَطَشِ مِنْ إِخْرَاجِ اللِّسَانِ^(١). قال الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول»^(٢): إِنَّمَا شَبَّهَهُ بِالْكَلْبِ مِنْ بَيْنِ السَّبَاعِ؛ لِأَنَّ الْكَلْبَ مِثُّ الْفَوَادِ، وَإِنَّمَا لَهَاثُهُ^(٣) لِمَوْتِ فَوَادِهِ. وسائرُ السَّبَاعِ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَلِلذَلِكَ لَا يَلْهَثُنَّ. وَإِنَّمَا صَارَ الْكَلْبُ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ آدَمُ ﷺ إِلَى الْأَرْضِ شَمِيتَ بِهِ الْعَدُوُّ، فَذَهَبَ إِلَى السَّبَاعِ فَأَشْلَاهُمْ^(٤) عَلَى آدَمَ، فَكَانَ الْكَلْبُ مِنْ أَشَدِّهِمْ طَلْبًا، فَنَزَلَ جَبْرِيْلُ بِالْعَصَا الَّتِي صُرِفَتْ إِلَى مُوسَى بِمَدْيَنَ، وَجَعَلَهَا آيَةً لَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ، وَجَعَلَ فِيهَا سُلْطَانًا عَظِيمًا، وَكَانَتْ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ، فَأَعْطَاهَا آدَمَ ﷺ يَوْمَئِذٍ لِيَطْرُدَ بِهَا السَّبَاعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَمَرَهُ فِيمَا رُوي أَن يَدْنُو مِنَ الْكَلْبِ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ أَلْفَهُ الْكَلْبُ، وَمَاتَ الْفَوَادُ مِنْهُ لِسُلْطَانِ الْعَصَا، وَأَلْفَ بِهِ وَيُولِدُهُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا؛ لَوْضَعِ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ، وَصَارَ حَارِسًا مِنْ حُرَّاسِ وَلَدِهِ. وَإِذَا أُدْبِ وَعُلِّمَ الْإِصْطِيَادَ تَأَدَّبَ وَقَبِلَ التَّعْلِيمَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تَمَامُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

السدي: كَانَ يُلْعَمُ بَعْدَ ذَلِكَ يَلْهَثُ كَمَا يَلْهَثُ الْكَلْبُ^(٥). وَهَذَا الْمَثَلُ فِي قَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالتَّوِيلِ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ. وَقِيلَ: هُوَ فِي كُلِّ مُنَافِقٍ. وَالأَوَّلُ أَصَحُّ.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَتَلْمِزْهُمُ كَلِمَاتٍ لِيُحْمَلَ عَلَيْهِمْ اللَّعْنَةُ﴾ أي: إِذْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ بَدَائِبَكَ أَوْ بِرِجْلِكَ يَلْهَثُ، أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَقْرَأُ الْكِتَابَ وَلَا يَعْمَلُ بِمَا فِيهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هَذَا شَرٌّ تَمَثِيلٌ؛ لِأَنَّهُ مَثَلُهُ فِي أَنَّهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ حَتَّى صَارَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرْبًا وَلَا نَفْعًا بِكَلْبٍ لَا هَيْبَةَ أَبَدًا،

(١) الصحاح (لهث).

(٢) قوله: في نوادر الأصول، من (م) ولم نقف عليه في المطبوع منه، وهذا الخبر الذي أورده المصنف منه باطل.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): إلهائه، وسقطت العبارة من (د)، والمثبت من (م).

(٤) أي: دعاهم، وأشليت الكلب على الصيد مثل: أغريته، وزناً ومعنى. المصباح المنير (شلو).

(٥) أخرجه الطبري ٥٨٨/١٠.

حُمِلَ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ تَرْكَ اللَّهْثَانِ^(١).

وقيل: من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يُخَفِّه على جهة الابتداء بالجفاء، ثم تهدأ طائشته بنيل كلِّ عَوْضٍ خَسِيسٍ. ضربه الله مثلاً للذي قَبِلَ الرُّشُوةَ فِي الدِّينِ حَتَّى انسَلَخَ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ.

فَدَلَّتْ الآيَةُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا عَلَى أَلَّا يَغْتَرَّ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ وَلَا بِعِلْمِهِ، إِذْ لَا يَدْرِي بِمَا يُخْتَمُ لَهُ. وَدَلَّتْ عَلَى مَنَعِ أَخْذِ الرُّشُوةِ لِإِبْطَالِ حَقِّ أَوْ تَغْيِيرِهِ، وَقَدْ مَضَى بَيَانُهُ فِي «المائدة»^(٢).

وَدَلَّتْ أَيْضاً عَلَى مَنَعِ التَّقْلِيدِ لِعَالَمٍ إِلَّا بِحِجَّةٍ يُبَيِّنُهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ أَعْطَى هَذَا آيَاتِهِ فَانسَلَخَ مِنْهَا، فَوَجِبَ أَنْ يُخَافَ مِثْلُ هَذَا عَلَى غَيْرِهِ، وَأَلَّا يَقْبَلَ مِنْهُ إِلَّا بِحِجَّةٍ^(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أَي: هُوَ مِثْلُ جَمِيعِ الْكُفَّارِ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ يُقَالُ: سَاءَ الشَّيْءُ: قُبْحٌ، فَهُوَ لِأَزْمٍ، وَسَاءَهُ يَسُوؤُهُ مَسَاءَةً، فَهُوَ مُتَعَدٍّ، أَي: قُبْحٌ مِثْلُهُمْ، وَتَقْدِيرُهُ: سَاءَ مَثَلًا مِثْلُ الْقَوْمِ، فَحَذَفَ الْمِضَافَ، وَنَصَبَ «مَثَلًا» عَلَى التَّمْيِيزِ^(٤).

قَالَ الْأَخْفَشُ^(٥): فَجَعَلَ الْمَثَلُ الْقَوْمَ مَجَازاً. وَالْقَوْمُ مَرْفُوعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ، أَوْ عَلَى إِضْمَارٍ مَبْتَدَأً، التَّقْدِيرُ: سَاءَ الْمَثَلُ مَثَلًا هُوَ مِثْلُ الْقَوْمِ. وَقَدَّرَهُ أَبُو عَلِيٍّ: سَاءَ مَثَلًا مِثْلُ الْقَوْمِ^(٦). وَقَرَأَ عَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ وَالْأَعْمَشُ: «سَاءَ مِثْلُ الْقَوْمِ»: رَفَعَ مَثَلًا بِ «سَاءَ»^(٧).

(١) معاني القرآن للنحاس ١٠٦/٣، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٥٨٦/١٠.

(٢) ١٨٣/٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٦٤/٢.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٥٧/١٥.

(٥) في معاني القرآن ٥٣٧/٢ - ٥٣٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١٦٤/٢.

(٦) وهو قول الزجاج كما في معاني القرآن ٣٩١/٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٦٤/٢، وقراءة عاصم الجحدري في القراءات الشاذة ص ٤٧.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

تقدّم معناه في غير موضع. وهذه الآية تردّ على القدرة كما سبق، وتردّ على من قال: إنّ الله تعالى هدى جميع المُكلّفين، ولا يجوز أن يُضِلَّ أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْإِتْمَارِ بَلِّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلاً بعذله، ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: هم ^(١) بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها ^(٢)، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً. و﴿أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى. و﴿آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ المواعظ، وليس الغرض نفي الإدراكات عن حواسهم جملة كما بيّناه في «البقرة» ^(٣).

﴿أُولَٰئِكَ كَالْإِتْمَارِ بَلِّ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثواب، فهم كالأنعام، أي: همّتهم الأكل والشرب، وهم أضل؛ لأنّ الأنعام تُبصر منافعها ومضارها وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك ^(٤). وقال عطاء: الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه. وقيل: الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع ^(٥).

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي: تركوا التدبّر، وأعرضوا عن الجنة والنار.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فيه ست مسائل:

(١) لفظة «هم» ليست في (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٦٤/٢.

(٣) ٣٢٤/١.

(٤) الوسيط ٤٣٠/٢.

(٥) تفسير أبي الليث ٥٨٤/١، وتفسير الرازي ٦٥/١٥.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة^(١) المشركين والمُلجدين.

قال مقاتل وغيره من المفسرين: نزلت الآية في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته: يا رحمن يا رحيم. فقال رجل من مشركي مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢).

الثانية: جاء في كتاب الترمذي و«سنن» ابن ماجه^(٣) وغيرهما حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نصّ فيه: «تسعة وتسعين اسماً»، وفي أحدهما ما ليس في الآخر. وقد بيّننا ذلك في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»^(٤).

قال ابن عطية^(٥) - وذكر حديث الترمذي - : وذلك الحديث ليس بالمتواتر - وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث - وإنما المتواتر منه قوله ﷺ: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مئةً إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»^(٦)، ومعنى «أحصاها»: عدّها وحفظها.

وقيل غير هذا مما بيّناه في كتابنا^(٧). وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذي^(٨)، وذكرنا من الأسماء ما اجتمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما

(١) في (ظ): واجتناب.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٢/٢١٧.

(٣) سنن الترمذي (٣٥٠٧)، وسنن ابن ماجه (٣٨٦١).

(٤) ص ٨٠ وما بعدها.

(٥) في المحرر الوجيز ٢/٤٨١.

(٦) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) الأسنى ص ٣٢.

(٨) الأسنى ص ٨٣.

يُنَيَّف على مثني اسم^(١). وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلاً فيما يتعلّق بأحكامها، فمن أرادَه وقفَ عليه هناك أو في غيره من الكتبِ الموضوعَةِ في هذا الباب. والله الموقِّقُ للصَّواب، لا ربَّ سِواه.

الثالثة: واختلف العلماء من هذا الباب في الاسم والمسمّى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك في «الكتاب الأسنى»^(٢). قال ابن الحصار: وفي هذه الآية وقوعُ الاسم على المسمّى ووقوعُه على التسمية. فقوله: «ولله» وقع^(٣) على المسمّى، وقوله: «الأسماء» - وهو جمعُ اسم - واقعٌ على التسميات، يدلُّ على صحّة ما قلناه قوله: «فادعوه بها»، والهاء في قوله: «فادعوه» تعود على المسمّى سبحانه وتعالى، فهو المدعوّ، والهاء في قوله: «بها» تعود على الأسماء، وهي التسميات التي يُدعى بها لا غيرها، هذا الذي يفتضيه لسانُ العرب. ومثُلُ ذلك قول رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء؛ أنا محمدٌ، وأحمدُ» الحديث^(٤). وقد تقدّم في «البقرة» شيء من هذا^(٥).

والذي يذهبُ إليه أهلُ الحقِّ أنّ الاسمَ هو المسمّى، أو صفةٌ له تتعلّقُ به، وأنّه غيرُ التسمية.

قال ابن العربيّ عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٦): فيه ثلاثة أقوال:

قال بعض علمائنا: في ذلك دليلٌ على أنّ الاسمَ المسمّى؛ لأنّه لو كان غيره لوجبَ أن تكونَ الأسماءُ لغير الله تعالى.

(١) الأسنى ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) ص ٥٩ وما بعدها.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): واقع.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جُبَيْر بن مطعم ؓ.

(٥) ٤٢٠/١.

(٦) لم نقف عليه في أحكام القرآن. وذكره المصنف أيضاً في الأسنى ص ٦٠ - ٦٣.

الثاني: قال آخرون: المرادُ به التسميات؛ لأنَّه سبحانه واحدٌ، والأسماءُ جمعٌ. قلت: ذكرَ ابن عطية في «تفسيره» أنَّ الأسماءَ في الآية بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يجوز غيره^(١).

وقال القاضي أبو بكر في كتاب «التمهيد»^(٢): وتأويلُ قول النبي ﷺ: «لله تسعةٌ وتسعون اسماً، مَنْ أحصاها دخلَ الجنة»، أي: إنَّ له تسعةً وتسعين تسميةً بلا خلاف، وهي عباراتٌ عن كون الله تعالى على أوصافٍ شتى، منها ما يستحقُّه لنفسه، ومنها ما يستحقُّه لصفةٍ تتعلَّق به، وأسماؤه العائدةُ إلى نفسه هي هو، وما تعلَّق بصفةٍ له فهي أسماءٌ له، ومنها صفاتٌ لذاته، ومنها صفاتٌ أفعال. وهذا هو تأويلُ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: التسمياتُ الحُسنى.

الثالث: قال آخرون منهم: ولله الصفات.

الرابعة: سمَّى الله سبحانه أسماءه بالحُسنى؛ لأنها حسنةٌ في الأسماع والقلوب، فإنَّها تدلُّ على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله. و«الحُسنى» مصدرٌ وُصِفَ به. ويجوز أن يقدر «الحُسنى» فعلى، مؤنَّث الأحسن، كالكبرى تأنيثُ الأكبر، والجمعُ الكبر والحُسن. وعلى الأوَّلِ أفرد كما أفرد وصفٌ ما لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿مَنَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، و﴿يَنجِئَالِ أَوْي مَعَهُ﴾^(٣) [سبا: ١٠].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اطلبوا منه بأسمائه، فيُطلب بكلُّ اسم ما يليقُ به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكِّم لي، يا رزاق ارزقني، يا هادي اهديني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تُبِّ عليّ، هكذا فإنَّ دعوتَ باسم عامٍّ؛ قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكِّم لي، يا لطيف ارزقني. وإنَّ دعوتَ بالاسم^(٤) الأعظم،

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٨٠.

(٢) تمهيد الأوائل ص ٢٦٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٨٠.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): بالأعم. والمثبت من (خ) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٢/٨٠٥، والكلام منه.

فقلت: يا الله، فهو متضمنٌ لكلِّ اسم. ولا تقول: يا رزَّاقِ اهْدِنِي، إِلَّا أَنْ تَرِيدَ: يا رزَّاقِ ارزُقْنِي الخَيْرَ^(١).

قال ابن العربي: وهكذا، رتَّبَ دعاءك تكنُ مِنَ المُخلصين^(٢). وقد تقدَّم في «البقرة»^(٣) شرائطُ الدعاء، وفي هذه السورة أيضاً^(٤)، والحمد لله.

السادسة: أدخل القاضي أبو بكر بن العربي عدَّةً مِنَ الأسماء في أسمائه سبحانه، مثل: مُتِمُّ نوره، وخَيْرُ الوارثين، وخَيْرُ الماكِرين، ورابعُ ثلاثة، وسادسُ خمسة، والطَّيِّبُ، والمعلَّم، وأمثال ذلك^(٥). قال ابن الحصار: واقتدى في ذلك بابن بَرَّجان^(٦)، إذ ذَكَرَ في الأسماء «النظيف» وغير ذلك مما لم يَرِدَ في كتابٍ ولا سنَّة.

قلت: أمَّا ما ذَكَرَ من قوله: مما لم يَرِدَ في كتابٍ ولا سنَّة، فقد جاء في «صحيح» مسلم: «الطَّيِّب»^(٧). وخرَّج الترمذي: «النظيف»^(٨). وخرَّج عن ابن عباس أَنَّ النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَاَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَاْمَكُرْ لِي

(١) في أحكام القرآن: الهدى.

(٢) في أحكام القرآن: وهكذا رتَّبَ دعاءك على اعتقادك تكن من المحسنين.

(٣) ١٨٢/٣ وما بعدها.

(٤) ص ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٥) أحكام القرآن ٧٩٦/٢ - ٧٩٧ و ٧٩٩ و ٨٠٤. ولم نقف على ذكر المعلم من أسمائه تعالى. ولعله في كتابه «الأمَد الأقصى» الذي أشار إليه في أحكام القرآن ٨٠٣/٢.

(٦) عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال، أبي الحكم اللخمي المغربي، ثم الأندلسي الإشبيلي، كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث، له تصانيف مفيدة، توفي سنة (٥٣٦هـ). السير ٧٢/٢٠.

(٧) الحديث (١٠١٥) عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا...» وسلف ٢١/٣.

(٨) الحديث (٢٧٩٩) عن سعد بن أبي وقاص ؓ مرفوعاً، وفيه: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يَحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يَحِبُّ النِّظَافَةَ...». وفي إسناده خالد بن إلياس، قال البخاري: ليس بشيء، وقال أحمد والنسائي: متروك. ميزان الاعتدال ١/٢٢٧.

ولا تمكّر عليّ» الحديث، وقال فيه: حديث حسن صحيح^(١). فعلى هذا جائز أن يُقال: يا خيرَ الماكرين امكّر لي ولا تمكّر عليّ. والله أعلم.

وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» في كتابنا^(٢) وغيره مما جاء ذكره في الأخبار، وعن السلفِ الأخيار، وما يجوزُ أن يُسمّى به ويُدعى، وما يجوزُ أن يُسمّى به ولا يُدعى، وما لا يجوزُ أن يُسمّى به ولا يُدعى. حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري. وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه مسألان: الأولي: قوله تعالى: «يُلْحِدُونَ» الإلحاد: الميلُ وتركُ القصد، يقال: لحدّ^(٤) الرجل في الدين، وألحد: إذا مال. ومنه اللحدُ في القبر؛ لأنّه في ناحيته^(٥). وقُرئ: «يُلْحِدُونَ»^(٦) لغتان.

والإلحادُ يكون بثلاثة أوجه: أحدها: بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنّهم عدلوا بها عما هي عليه، فسّموا بها أوثانهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المئان، قاله ابن عباس وقتادة^(٧). الثاني: بالزيادة فيها. الثالث: بالتقصانِ منها، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أديّةً يُسمّون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير صفاته و^(٨) ما يذكر من أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يليق به.

(١) سنن الترمذي (٣٥٥١)، وسلف ١٥٢/٥.

(٢) الأسنى ص ٢٣٥ و ٢٣٩، والكلام السالف فيه ص ٤٢ - ٤٣.

(٣) الأسنى ص ٣٩ - ٤٠ وعزاه المصنف لكتاب الإيجاز لأبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

(٤) في (د) و(م): ألحد.

(٥) في النسخ الخطية: ناحية، والمثبت من (م). وينظر مجمل اللغة ٨٠٣/٣.

(٦) قرأ بها حمزة. السبعة ص ٢٩٨، والتيسير ص ١١٤.

(٧) تفسير البغوي ٢/٢١٨، وأخرجه الطبري ١٠/٥٩٧ بنحوه.

(٨) قوله: صفاته و، من (ظ).

قال ابن العربي^(١): فَحَذَارِ مِنْهَا، وَلَا يَدْعُونَ أَحَدَكُمْ إِلَّا بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَالْكَتُبُ الْخَمْسَةُ، وَهِيَ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، فَهَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي يَدُورُ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا، وَقَدْ دَخَلَ فِيهَا مَا فِي «الموطأ» الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّصَانِيفِ، وَذَرُّوا مَا سِوَاهَا، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: أَخْتَارُ دَعَاءَ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَ لَهُ، وَأَرْسَلَ بِذَلِكَ إِلَى الْخَلْقِ رَسُولَهُ ﷺ.

الثانية: معنى الزيادة في الأسماء التشبيهية، والنقصان التعطيل. فَإِنَّ الْمُشَبَّهَةَ وَصَفُوهُ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ فِيهِ، وَالْمُعْطَلَةَ سَلَبُوهُ مَا اتَّصَفَ بِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَهْلُ الْحَقِّ: إِنَّ دِينَنَا طَرِيقٌ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ، لَا بِتَشْبِيهِ وَلَا بِتَعْطِيلٍ. وَسُئِلَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْبُوشَنَجِيُّ^(٢) عَنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: إِثْبَاتُ ذَاتٍ غَيْرِ مُشَبَّهَةٍ بِالذَّوَاتِ، وَلَا مُعْطَلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَذَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ معناه: اتركوهم ولا تُحاجُّوهم ولا تَعَرَّضُوا لَهُمْ. فَالآيَةُ عَلَى هَذَا مَنْسُوخَةٌ بِالْقِتَالِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ^(٣).

وقيل: معناه الوعيد، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا﴾ [المدثر: ١١] وقوله: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾^(٤) [الحجر: ٣]. وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿وَيَمَنَّ خَلْقَنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَبْهتُونَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨١﴾

في الخبر أن النبي ﷺ قال: «هُمُ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(٥). وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: «هَذِهِ لَكُمْ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ قَوْمَ مُوسَى مِثْلَهَا»، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ^(٦). وَقَالَ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَى الْحَقِّ

(١) في أحكام القرآن ٨٠٥/٢، وما قبله منه.

(٢) علي بن أحمد بن سهل، من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد وعلوم المعاملات، كان ذا خلق، متديناً. مات سنة (٤٤٨هـ). طبقات الصوفية ص ٤٥٨. وقوله هذا في الرسالة القشيرية ٤٥/١.

(٣) أخرجه الطبري ٥٩٩/١٠.

(٤) المحرر الوجيز ٤٨١/٢.

(٥) أخرجه الطبري ٦٠٠/١٠ عن ابن جريج مرسلًا.

(٦) أخرجه الطبري ٦٠٠/١٠ عن قتادة بنحوه مرسلًا.

حتى ينزل عيسى ابنُ مريم^(١). فدلَّت الآيةُ على أن الله عزَّ وجلَّ لا يُخلي الدنيا في وقتٍ من الأوقاتٍ من داعٍ يدعو إلى الحقِّ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾﴾

أخبر تعالى عن كذبِ آياته أنه سيستدرجهم من حيث لا يعلمون^(٣). قال ابن عباس: هم أهلُ مكة^(٤). والاستدراجُ هو الأخذُ بالتدرج، منزلةً بعدَ منزلة. والدَّرَج: لَفُّ الشيء، يُقال: أدرجته ودرجته. ومنه أدرج الميتُ في أكفانه^(٥). وقيل: هو من الدَّرَجَة، فالاستدراجُ أن يُحطَّ درجةً بعدَ درجةٍ إلى المقصود^(٦).

قال الضحاك: كلما جدَّوا لنا معصيةً جدَّدنا لهم نعمةً^(٧). وقيل لذي النون: ما أقصى ما يُخدع به العبد؟ قال: بالألطف والكرامات؛ لذلك^(٨) قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٩)؛ نُسبِغُ عليهم النعمَ، ونُنسِيهم^(١٠) الشكر، وأنشدوا:

أحسنْتَ ظنَّكَ بالأيامِ إذْ حَسُنْتَ ولم تَحْفَ سوءَ ما يأتي به القَدْرُ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ١٦٢٣/٥ (٨٥٨٩) عن الربيع بن أنس مرسلًا. وأخرج أحمد (١٩٨٥١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «لا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوهم حتى يأتي أمرُ الله وينزل عيسى ابن مريم». وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، أخرجه أحمد (١٨١٣٥)، والبخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٦٥/٢.

(٣) قوله: من حيث لا يعلمون، من (ظ).

(٤) زاد المسير ٢٩٤/٣.

(٥) تهذيب اللغة ٦٤٢/١٠.

(٦) الكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٢٦، وتفسير الرازي ٧٢/١٥.

(٧) الوسيط للواحد ٤٣١/٢، وتفسير البغوي ٢١٨/٢.

(٨) في النسخ الخطية: كذلك، والمثبت من (م).

(٩) أورده المناوي في فيض القدير ٣٥٥/١.

(١٠) في (د) و(ظ): يُسبِع... ينسيهم (بالياء).

وسألمثك الليالي فاغترزت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر^(١)

قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِ لَهُمْ إِيَّائِي كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِ لَهُمْ﴾ أي: أطيل لهم المدة، وأمهلهم وأخر عقوبتهم. ﴿إِيَّائِي كَيْدِي﴾ أي: مكري. ﴿مَتِينٌ﴾ أي: شديد قوي. وأصله من المثن، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب^(٢). قيل: نزلت في المستهزئين من قريش، قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة^(٣). نظيره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقد تقدم^(٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي: فيما جاءهم به محمد ﷺ. والوقف على «يتفكروا» حسن^(٥). ثم قال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾ رد لقولهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقيل: نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ قام ليلة على الصفا يدعو قريشاً، فخذأ فخذأ، فيقول: «يا بني فلان»، يُحذِّرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم^(٦) هذا لمجنون، بات يصوت حتى الصباح^(٧).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ

وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ قِيَامِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه أربع مسائل:

(١) نسبهما الأبشيهي في المستطرف ١٣٤/٢ للإمام الشافعي.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٧٣/٩.

(٣) تفسير البخوي ٢١٨/٢، وزاد المسير ١٩٤/٣.

(٤) ٤٢٦/٦.

(٥) ذكر أبو بكر ابن الأنباري في الإيضاح ٦٧١/٢، وأبو عمرو الداني في المكثف ص ٢٨١ أنه وقف تام.

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(م): صاحبهم، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ٦٠٢/١٠ عن قتادة مرسلًا.

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ عَجِبَ مِنْ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ؛ لِيَعْرِفُوا كِمَالَ قُدْرَتِهِ، حَسَبَ مَا بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ «البقرة»^(١). وَالْمَلَكُوتُ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَبَالِغَةِ، وَمَعْنَاهُ: الْمُلْكُ الْعَظِيمُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ^(٢).

الثانية: استدلالٌ بهذه الآية - وما كان مثلها مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] الآية، وَقَوْلِهِ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] - مَنْ قَالَ بِوَجُوبِ النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالِاعْتِبَارِ بِمَخْلُوقَاتِهِ. قَالُوا: وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَمْ يَنْظُرْ، وَسَلَبَهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِحَوَاسِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَمَّ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية.

وقد اختلف العلماء في أوَّلِ الواجبات؛ هل هو النَّظَرُ وَالِاسْتِدْلَالُ، أَوِ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ التَّصَدِيقُ الْحَاصِلُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَرْطِ صِحَّتِهِ الْمَعْرِفَةُ؟ فَذَهَبَ الْقَاضِي^(٣) وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ أَوَّلَ الْوَأَجِبَاتِ النَّظَرُ وَالِاسْتِدْلَالُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَلِّمُ ضَرُورَةً، وَإِنَّمَا يُعَلِّمُ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ^(٤) بِالْأَدَلَّةِ الَّتِي نَصَبَهَا لِمَعْرِفَتِهِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ بَوَّبَ فِي كِتَابِهِ: بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٥) [محمد: ١٩]. قَالَ الْقَاضِي: مَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِاللَّهِ؛ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَالْجَاهِلُ بِهِ كَافِرٌ.

قال ابنُ رُشْدٍ فِي «مَقْدِمَاتِهِ»^(٦): وَلَيْسَ هَذَا بِالْبَيِّنِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَصِحُّ بِالْيَقِينِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلُ لِمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ بِالتَّقْلِيدِ، وَبِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنَ الْإِعْتِبَارِ بِمَا أَرشَدَ اللَّهُ إِلَى

(١) ٥٠٥/٢.

(٢) ٢٣/٧.

(٣) هو أبو بكر الباقلائي، كما في مقدمات ابن رشد ٣٧/١، والكلام منه.

(٤) من قوله: لأن الله تبارك وتعالى.. إلى هذا الموضع، من (خ) و(م).

(٥) صحيح البخاري بعد الحديث (٦٧)، ينظر فتح الباري ١٥٩/١.

(٦) ٣٧/١ - ٣٨.

الاعتبار به في غير ما آية. قال: وقد استدلّ الباجي على من قال: إنّ النّظر والاستدلال أوّل الواجبات بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامّة والمقلّدين^(١) مؤمنين؛ قال: فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صحّ أن يُسمّى مؤمناً إلاّ من عنده علم بالنّظر والاستدلال. قال: وأيضاً؛ فلو كان الإيمان لا يصحّ إلاّ بعد النّظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحلّ لكم قتلنا؛ لأنّ من دينكم أنّ الإيمان لا يصحّ إلاّ بعد النّظر والاستدلال، فأخرونا حتى ننظر ونستدلّ، قال: وهذا يؤدّي إلى تركهم على كفرهم، وألاّ يقتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا.

قلت: هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، وحسابهم على الله»^(٢).

وترجم ابن المنذر في كتاب «الإشراف»^(٣): ذكرُ صفة كمال الإيمان: أجمع كلُّ من يُحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ كلّ ما جاء به محمدٌ حقٌّ، وأتبرأ^(٤) من كلّ دينٍ يخالف دين الإسلام، وهو بالغٌ صحيحُ العقل؛ أنّه مسلمٌ، وإنّ رجّع بعد ذلك وأظهر الكفر؛ كان مرتدّاً يجبُ عليه ما يجبُ على المرتدّ.

وقال أبو حفص الزّنجاني^(٥): وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد

(١) في النسخ: والمقلّد، والمثبت من مقدمات ابن رشد.

(٢) سلف ٢٠٤/١ مختصراً، وينظر تخريجه ثمة.

(٣) ٢٦٠/٢ - ٢٦١.

(٤) في (د) و(ز): وتبرأ، وفي (م): وأبرأ، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق للإشراف.

(٥) عمر بن علي بن أحمد، قرأ الكلام على أبي جعفر السّماني، وسمع منه الحديث، توفي سنة (٤٥٩هـ).

طبقات الشافعية ٣٠٢/٥.

السُّمْنَانِيّ^(١) يقول: أوَّل الواجبات الإيمانُ بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به، ثم النظرُ والاستدلالُ المؤدِّيَّان إلى معرفة الله تعالى. فيتقدَّم وجوبُ الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله. قال: وهذا أقربُ إلى الصواب، وأرفقُ بالخلْق؛ لأنَّ أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنَّظر والاستدلال.

فلو قلنا: إنَّ أوَّل الواجبات المعرفةُ بالله؛ لأدَّى إلى تكفير الجَمِّ الغفير والعدد الكثير، وألا يدخل الجنةَ إلاَّ آحادُ الناس، وذلك بعيدٌ؛ لأنَّ الرسول ﷺ قطع بأنَّ أكثر أهل الجنة أمته، وأنَّ أمم الأنبياء كلُّهم صفٌّ واحدٌ^(٢)، وأمته ثمانون صفًّا. وهذا بينٌ لا إشكال فيه، والحمد لله.

الثالثة: ذهب بعض المتأخِّرين والمتقدِّمين من المتكلِّمين إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطُّرق التي طرَّقوها، والأبحاث التي حرَّروها لم يصحَّ إيمانه، وهو كافر، فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوَّل من يُبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه. وقد أورد على بعضهم هذا فقال: لا تُشنع عليَّ بكثرة أهل النَّار، أو كما قال^(٣).

قلت: وهذا القول لا يصدر إلاَّ من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه؛ لأنَّ ضيق رحمة الله الواسعة على شِرْذمة يسيرة من المتكلِّمين، واقتحموا في تكفير عامَّة المسلمين. أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه لبيول، وانتهره أصحاب النبي ﷺ: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فقال النبي ﷺ: «لقد حَجَّرت وإسعًا».

(١) كذا سمَّاه المصنف رحمه الله وياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/١٥٢ و ٢٥٢، والسبكي في طبقات الشافعية ٥/٣٠٢. وسمَّاه الخطيب البغدادي في تاريخه ١/٣٥٥، والذهبي في السير ١٧/٦٥١، واللكنوي في الفوائد البهية ص ٢٦٢: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمود السُّمْنَانِي، الحنفي، العراقي، قاضي الموصل، يعتقد مذهب الأشعري، له تصانيف.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله ولم نقف على من ذكر (صف واحد)، وأخرج أحمد (٢٢٩٤٠)، والترمذي (٢٥٤٦) من حديث بُريدة الأسلمي ﷺ مرفوعاً بلفظ: «أهل الجنة عشرون ومنه صفٌّ، ثمانون منها من هذه الأمة».

(٣) المفهم ٦/٦٩٣.

خَرَجَهُ الْبَخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأُمَّةِ^(١).

أترى هذا الأعرابي عَرَفَ اللهَ بالدليل والبرهان والحُجَّةِ والبيان؟! وأنَّ رحمته وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وكم من مثله محكومٌ له بالإيمان. بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلمَ بالنُّطق بالشهادتين، وحتى إنَّه اكتفى بالإشارة في ذلك، ألا تراه أنه لَمَّا قال للسوداء: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسولُ الله، قال: «أَعَيَّتْهَا، فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ»^(٢)، ولم يكن هناك نَظَرٌ ولا استدلالٌ، بل حَكَمَ بإيمانهم من أوَّل وهلة، وإن كان هناك عن النَّظَرِ والمعرفة غَفْلَةٌ. والله أعلم.

الرابعة: ولا يكون النَّظَرُ أيضاً والاعتبارُ في الوجوه الحسان من المُرْدِ والنِّسوان. قال أبو الفرج الجوزي^(٣): قال أبو الطَّيِّب طاهر بن عبد الله الطبري: بلغني عن هذه الطائفة التي تسمَعُ السَّماعَ أَنَّها تُضَيِّفُ إليه النَّظَرَ إلى وجه الأُمرد، وربما زَيَّنَتْه بِالْحُلِيِّ والمُصبغات مِنَ الثياب، وتزعمُ أَنَّها تقصِّدُ به الازديادَ في الإيمان بالنَّظَرِ والاعتبار، والاستدلال بالصَّنعة على الصانع. وهذه النهايةُ في متابعة الهوى ومُخادعة العقل ومُخالفة العلم.

قال أبو الفرج: وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: لم يُحَلِّ اللهُ النَّظَرَ إِلَّا على صورٍ لا ميلَ للنفس إليها، ولا حَظَّ للهوى فيها، بل عبرةٌ لا يُمازجُها شهوة، ولا يُقارِنُها^(٤) لذَّة. ولذلك ما بعثَ اللهُ سبحانه امرأةً بالرسالة، ولا جعلها قاضياً ولا إماماً ولا مُؤدِّناً، كلُّ ذلك لأنَّها محلُّ شهوةٍ وفتنة. فمن قال: أنا آخذُ^(٥) مِنَ الصُّورِ المُستحسنة عِبراً؛ كذَّبناه، وكلُّ مَنْ مَيَّزَ نَفْسَهُ بطبيعة تُخرجه عن طباعنا كذَّبناه، وإنَّما هذه خُدَعُ الشيطانِ للمُدَّعين.

(١) صحيح البخاري (٦٠١٠)، وسنن الترمذي (١٤٧)، وهو عند أحمد (٧٢٥٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) سلف ١٢٣/٥.

(٣) في تلييس إبليس ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٤) في (ظ): يقارنها، وفي تلييس إبليس: تعتربها.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م) وتلييس إبليس: أجد، والمثبت من (ظ).

وقال بعضُ الحكماء: كلُّ شيءٍ في العالم الكبير له نظيرٌ في العالم الصغير، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿وَقَى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقد بيّنا وجه التمثيل في أوّل «الأنعام»^(١).

فعلى العاقل أن ينظرَ إلى نفسه، ويتفكّرَ في خلقه؛ من حين كونه ماءً دافقاً إلى كونه خلقاً سوياً، يُعان بالأغذية ويربّى بالرّفق، ويحفظُ باللين حتى يكتسبَ القوّى ويبلغ الأشدّ. وإذا هو قد قال: أنا، وأنا، ونسي حين أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وسيعودُ مقبوراً، فيا ويحه إن كان محسوراً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿تَبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦]. فينظرُ أنه عبدٌ مربوبٌ مكلفٌ، مخوفٌ بالعذاب إن قصر، مُرَجّى^(٢) بالشواب إن ائتمّر، فيُقيل على عبادة مولاة، فإنه^(٣) وإن كان لا يراه؛ يراه، ولا يخشى^(٤) النَّاسَ، واللهُ أحقُّ أن يخشاه، ولا يتكبّر على أحدٍ من عباده الله؛ فإنه مؤلّفٌ من أقدار، صائرٌ إلى جنّة - إن أطاع - أو إلى نار. وقال ابن العربي^(٥): وكان شيوخنا يستحبّون أن ينظرَ المرءُ في الآياتِ الحكميّة التي جمعت هذه الأوصاف العلميّة:

كيف يزهُو مَنْ رَجِيْعُهُ أبد الدهرِ ضَجِيْعُهُ
هو^(٦) منه وإليه وأخوه ورَضِيْعُهُ

(١) ٣١٨/٨.

(٢) في (د) و(ز) و(م): مرتجياً، وفي (ظ): يرجى، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٨٠٧/٢، والكلام منه، وما سيرد بين حاصرتين منه أيضاً.

(٣) لفظة: فإنه، من أحكام القرآن لابن العربي.

(٤) في النسخ: ويخشى، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في أحكام القرآن ٨٠٧/٢.

(٦) في (د) و(ز) و(ظ) و(م) وأحكام القرآن: فهو، والمثبت من (خ) وهو الموافق لديوان ابن الرومي ١٥٥٢/٤، والآيات له.

وهو يدعوه^(١) إلى الحَا ش^(٢) بَصُغْرِ فِطْيَعُنْ
 قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ مَعْطُوفٍ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ، أَيْ: وفيما خلقَ الله
 من الأشياء. ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وفي آجالهم التي عسى أن تكون
 قد قُرِبَتْ، فهو في موضعِ خفض، معطوفٌ على ما قبله^(٣). وقال ابن عباس: أراد
 باقترابِ الأجلِ يومَ بذْرِ ويومِ أحد^(٤). ﴿فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بأيِّ قرآنٍ غيرِ
 ما جاء به محمدٌ ﷺ يُصدِّقون؟^(٥)

وقيل: الهاءُ للأجل، على معنى: بأيِّ حديثٍ بعدَ الأجلِ يؤمنون حين لا ينفعُ
 الإيمان؟ لأنَّ الآخرةَ ليست بدارِ تكليف^(٦).

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادِيٍّ لَمْ يَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

بَيَّنَّ أَنَّ إِعْرَاضَهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ أَضَلَّهُمْ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْقَدْرِيَّةِ. ﴿وَيَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾
 بالرفع على الاستئناف^(٧). وقُرئ بالجزمِ حَمَلًا عَلَى مَوْضِعِ الْفَاءِ وَمَا بَعْدَهَا^(٨).
 ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيرون، وقيل: يترددون، وقد مضى في أوَّلِ «البقرة» مُستوفى^(٩).

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا
 لَوْحًا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا
 قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ «أَيَّانَ» سؤالٌ عن الزمان، مثل: متى.

(١) في الديوان: ثم يلجيه.

(٢) الحش: (بفتح الحاء وضمها): موضع قضاء الحاجة، وأصله من الحش: البستان؛ لأنهم كانوا كثيراً ما يتغوطون في البساتين. النهاية (حشش).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٦٥/٢.

(٤) لم ننف عليه.

(٥) الوسيط للواحد ٤٣٢/٢.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤٨٣/٢.

(٧) قرأ بها أبو عمرو وعاصم. السبعة ص ٢٩٩، والتيسير ص ١١٥.

(٨) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٤٨٥/١، وقرأ بها حمزة والكسائي، وقرأ الباقون: وتذرهم.

(٩) ٣١٧/١ - ٣١٨.

قال الراجز:

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا أَمَا تَرَى لِنُجْجِهَا أَوَّانَا^(١)
وكانت اليهودُ تقولُ للنبيِّ ﷺ: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم^(٢).
وروي أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار^(٣).

و«مُرساها» في موضع رَفَعٍ بالابتداء عند سيبويه^(٤)، والخبرُ: «أَيَّان»، وهو ظرفٌ
مبنيٌّ على الفتح؛ بُني لأن فيه معنى الاستفهام^(٥).

و«مُرساها» بضم الميم، مِنْ: أرساها الله، أي: أثبتها، أي: متى مُثَبَّتُها، أي:
متى وقوعها. وفتح الميم مِنْ: رَسَتْ، أي: ثَبَّتْ ووقفت، ومنه: ﴿وَقُدُورٍ رَأْسِيَّتٍ﴾
[سبا: ١٣]. قال قتادة: أي: ثابتات^(٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ ابتداءً وخبر^(٧)، أي: لم يُبَيِّنْها لأحد، حتى يكون العبدُ
أبدأ على حَذَرٍ ﴿لَا يَجْلِبِهَا﴾ أي: لا يُظْهِرُها ﴿لَوْقَهَا﴾ أي: في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾،
والتجلية: إظهارُ الشيء، يُقال: جلا لي فلانُ الخبر: إذا أظهره وأوضحه.

ومعنى ﴿فَنُكِّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَفِيَ علمُها على أهل السماوات والأرض.
وكلُّ ما خَفِيَ علمُه فهو ثَقِيلٌ على الفؤاد^(٨). وقيل: كَبُرَ مجيئُها على أهل السماوات

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٨٤، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٠٦،
واللسان (ابن) وفيها: إِبَّاناً، بدل: أوانا، قال ابن منظور: إِبَّان كل شيء: وقته وحينه الذي يكون فيه.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٤ عن قتادة بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦.

(٥) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٠٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٠ - ١١١.

والأرض، عن الحسن وغيره. ابن جريج والسُّدي: عَظَمَ وصفها على أهل السماوات والأرض. وقال قتادة وغيره: المعنى: لا تُطَيِّقُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لِعِظَمِهَا؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ تَنْشَقُّ، وَالنَّجُومَ تَتَنَاضَرُ، وَالْبَحَارَ تَنْضَبُ^(١). وقيل: المعنى: ثَقَلَتِ الْمَسْأَلَةُ عَنْهَا^(٢). ﴿لَا تَأْتِيكَزُ إِلَّا بَعَثَةً﴾ أي: فجأة، مصدرٌ في موضعِ الحال^(٣).

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالمٌ بها، كثيرُ السؤالِ عنها. قال ابن فارس^(٤):
الْحَفِيُّ: الْعَالِمُ بِالشَّيْءِ، وَالْحَفِيُّ: الْمُسْتَقْصِي فِي السُّؤَالِ. قال الأعشى^(٥):

فَإِنْ تَسْأَلِي عَنِّي فَيَا رَبِّ سَائِلٍ
حَفِيٌّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَضْعَدَا
يقال: أَحْفَى فِي الْمَسْأَلَةِ وَفِي الطَّلَبِ، فَهُوَ مُخْفٍ، وَحَفِيٌّ عَلَى التَّكْثِيرِ، مِثْلَ مُخْصِبٍ وَخَصِيبٍ. قال محمد بن يزيد: المعنى: يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا، أَي: مُلِحٌّ، يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ^(٦).

وقال ابن عباس وغيره: هو على التقديم والتأخير، والمعنى: يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهِمْ، أَي: حَفِيٌّ بِبِرِّهِمْ وَفَرِحَ بِسُؤَالِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَرَابَةٌ، فَأَسِيرَ إِلَيْنَا بِوَقْتِ السَّاعَةِ^(٧).

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس هذا تكريراً، ولكن أحدُ الْعِلْمِينَ لَوُقُوعِهَا، وَالْآخِرُ لِكُنْهَافِهَا^(٨).

(١) تفسير الطبري ٦٠٨/١٠ - ٦٠٩ ، والنكت والعيون ٢/٢٨٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/١١١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٦ .

(٤) في مجمل اللغة ١/٢٤٣ .

(٥) ديوانه ص ١٨٥ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٦ ، ومحمد بن يزيد: هو المبرّد .

(٧) تفسير الطبري ٦١١/١٠ - ٦١٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/١١١ - ١١٢ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٦ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا أملك أن أجلب إلى نفسي
خيراً، ولا أذفع عنها شراً؛ فكيف أملك علم الساعة^(١). وقيل: لا أملك لنفسي
الهُدَى والضلال^(٢).

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ في موضع نصبٍ بالاستثناء، والمعنى: إلا ما شاء الله أن
يُملِّكني ويُمكِّنني منه، وأنشد سيبويه:

مهما شاء بالناس يفعل^(٣)

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ المعنى: لو كنت أعلم ما يريد الله
عزَّ وجلَّ مني من قبل أن يُعرفنيهِ؛ لفعلته. وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصرُ في
الحرب لقاتلتُ فلم أُغلب^(٤).

وقال ابن عباس: لو كنت أعلم سنة الجذبِ لهيأتُ لها في زمن الخصب ما
يُكفيني^(٥). وقيل: المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفقُ لاشتريتها وقت كسادها^(٦).
وقيل: المعنى: لو كنت أعلم متى أموتُ لاستكثرْتُ من العملِ الصالح، عن الحسن
وابن جريج^(٧). وقيل: المعنى: لو كنت أعلم الغيبَ لأجبتُ عن كل ما أسألُ عنه^(٨).

(١) تفسير أبي الليث ٥٨٧/١ .

(٢) أخرجه الطبري ٦١٦/١٠ عن ابن جريج.

(٣) من بيت للأسود بن يعقَر كما في كتاب سيبويه ٢٤٦/٢ ، ونوادير أبي زيد ص ١٥٩ ، وتامه:

ألا هل لهذا الدهر من مُتعلِّلٍ عن الناس مهما شاء بالناس يفعل

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٦٦/٢ - ١٦٧ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١١٢/٣ ، والمحزر الوجيز ٤٨٥/٢ .

(٦) أورده بنحوه أبو الليث في تفسيره ٥٨٧/١ ، والماوردي في النكت والعيون ٢٨٥/٢ .

(٧) النكت والعيون ٢٨٥/٢ ، وأخرجه الطبري ٦١٦/١٠ من قول ابن جريج ومجاهد.

(٨) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٧٩/٩ .

وكلُّهُ مُرَاد، واللَّهِ أَعْلَم.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَذِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا استثناءٌ كلام، أي: ليس بي جنونٌ؛ لأنَّهم نسبوه إلى الجنون. وقيل: هو متَّصلٌ، والمعنى: لو علمتُ الغيبَ لما مسَّنِيَ سوءٌ ولَحَذِرْتُ^(١). ودلٌّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَمَا لِينِ مَاآتَيْتَنَا صَالِحًا فَلَمَّا آتَيْنَاهَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٨﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ وَآتَيْنَاهُمَا فِتْنَةً فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال جمهورُ المفسرين: المرادُ بالنفسِ الواحدةِ آدمُ [عليه السلام]. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليأنسَ بها ويطمئنَ، وكان هذا كله في الجنة. ثم ابتدأ بحالةٍ أخرى هي في الدنيا بعدَ هبوطِهما، فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كنايةٌ عن الوِاقاع^(٢). ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾، كلُّ ما كان في بطنٍ أو على رأسِ شجرةٍ؛ فهو حَمْلٌ؛ بالفتح. وإذا كان على ظهرٍ أو على رأسٍ؛ فهو حِمْلٌ؛ بالكسر. وقد حكى يعقوب في حَمَلِ النخلة الكسر^(٣).

وقال أبو سعيد السيرافي^(٤): يُقال في حَمَلِ المرأةِ: حَمَلٌ وحِمْلٌ، يُشبهه مرَّةً

(١) تفسير الرازي ٨٥/١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤٨٦/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٦٧/٢، ويعقوب: هو ابن السُّكَيْت. وينظر إصلاح المنطق له ص ٣، وتهذيب اللغة ٩٠/٥.

(٤) الحسن بن عبد الله بن المرزبان، نحويٌّ ببغداد، تصدر لإقراء القراءات واللغة، وقرأ القرآن على ابن مجاهد، جوّد شرح كتاب سيويه، وله «ألفات القطع والوصل». توفي سنة (٣٦٨هـ). السير ٢٤٧/١٦.

لاستبطانه بحمْل المرأة، ومرةً لبروزه وظهوره بحمْل الدابة^(١). والحملُ أيضاً مصدرٌ حمَل عليه يحمِل حملاً: إذا صال.

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني المني، أي: استمرت بذلك الحمل الخفيف، يقول: تقوم وتقعُد وتقلَّب، ولا تكثرُ بحمله إلى أن ثقُل، عن الحسن ومجاهد وغيرهما^(٢).

وقيل: المعنى: فاستمرَّ بها الحمل، فهو من المقلوب، كما تقول: أدخلتُ القلنسوةَ في رأسي. وقرأ عبدُ الله بن عمرو^(٣): «فَمَارَتْ بِهِ» بالفاءِ والتخفيف، من: مَارَ يَمُورُ: إذا ذهبَ وجاءَ وتصرف. وقرأ ابن عباس ويحيى بن يعمر: «فَمَرَّتْ بِهِ»^(٤) خفيفةً من المرية، أي: شكَّت فيما أصابها، هل هو حملٌ أو مرضٌ، أو نحو ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثَقَلْتَ﴾ صارت ذات ثقُل، كما تقول: أثمر النخل^(٥). وقيل: دخلت في الثقُل، كما تقول: أصبح وأمسى.

﴿دَعَوْا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الضميرُ في «دَعَوْا» عائِدُ على آدمَ وحواء. وعلى هذا القول ما روي في قصص هذه الآية أن حواءَ لما حملت أولَ حملٍ لم تدرِ ما هو - وهذا يُقوي قراءةً من قرأ: «فَمَرَّتْ بِهِ» بالتخفيف - فجزعت لذلك، فوجد إبليسَ السبيلَ إليها^(٦).

قال الكلبي: إن إبليسَ أتى حواءَ في صورة رجلٍ لما أثقلت في أول ما حملت فقال: ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري! قال: إنني أخاف أن يكون بهيمة. فقالت ذلك لآدم عليه السلام. فلم يزالا في همٍّ من ذلك. ثم عاد إليها فقال: هو من الله بمنزلة، فإن دعوتُ الله فولدت إنساناً، أفتسمينه^(٧) بي؟ قالت: نعم. قال: فإني

(١) اللسان (حمل).

(٢) أخرجه الطبري ٦١٨/١٠ بنحوه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣٩٥/٢.

(٣) في النسخ: عبد الله بن عمر، والمثبت من المحرر الوجيز ٤٨٦/٢، والكلام منه. والمحتسب ٢٧٠/١.

(٤) القراءات الشاذة ص ٤٧، والمحتسب ٢٦٩/١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٦٧/٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤٨٦/٢.

(٧) في (خ) و(ز) و(ظ): فسميه، وفي (د): فسميه باسمي، والمثبت من (م).

أدعو الله. فأتاها وقد ولدت، فقال: سمّيه باسمي. فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث - ولو سمّى لها نفسه لعرفته - عبد الحارث^(١).

ونحو هذا مذكور في^(٢) ضعيف الحديث، في الترمذي^(٣) وغيره.

وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، فلا يُعوّل عليها من له قلب، فإنّ آدم وحواء عليهما السلام وإن غرهما بالله العرور؛ فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، على أنه قد سطر وكتب، قال^(٤) رسول الله ﷺ: «خدعهما مرتين: [خدعهما] في الجنة، وخدعهما في الأرض»^(٥). وعُضِدَ هذا بقراءة السلمي: «أُتْشِرِكُونَ» بالياء^(٦).

ومعنى ﴿صَلِحًا﴾ يريد: ولدًا سويًا^(٧).

﴿فَلَمَّا آتَتْهُمَا صَلِحًا جَمَلًا لَّهُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَتْهُمَا﴾. واختلف العلماء في تأويل الشُّركِ المضافِ إلى آدم وحواء، وهي:

الثالثة: قال المفسرون: كان شريكاً في التسمية والصفة، لا في العبادة والربوبية^(٨).

(١) تفسير البغوي ٢/٢٢١، وهو ضعيف - كما سيذكر المصنف - ولا يلتفت إليه.

(٢) في (خ) و(ظ) و(م): من، والمثبت من (د) و(ز)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي ٢/٨٠٩، والكلام منه.

(٣) الحديث (٣٠٧٧)، وأخرجه أحمد (٢٠١١٧)، والطبري ١٠/٦٢٣ من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب مرفوعاً. وعمر بن إبراهيم، قال: فيه ابن عدي في الكامل ٥/١٧٠٠: يروي عن قتادة ما لا يوافق عليه. والحسن البصري مشهور بالتدليس، ولم يثبت سماعه من سمرة إلا حديث العقيقة، كما في مراسيل ابن أبي حاتم ص ٣٢، وجامع التحصيل للعلائي ص ١٩٨. وقد أعل ابن كثير هذا الحديث في تفسيره وقال: إن الحسن البصري نفسه فسّر الآية بغير هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً؛ لما عدل عنه.

(٤) تكرر لفظ: قال في (خ) و(د) و(ز) و(م)، والمثبت موافق ل(ظ).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٦٣٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ٥/١٦٣٥ (٨٦٦٤) - وما بين حاصرتين منهما - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، مرسلًا. ووقع عند ابن أبي حاتم: قال رسول الله ﷺ: خدعهما مرتين، قال زيد: خدعهما في الجنة، وخدعهما في الأرض.

(٦) في الآية التالية، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٨.

(٧) تفسير البغوي ٢/٢٢١.

(٨) تفسير الطبري ١٠/٦٢٩.

وقال أهل المعاني: إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربُّهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث، لكنهما قَصِدَا إلى أن الحارث كان سببَ نِجَاةِ الولدِ، فسمَّياه به كما يُسمَّى الرجلُ نفسه عبدَ ضَيْفِهِ على جِهَةِ الخُضُوعِ له، لا على أن الضيفَ ربُّه^(١)، كما قال حاتم:

وإني لعبدُ الضَّيفِ ما دام ثاويًا وما في إلا تيكَ مِن شيمَةِ العَبْدِ^(٢)

وقال قومٌ: إنَّ هذا راجعٌ إلى جنسِ الأدميين، والتبيين عن حالِ المشركين من ذريةِ آدمَ عليه السلام، وهو الذي يُعوَّلُ عليه. فقوله: «جَعَلَا له» يعني الذَّكَرَ والأنثى: الكافرين، ويُعنى به الجنسان، ودلَّ على هذا: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل: يُشركان، وهذا قولٌ حَسَنٌ.

وقيل: المعنى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: مِن هيئَةٍ واحدةٍ وشكل واحد، «وجَعَلَ منها زوجها» أي: مِن جنسها، «فلَمَّا تَغَشَّاهَا» يعني الجنسين. وعلى هذا القول لا يكون لآدمَ وحواءَ ذَكَرٌ في الآية^(٣)، فإذا آتاها الولدَ صالحاً سليماً سويّاً كما أراداهُ؛ صرفاهُ عن الفِطْرَةِ إلى الشُّركِ، فهذا فعلُ المشركين^(٤). قال ﷺ: «ما مِن مولودٍ إلا يُولَدُ على الفِطْرَةِ - في روايةٍ: على هذه المِلَّةِ - أبواه يَهُودِيَّاهُ وَيُنصُرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»^(٥).

قال عكرمة: لم يخصَّ بها آدمَ، ولكن جعلها عامَّةً لجميعِ الخلقِ بعدَ آدمَ^(٦). وقال الحسين بن الفضل: وهذا أعجبُ إلى أهلِ النَّظَرِ من القولِ الأولِ^(٧)؛ لِمَا في القولِ

(١) وهذا كلام مستند إلى خبر باطل، فلا يعوَّلُ عليه.

(٢) الوسيط للواحدى ٤٣٥/٢، وتفسير البغوي ٢٢١/٢، وتفسير الرازي ٨٨/١٥، والبيت في ديوان حاتم الطائي ص ٤٤، وفيه: إلا تلك، بدل: إلا تيك.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٦٧/٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤٨٦/٢.

(٥) سلف ١٤٨/٧.

(٦) أوردته النحاس في معاني القرآن ١١٦/٣، والبغوي في تفسيره ٢٢٢/٢.

(٧) قوله: من القول الأول، من (ظ).

الأوّل من المضاف من العظامِ بنبيّ الله آدم.

وقرأ أهلُ المدينةِ وعاصم: «شِرْكَاءَ» على التوحيد^(١). وأبو عمرو وسائرُ أهلِ الكوفة بالجمع^(٢)، على مثل: فُعَلَاء، جمعُ شريك. وأنكرَ الأخفشُ سعيدَ القراءةِ الأولى^(٣)، وهي صحيحةٌ على حذفِ المضاف، أي: جعلوا له ذا شِرْكَ، مثل: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، فيرجعُ المعنى إلى أنهم جعلوا له شركاء.

الرابعة: ودلّت الآيةُ على أن الحملَ مرضٌ من الأمراض. روى ابنُ القاسم ويحيى عن مالك قال: أوّل الحملِ بِشْرٌ^(٤) وسرورٌ، وآخرُه مرضٌ من الأمراض. وهذا الذي قاله مالك: إنه مرضٌ من الأمراض يُعطيه ظاهرُ قوله: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وهذه الحالُ مُشَاهِدَةٌ في الحوامل^(٥)، ولأجلِ عِظَمِ الأمرِ وشِدَّةِ الخطبِ جُعِلَ موثُها شهادةً، كما وردَ في الحديث^(٦).

وإذا ثبتَ هذا من ظاهرِ الآية؛ فحالُ الحاملِ حالُ المريضِ في أفعاله. ولا خلافَ بين علماءِ الأمصارِ أن فعلَ المريضِ فيما يَهَبُ أو يُحايِبِي في ثُلُثِهِ.

(١) قرأ بها نافع وأبو جعفر المدنيان وعاصم في رواية شعبة. السبعة ص ٢٩٩، والتيسير ص ١١٥، والنشر ٢٧٣/٢.

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأبو عمرو البصري وابن كثير المكي وابن عامر الشامي. السبعة ص ٢٩٩ والتيسير ص ١١٥.

(٣) في معاني القرآن له ٥٣٩/٢ - ٥٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٦٧/٢ - ١٦٨، وما قبله وما بعده منه.

(٤) في (ز) و(ظ) و(م): يسر، والمثبت من (خ) و(د)، وهو الموافق للموطأ ٧٦٤/٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٨٠٩/٢، والكلام منه.

(٥) في النسخ: الحُمَال، ولم تقف على هذا الجمع، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢٣٣/١ - ٢٣٤، وأحمد (٢٣٧٥٣)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي ١٤/٤ من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «الشهادةُ سبعُ سوى القتل في سبيل الله..» وذكر: «المرأة تموت بجمع شهيدة». وقوله: تموت بجمع، أي: الميِّتة في النفاس ولدها في بطنها لم تَلِدْه وقد تمَّ خلقه. كما في حاشية السندي على مسند أحمد.

وقال أبو حنيفة والشافعي: إنَّما يكونُ ذلك في الحاملِ بحالِ الطَّلُقِ، فأما قبل ذلك فلا. واحتجُّوا بأنَّ الحملَ عادةٌ، والغالبُ فيه السلامة. قلنا: كذلك أكثرُ الأمراضِ غالبُه السلامة، وقد يموتُ مَنْ لم يَمْرَضْ^(١).

الخامسة: قال مالك: إذا مَضَتْ للحاملِ سِتَّةُ أشهرٍ من يومِ حملتْ؛ لم يَجْزُ لها قضاءٌ في مالِها إلا في الثلثِ^(٢). ومَنْ طَلَّقَ زوجته وهي حاملٌ طلاقاً بائناً؛ فلمَّا أتى عليها سِتَّةُ أشهرٍ، فأرادَ ارتجاعها؛ لم يكنْ له ذلك؛ لأنَّها مريضةٌ، ونكاحُ المريضةِ لا يَصِحُّ^(٣).

السادسة: قال يحيى: وسمعتُ مالكا يقول في الرجلِ يحضِرُ القتالَ: إنَّه إذا زحفَ في الصفِّ للقتالِ؛ لم يَجْزُ له أنْ يقضيَ في مالِه شيئاً إلا في الثلثِ، وإنَّه بمنزلةِ الحاملِ والمريضِ المَحْوَوفِ عليه ما كان بتلك الحالِ^(٤). ويلتحقُ بهذا المحبوسُ للقتلِ في قِصاص. وخالفَ في هذا أبو حنيفة والشافعي وغيرهما.

قال ابن العربي^(٥): وإذا استوعبتَ النَّظَرَ لم تَرْتَبْ في أنَّ المحبوسَ على القتلِ أشدُّ حالاً مِنَ المريضِ، وإنكارُ ذلك غفلةٌ في النَّظَرِ؛ فإنَّ سببَ الموتِ موجودٌ عندهما، كما أنَّ المرضَ سببُ الموتِ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. وقال رُوَيْشِدُ الطائِي:

يا أيُّها الراكِبُ المُزجِي مَطِيئَتَهُ سائِلُ بني أسدٍ ما هذه الصَّوْتُ
وقلْ لهم بادِرُوا بِالْعُذْرِ وَالتَّمِسُوا قَوْلًا يُبَرِّئُكُمْ إِنِّي أَنَا الْمَوْتُ^(٦)

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٨٠/٢.

(٢) الموطأ ٧٦٥/٢.

(٣) النوادر والزيادات ٥٦٠/٤.

(٤) الموطأ ٧٦٥/٢.

(٥) في أحكام القرآن ١٨٠/٢، وما قبله منه.

(٦) سلف البيتان ٩١/٣.

وممَّا يدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. فكيف يقول الشافعي وأبو حنيفة:
الحال الشديدة إنما هي المبارزة، وقد أخبر الله عزَّ وجلَّ عن مقاومة العدو وتداني
الفريقين بهذه الحالة العظيمة من بلوغ القلوب الحناجر، ومن سوء الظنون بالله، ومن
زَلْزَلَةِ القلوب واضطرابها؛ هل هذه حالة تُرى على المريض أم لا؟ هذا ما لا يشكُّ فيه
مُنْصِفٌ، وهذا لمن ثبت في اعتقاده، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وشاهد الرسول
وآياته، فكيف بنا؟!!

السابعة: وقد اختلف علماؤنا في راكب البحر وقت الهول، هل حكمه حكم
الصَّحيح أو الحامل؟

فقال ابن القاسم: حكمه حكم الصَّحيح. وقال ابن وهب وأشهب: حكمه حكم
الحامل إذا بلغت ستة أشهر. قال القاضي أبو محمد: وقولهما أقيس؛ لأنها حالة
خوفٍ على النفس كإثقال الحمل^(١).

قال ابن العربي^(٢): وابن القاسم لم يركب البحر، ولا رأى دوداً^(٣) على عود،
ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلق
لموقن بها، ويتحقق التوكُّل والتفويض، فليركب البحر.

قوله تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي: أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء.
﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: الأصنام مخلوقة. وقال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بالواو والنون؛ لأنهم اعتقدوا

(١) عقد الجواهر الثمينة لابن شاس ٤٠٥/٣، والمعونة لعبد الوهاب البغدادي ١٦٤١/٣.

(٢) أحكام القرآن ٨١١/٢. والكلام السابق فيه إلاقول القاضي أبي محمد.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: ولا أرى أنهم دود.

أَنَّ الْأَصْنَامَ تَضَرُّوْا وَتَنْفَعُ، فَأَجْرِيَتْ مُجْرَى النَّاسِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبِغُونَ﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْكَمَلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمُ﴾ [النمل: ١٨]. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: إِنَّ الْأَصْنَامَ، لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْتَصِرُ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قال الأخفش: أي: وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ قال أحمد بن يحيى: لأنه رأس آية، يريد أنه قال: ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ ولم يقل: أم صمتم. وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد^(١). وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن.

وَقُرئ: «لَا يَتَّبِعُوكُمْ» مشدداً ومخففاً^(٢)، لغتان بمعنى. وقال بعض أهل اللغة: «أَتَّبَعَهُ» مخففاً: إذا مضى خلفه ولم يدركه. و«اتَّبَعَهُ» مشدداً: إذا مضى خلفه فأدركه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أُثْأَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أُثْأَلُكُمْ﴾ حاجهم في عبادة الأصنام. «تَدْعُونَ»: تعبدون. وقيل: تدعونها آلهة. «مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي: من غير الله. وسُميت الأوثان عباداً؛ لأنها مملوكة لله مسخرة.

الحسن: المعنى: أن الأصنام مخلوقة أمثالكم.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٦٨/٢. وأحمد بن يحيى: هو ثعلب.

(٢) قرأ نافع: «يَتَّبِعُوكُمْ»، وقرأ الباقون: «يَتَّبِعُوكُمْ». السبعة ص ٢٩٩، والتيسير ص ١١٥.

ولمَّا اعتقد المشركون أنَّ الأصنامَ تضرُّ وتنفع؛ أجزاها مجرى الناس، فقال: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾، ولم يقل: فادعوهنَّ. وقال: «عِبَادٌ»، وقال: «إِنَّ الَّذِينَ»، ولم يقل: إِنَّ التي. ومعنى «فَادْعُوهُمْ» أي: فاطلبوا منهم النفع والضرر. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنَّ عبادة الأصنام تنفع. وقال ابن عباس: معنى فادعوهم: فاعبدوهم.

ثم وَيَخْهَمُ الله تعالى، وَسَفَّهَ عقولَهُم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصِيرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآية. أي: أنتم أفضل منهم، فكيف تعبدونهم؟ والغرضُ بيانُ جهلهم؛ لأنَّ المعبود يتصف بالجوارح.

وقرأ سعيد بن جبير: «إِنَّ الَّذِينَ تدعون من دون الله عباداً أمثالكم» بتخفيف «إِنَّ» وكسرهما لالتقاء الساكنين، ونصب «عباداً» بالتونين، «أمثالكم» بالنصب^(١). والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، أي: هي حجارة وخشب؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه.

قال النحاس^(٢): وهذه قراءة لا ينبغي أن يُقرأ بها من ثلاث جهات: أحدها: أنها مخالفة للسواد. والثانية: أن سيبويه يختار الرفع في خبر «إِنَّ» إذا كانت بمعنى «ما»، فيقول: إِنَّ زَيْدٌ مَنْطِقٌ؛ لأنَّ عمل «ما» ضعيف، و«إِنَّ» بمعناها، فهي أضعف منها. والثالثة: إِنَّ الكسائيَّ زعم أن «إِنَّ» لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما»، إلا أن يكون بعدها إيجاب؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ الأصل أن تكون اللام مكسورة، فحذفت الكسرة لثقلها. ثم قيل: في الكلام حذف، المعنى: فادعوهم إلى أن يتبعوكم، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة.

وقرأ أبو جعفر وشيبة: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ بضم الطاء^(٣)، وهي لغة. واليد

(١) القراءات الشاذة ص ٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٠.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٦٨ - ١٦٩ وما قبله منه.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، النشر ٢/ ٢٧٤.

والرَّجُلِ وَالْأُذُنِ مُؤَنَّثَاتٍ يُصَغَّرْنَ بِالْهَاءِ. وتزاد في الياء في التصغير، تردُّ إلى أصلها فيقال: يُدَيِّه؛ بالتشديد؛ لاجتماع الياءين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي الأصنام. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهي. ﴿فَلَا تُنظَرُونَ﴾ أي: فلا تؤخَّرون. والأصل: «كِيدُونِي» حذف الياء لأن الكسرة تدلُّ عليها. وكذا: ﴿فَلَا تُنظَرُونَ﴾^(١). والكيد: المكر. والكيد: الحرب؛ يقال: غزا فلم يلقَ كيداً.

﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي: الذي يتولَّى نصرتي^(٢) وحفظي الله. ووليُّ الشيء: الذي يحفظه، ويمنع منه^(٣) الضرر. والكتاب: القرآن.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي: يحفظهم. وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سِرٍّ يقول: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يعني فلاناً - ليسوا لي بأولياء، إنما وليُّ الله وصالحُ المؤمنين»^(٤).

وقال الأخفش: وقرئ: «إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ» يعني جبريل. النحاس: هي قراءة عاصم الجحدري^(٥). والقراءة الأولى أبين؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلْبِطُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ﴾^(٦) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر.

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «كيدوني» بإثبات الياء وصلماً، ويعقوب وهشام بخلف عنه وصلماً ووقفاً. وقرأ يعقوب: «تنظرون» بالحالين. السبعة ص ٢٩٩ - ٣٠٠، والتيسير ص ١١٥، والنشر ١٨١/٢ و ١٨٤.

(٢) في (م): نصري.

(٣) في (م): عنه. والكلام في إعراب القرآن للنحاس ١٦٩/٢.

(٤) صحيح مسلم (٢١٥). وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٨٠٤)، والبخاري (٥٩٩٠). قال القاضي عياض في إكمال المعلم ٦٠٠/١: «يعني فلاناً» هي كناية عن قوم كره الراوي تسميتهم لما يقع في نفوس ذرايعهم... وقيل: إن المكنى عنه الحكم بن العاص.

(٥) إعراب القرآن ١٦٩/٢. ونسب القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٨ للحسن وشيبة وضعف هذه القراءة أبو حاتم فيما نقله عنه أبو حيان في البحر ٤٤٦/٤.

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ آفَاتِكُمْ﴾ شرط، والجواب: ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾. ﴿وَوَرَّانَهُمْ﴾ مستأنف. ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في موضع الحال. يعني الأصنام. ومعنى النظر: فتح العينين إلى المنظور إليه، أي: وتراهم كالناظرين إليك. وخبر عنهم بالواو - وهي جماد لا تبصر - لأن الخبر جرى على فعلٍ من يعقل^(١). وقيل: كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة، فلذلك قال: «وَوَرَّانَهُمْ يَنْظُرُونَ». وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات^(٢). فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التعلُّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتترُّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن سليم أبو جري: ركبْتُ قَعُودِي^(٣)، ثم أتيتُ إلى مكة، فطلبتُ رسولَ الله ﷺ، فَأَنْخْتُ قَعُودِي بِيَابِ الْمَسْجِدِ، فَدَلُّونِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ؛ عَلَيْهِ بُرْدٌ مِنْ صُوفٍ؛ فِيهِ طَرَائِقُ حُمْرٍ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فقال: «وعليكَ

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٧٠/٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٨١٥/٢.

(٣) القعود من الدواب: ما يقعد الرجل للركوب والحمل... ومن الإبل: ما أمكن أن يركب، وأدناه أن يكون له ستان. النهاية (قعد).

السلام». فقلت: إنا معشر أهل^(١) البادية، قومٌ فينا الجفاء، فعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها. قال: «اذن» ثلاثاً، فدنوت، فقال: «أعد عليّ»، فأعدت عليه، فقال: «اتقِ الله، ولا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، و[لو] أن تلقى أخاك بوجهٍ مُنَبِّسٍ، و[لو] أن تُفرغَ من دلوِّك في إناء المستسقي، وإن امرؤ سبَّك بما^(٢) يعلمُ منك؛ فلا تسبَّهُ بما تعلم فيه، فإنَّ الله جاعلٌ لك أجراً وعليه وزراً، ولا تسبَّنَّ شيئاً مما حوَّلَكَ اللهُ تعالى». قال أبو جرِّي: فوالذي نفسي بيده، ما سببتُ بعده شاةً ولا بعيراً. أخرجه أبو بكر البزار في «مسنده» بمعناه^(٣).

ورَوَى أبو سعيد المَقْبِرِيُّ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعونَ الناسَ بأموالكم، ولكن يسعونَ منكم بسطِّ الوجهِ وحُسنِ الخلقِ»^(٤).

ورَوَى البخاري^(٥) من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاقِ الناس.

ورَوَى سفيان بن عُيينة، عن الشعبي أنه قال: إنَّ جبريلَ نَزَلَ على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟»، فقال: «لا أدري حتى أسألَ العالمِ». في رواية: «لا أدري حتى أسألَ ربي». فذهبَ فمكَّتْ ساعةً، ثم رجع فقال: «إنَّ الله تعالى يأمرُك أن تعفوَ عمن ظلمَكَ، وتعطيَ من حرَمَكَ، وتصلَ من قطعَكَ»^(٦). فنظمه بعض

(١) لفظة أهل، من (م).

(٢) في النسخ: بما لا. والمثبت موافق لأحكام القرآن لابن العربي ٨١٢/٢ - ٨١٣، ومصادر التخريج.

(٣) لم نقف عليه في مطبوع مسند البزار. وأخرجه أحمد (٢٠٦٣٢)، وأبو داود (٤٠٨٤)، والترمذي (٢٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٩٦١١). وما بين حاصرتين منها.

(٤) أخرجه البزار (١٩٧٧) و(١٩٧٨) (زوائد)، وأبو يعلى (٦٥٥٠)، والحاكم ١٢٤/١ وقال: حديث صحيح. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢/٨: فيه عبد الله بن سعيد المقبري، وهو ضعيف.

(٥) في صحيحه (٤٦٤٣) و(٤٦٤٤). ووقع في النسخ غير (ظ) قبل ذلك قوله: وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاقِ الناس. وهو تكرار لما سيورده المصنف من صحيح البخاري، والمثبت من (ظ).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٨١٢/٢. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢٤٦/١، والطبري ٦٤٣/١٠ و٦٤٤، وأبو الليث في تفسيره ٥٩٠/١.

الشعراء فقال:

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ فِي ثَلَاثَةِ مَنْ كَمَلَتْ فِيهِ فَذَاكَ ^(١) الْفَتَى
إِعْطَاءً مَنْ تَحْرِمُهُ وَوَصَلَ مَنْ تَقَطَّعُهُ وَالْعَفْوُ عَمَّنِ اعْتَدَى

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية ^(٢). وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» ^(٣). وقال الشاعر:

كُلُّ الْأُمُورِ تَزُولُ عَنْكَ وَتَنْقُضِي إِلَّا الثَّنَاءَ فَإِنَّهُ لَكَ بَاقِي
وَلَوْ أَنَّنِي خُيِّرْتُ كُلَّ فَضِيلَةٍ مَا اخْتَرْتُ غَيْرَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ^(٤)

وقال سهل بن عبد الله: كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى بِطُورِ سَيْنَاءَ. قيل له: بأي شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عن ظلمي، وأن يكون صمتي فكراً، وقولي ذكراً ^(٥)، ونظري عبرة.

قلت: وقد روي عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عن ظلمي، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة» ^(٦).

(١) في (م): فذلك.

(٢) ذكره البيهقي في تفسيره ٢/٢٢٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٩٢ من حديث أبي هريرة ؓ بلفظ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩٥٢) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(٤) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٥٧) وشعب الإيمان (٨٥١٠).

(٥) في (م): نطقي ذكراً، وصمتي فكراً.

(٦) لم نقف عليه بتمامه وأخرج بعضه القضاعي في الشهاب (١١٥٩) نحوه مختصراً من حديث ابن عائشة، عن أبيه. قال الذهبي في الميزان ٣/٥٥٠: حديث معضل.

وقيل: المراد بقوله: «خُذِ الْعَفْوَ» أي: الزكاة؛ لأنها يسيرٌ من كثير. وفيه بُعد؛ لأنه من عَفَا: إذا دَرَسَ. وقد يقال: خذ العفو منه، أي: لا تَنْقُصْ عليه وسامحه^(١). وسبب النزول يردُّه، والله أعلم. فإنه لما أمره بمحاجة المشركين؛ دلَّه على مكارم الأخلاق، فإنها سَبَبُ جَرِّ المشركين إلى الإيمان. أي: إقْبَلْ من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسَّر؛ تقول: أخذت حَقِّي عَفْوَاً صَفْوَاً، أي: سهلاً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف. وقرأ عيسى بن عمر: «بالعُرْفِ» بضمين^(٢)، مثل الحُلْمِ، وهما لغتان. والعُرْفُ والمَعْرُوفُ والعَارِفَةُ: كلُّ خَصْلَةٍ حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس.

قال الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ^(٣)
وقال عطاء: «وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ» يعني بلا إله إلا الله^(٤).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ أي: إذا أقمت عليهم الحجة، وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك؛ فأعرض عنهم؛ صيانة له^(٥)، ورفعاً لِقَدْرِهِ عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطاباً لِنَبِيِّهِ عليه الصلاة والسلام؛ فهو تأديبٌ لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخةٌ بآية السيف. وقال مجاهد وقتادة: هي مُحْكَمَةٌ؛ وهو الصحيح لما رواه البخاري^(٦) عن عبد الله بن عباس قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحَرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقَرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسٍ^(٧) عَمَرَ وَمَشَاوَرَتَهُ، كُفُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّاناً.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٧٠/٢.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٨.

(٣) البيت للحطيتة، وهو في ديوانه ص ٢٨٤، وتقديم ١٢٦/٧.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٢٢٤/٢.

(٥) بعدها في (م): عليهم. وفي إعراب القرآن للنحاس ١٧٠/٢؛ وعنه نقل المصنف: عنهم.

(٦) في صحيحه (٧٢٨٦).

(٧) في (م): مجالس.

فقال عُيَيْنَةَ لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجهٌ عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه. فاستأذن لعُيَيْنَةَ. فلَمَّا دخلَ قال: يا ابنَ الخطاب، والله ما نُعطينا الجَزَلَ، ولا تحكُمُ بيننا بالعدل. قال: فغضب عمر حتى هَمَّ بأن يَقَعَ به. فقال الحُرُّ: يا أمير المؤمنين، إنَّ اللهَ قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا منَ الجاهِلين. فوالله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عزَّ وجلَّ.

قلت: فاستعمال عمرَ ﷺ لهذه الآية واستدلال الحُرِّ بها يدلُّ على أنها مُحَكِّمة لا منسوخة. وكذلك استعمالها الحسنُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنهما؛ على ما يأتي بيانه^(١). وإذا كان الجَفَاء على السلطان تعمُّداً واستخفافاً بحقِّه؛ فله تعزيره. وإذا كان غير ذلك؛ فالإعراضُ والصَّفْحُ والعفو؛ كما فعل الخليفةُ العَدْل.

قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿١٥٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لَمَّا نَزَلَ قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «كيف يا ربَّ والغضب»؟ فنزلت: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾^(٢). ونزغُ الشيطان: وساوسه. وفيه لغتان: نَزَغٌ ونَغَزٌ، يقال: إِيَّاكَ وَالتَّزَاغُ وَالتَّنَاغُ، وهم المُوَرِّثُونَ^(٣).

الزجاج^(٤): التَّرْغُ أذنى حركة تكون، ومن الشيطان أذنى وَسْوَسَة. قال سعيد بن المسيَّب: شهدتُ عثمانَ وعليًّا وكان بينهما نَزْغٌ من الشيطان، فما أَبْقَى واحداً منهما

(١) في المسألة الثانية بعد آية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٦٤٦/١٠ عن ابن زيد.

(٣) في (ظ): الموسوسون. وقال في اللسان (ورش): التوريش: التحريش؛ يقال: ورَّشت بين القوم وأرَّشت.

(٤) في معاني القرآن له ٣٩٦/٢.

لصاحبه شيئاً، ثم لم يَبْرَحَا حتى استغفَرَ كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبه^(١).

ومعنى ﴿يَبْرَحَا﴾: يُصِيبَنَّكَ وَيَعْرِضُ لَكَ - أي^(٢): عند الغضب - وسوسةٌ بما لا يحلُّ. ﴿فَاسْتَوَىٰ بِاللَّهِ﴾ أي: اطلبِ النجاةَ من ذلك بالله. فأمر تعالى أن يدفع الوسوسةَ بالالتجاء إليه، والاستعاذة به، ولله المثلُ الأعلى؛ فلا يُستعاذ من الكلاب إلا بربِّ الكلاب. وقد حُكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنعُ بالشيطان إذا سَوَّلَ لك الخطايا؟ قال: أجاهدُه. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهدُه. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهدُه. قال: هذا يطول، أرايتَ لو مررتَ بغنمٍ فنبحك كلبها، ومنعك^(٣) من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأردُّ عليه^(٤) جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغثُ بصاحب الغنم يكفُّه عنك.

الثانية: النَّعْزُ والنَّزْغُ والهَمْزُ والوَسْوَسَةُ سواء، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وقال: ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَوَاسِ الْخَنَازِيرِ﴾ [الناس: ٤]. وأصلُ النزغ: الفساد؛ يقال: نَزَغَ بيننا؛ أي: أفسد. ومنه قوله: ﴿نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: أفسد. وقيل: النزغ: الإغواء والإغراء، والمعنى متقارب.

قلت: ونظير هذه الآية ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول له: مَنْ خَلَقَ كذا وكذا؟ حتى يقول له: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فإذا بَلَغَ ذلك فليستعذُ بالله ولْيُنْتَهَ»^(٥). وفيه عن عبد الله قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة قال: «تلكَ مَحْضُ الإِيمَانِ»^(٦). وفي حديث أبي هريرة: «ذلك صَريحُ الإِيمَانِ»^(٧) والصريح: الخالص.

(١) أخرجه الخلال في السنة (٧١٥)، والخطيب في تاريخ بغداد ٢١٩/٥.

(٢) ليست في (م).

(٣) في النسخ: ومنع. والمثبت من (ظ).

(٤) في (م): وأرده.

(٥) صحيح مسلم (١٣٤): (٢١٤). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٧٦)، والبخاري (٣٢٧٦).

(٦) صحيح مسلم (١٣٣). وعبد الله هو ابن مسعود.

(٧) صحيح مسلم (١٣٢). وأخرجه أحمد (٩١٥٦).

وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان، لأنَّ الإيمانَ اليقينُ، وإنما الإشارةُ إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع^(١) في أنفسهم. فكأنَّه قال: جَزَعُكُمْ من هذا هو محضُ الإيمانِ وخالصُه؛ لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها. فسَمِيَ الوسوسةَ إيماناً لَمَّا كان دفعُها والإعراضُ عنها، والردُّ لها، وعدمُ قبولها، والجزعُ منها؛ صادراً عن الإيمان.

وأما أمرُه بالاستعاذة؛ فليكون تلك الوسوس من آثار الشيطان. وأما الأمرُ بالانتهاء؛ فَمَنْ الركون إليها والالتفات نحوها. فَمَنْ كان صحيحَ الإيمان، واستعمل ما أمره به ربُّه ونبيُّه؛ نفعه وانتفع به. وأما مَنْ خالجه الشبهةُ، وغلب عليه الحسُّ، ولم يقدر على الانفكاك عنها؛ فلا بُدَّ من مشافهته بالدليل العقلي؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهةُ الإبل الجُرب حين قال النبيُّ ﷺ: «لا عَدْوَى». فقال أعرابيٌّ: فما بالُ الإبلِ تكون في الرَّمْلِ كأنها الطُّباء، فإذا دخلَ فيها البعيرُ الأجرَبُ أجربها. فقال ﷺ: «فَمَنْ أَعْدَى الأوَّل؟»^(٢) فاستأصل الشبهة من أصلها^(٣). فلَمَّا يسس الشيطانُ من أصحاب محمد ﷺ بالإغواء^(٤) والإضلال؛ أخذ يُشوِّش عليهم أوقاتهم بتلك الألقِيَّات^(٥)، والوسوسِ الثَّرَهَات، فنَفَرَتْ عنها قلوبُهم، وعَظَمَ عليهم وقوعُها عندهم، فجاؤوا - كما في الصحيح - فقالوا: يا رسول الله، إِنَّا نَجِدُ في أنفسنا ما يَتَعَاظِمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قال: «أَوْ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟». قالوا: نعم. قال: «ذلك صرِيحُ الإيمان»^(٦) رَغْماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

(١) قوله: وقع من (م)، وهو الموافق لإكمال المعلم ٤٢٨/١، وعنه نقل المصنف.

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٠)، والبخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) المفهم ٣٤٦/١.

(٤) في (م): بالإغراء.

(٥) الألقِيَّات، جمع أَلْقِيَّة، وزن: أَعْيِيَّة، وهي ما ألقى من التحاجي والألغاز. ينظر القاموس (لقى).

(٦) هو في صحيح مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة، وسلف قريباً.

فالخواطر التي ليست بمستقرّة، ولا اجْتَلَبَتْهَا الشَّبْهَةُ؛ فهي التي تُدْفَعُ بالإعراض عنها، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة^(١). والله أعلم. وقد مضى في آخر «البقرة»^(٢) هذا المعنى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُم بِفِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾
فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يريد الشرك والمعاصي. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطٰنِ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة^(٣). وقرأ أهل المدينة وأهل الكوفة: «طَائِفٌ»^(٤). ورُوي عن سعيد بن جبير: «طَٰئِفٌ» بتشديد الياء^(٥). قال النحاس^(٦): كلام العرب في مثل هذا: «طَٰئِفٌ» بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يَطِيفُ. قال الكسائي: هو مخفَّفٌ من (طَٰئِفٌ)؛ مثل: مَيِّتٌ ومَيِّتٌ. قال النحاس^(٧): ومعنى «طَٰئِفٌ» في اللغة: ما يُتَخَيَّلُ في القلب، أو يُرَى في النوم؛ وكذا معنى طائف. وقال أبو حاتم: سألت الأضَمَعِيَّ عن طَٰئِفٍ؛ فقال: ليس في المصادر فَيَجْعَلُ. قال النحاس^(٨): ليس هو بمصدر، ولكن يكون بمعنى طائف. والمعنى: إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا

(١) إكمال المعلم ٤٢٩/١.

(٢) ٤٩٥/٤.

(٣) يعني قرأ بها أبو عمرو البصري وابن كثير المكي، وقرأ بها أيضاً الكسائي من أهل الكوفة. السبعة ص ٣٠١، والتيسير ص ١١٥.

(٤) قرأ بها نافع المدني وعاصم وحزمة من أهل الكوفة، ووافقهم ابن عامر الشامي. وأما الكسائي من أهل الكوفة فقرأ: «طيف»، كما سلف.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٨.

(٦) في إعراب القرآن ١٧١/٢. وما قبله منه.

(٧) المصدر السابق.

(٨) في إعراب القرآن ١٧١/١. وما سيرد بين حاصرتين منه.

المعاصي إذا لَحِقَهُمْ شَيْءٌ [من الشيطان] تَفَكَّرُوا في قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي إنعامه عليهم، فتركوا المعصية. وقيل: الطَّيْفُ والطَّائِفُ معنيان مختلفان. فالأوَّل: التخيل، والثاني: الشيطان نفسه. فالأوَّل مصدر طاف الخيال يَطِيفُ^(١) طَيْفًا؛ ولم يقولوا من هذا: طائف في اسم الفاعل. قال السهيلي^(٢): لأنه تَخِيلٌ لا حَقِيقَةٌ له. فأما قوله: ﴿طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩] فلا يقال فيه: طَيْفٌ؛ لأنه اسمُ فاعلٍ حَقِيقَةٌ، ويقال: إنه جبريل.

قال الزجاج^(٣): طُفْتُ عليهم أطوف، وطاق الخيال يَطِيفُ.

وقال حسان^(٤):

فَدَعُ هذا ولكن مَن لَطِيفٍ يُورُّقُنِي إذا ذهب العِشَاءُ
مجاهد: الطَّيْفُ: الغضب^(٥). ويُسمَّى الجنونُ والغضبُ والوسوسةُ طَيْفًا؛ لأنه لَمَّةٌ^(٦) من الشيطان تُشَبِّه بَلَمَّةَ الخيال.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أي: منتهون. وقيل: فإذا هم على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبير: «تَدَكَّرُوا» بتشديد الدال، ولا وجه له في العربية؛ ذكره النحاس^(٧).

الثانية: قال عصام بن المُضْطَلِق: دخلتُ المدينة، فرأيت الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، فأعجبني سَمْتُهُ وحُسْنُ رُؤَايِهِ، فأثار منِّي الحسدَ ما كان يُجِئُهُ^(٨)

(١) في النسخ: يطوف. والمثبت من الروض الأنف ١١٧/٤. قال في اللسان (طيف): طاف يَطِيفُ ويطوف طيفًا وطوفًا.

(٢) في الروض الأنف ١١٧/٤، وما قبله منه بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٣٩٦/٢.

(٤) ديوانه ص ٧.

(٥) أخرجه الطبري ٦٤٨/١٠.

(٦) اللَّمَّةُ: الخطرة تقع في القلب. النهاية (لمم).

(٧) في إعراب القرآن ١٧١/٢، ونسب القراءة لمجاهد.

(٨) أي: يَكِئُهُ.

صدري لأبيه من البُغْض، فقلت: أنتَ ابنُ أبي طالب؟ قال: نعم. فبالغُتُ في شتمه وشم أبيه، فنظر إليَّ نظرةَ عاطفٍ رُؤُوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فقرأ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ثم قال لي: خَفُضْ^(١) عليك، استغفرُ اللهَ لي ولك، إنك لو استعنتنا أعناكَ، ولو استرَفَدْتَنَا^(٢) أرفدناك، ولو استرَشَدْتَنَا أَرشدناك. فتوسَّم في الندم على ما فَرَطَ مِنِّي، فقال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أنت؟ فقلت: نعم. فقال:

شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَحْزَمِ^(٣)

حَيَّاكَ اللهُ وَبِيَّاكَ^(٤)، وعافاك وأذاك^(٥)، انبسط إلينا في حوائجك وما يَعْرِضُ لَكَ، تجدنا عند أفضل ظنِّكَ إن شاء الله. قال عصام: فضاقت عليَّ الأرضُ بما رَحَّبْتَ، ووددت أنها ساخت بي، ثم انسلتُ^(٦) منه ليوأذا^(٧)، وما على وجه الأرض أحبُّ إليَّ منه ومن أبيه^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: المعنى: وإخوانُ الشياطين - وهم الفُجَّارُ من ضلَّالِ الإنس - تَمُدُّهم الشياطينُ في الغيِّ. وقيل للفجار:

(١) أي: هوِّن.

(٢) الاسترفاد من الرد، وهو العطاء والصلة.

(٣) قال في مجمع الأمثال ١/ ٣٦١: قال ابن الكلبي: إن الشعر لأبي أخزم الطائي، وهو جدُّ أبي حاتم، أو جدُّ جدِّه، وكان له ابن يقال له: أخزم. وقيل: كان عاقاً، فمات وترك بنين، فوثبوا على جدِّهم أبي أخزم فأدموه، فقال: إن بنيَّ ضرجوني بالدم... والشنشة: الطبيعة والعادة.

(٤) بِيَّاكَ: بؤاك منزلاً. مختار الصحاح (بيا).

(٥) أي: أعانك. لسان العرب ٨/ ٢٦٨.

(٦) في (م): تسللت.

(٧) أي: تسرَّأ.

(٨) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٣/ ٢٤٧.

إخوان الشياطين؛ لأنهم يقبلون منهم. وقد سبق في هذه الآية ذكر الشيطان. هذا أحسن ما قيل فيه، وهو قول قتادة^(١) والحسن والضحاك. ومعنى «لَا يُقْصِرُونَ» أي: لا يتوبون ولا يرجعون. وقال الزجاج^(٢): في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدونهم في العي؛ لأن الكفار إخوان الشياطين.

ومعنى الآية: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَسَّهُ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَنَبَّهَ عَنْ قُرْبٍ؛ فأما المشركون فيمدُّهم الشيطان. و«لَا يُقْصِرُونَ» قيل: يرجع إلى الكفار على القولين جميعاً. وقيل: يجوز أن يرجع إلى الشيطان. قال قتادة: المعنى ثم لا يقصرون عنهم ولا يرحمونهم^(٣). والإقصار: الانتهاء عن الشيء، أي: لا تقصر الشياطين في مدِّهم الكفار بالعي.

وقوله: ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ يجوز أن يكون متصلاً بقوله: «يَمْدُونَهُمْ»، ويجوز أن يكون متصلاً بالإخوان^(٤). والعي: الجهل.

وقرأ نافع: «يُيْمَدُونَهُمْ» بضم الياء وكسر الميم، والباقون بفتح الياء وضم الميم. وهما لغتان: مَدٌّ وأَمَدٌّ، ومَدٌّ أكثر؛ بغير ألف؛ قاله مكِّي^(٥).

النحاس^(٦): وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم: لا أعرف لها وجهاً، إلا أن يكون المعنى: يزيدونهم في

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦٥٢/١٠.

(٢) في معاني القرآن ٣٩٧/٢، ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٧١/٢ - ١٧٢ وما قبله منه.

(٣) أخرجه الطبري ٦٥٣/١٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٧٢/٢.

(٥) في الكشف عن وجوه القراءات ٤٨٧/١. وقراءة نافع في السبعة ص ٣٠١، والتيسير ص ١١٥.

(٦) في إعراب القرآن ١٧٢/٢.

الغَيِّ. وَحَكَى جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ؛ مِنْهُمْ أَبُو عُبَيْدٍ؛ أَنَّهُ يُقَالُ إِذَا كَثُرَ شَيْءٌ شَيْئاً بِنَفْسِهِ: مَدَّهُ، وَإِذَا كَثُرَ^(١) بغيره قيل: أَمَدَّهُ؛ نَحْوُ: ﴿يُؤَدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وَحُكِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّهُ احْتَجَّ لِقِرَاءَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ: يُقَالُ: مَدَدْتُ لَهُ فِي كَذَا؛ أَي: زَيَّنْتُهُ لَهُ وَاسْتَدْعَيْتُهُ أَنْ يَفْعَلَهُ. وَأَمَدَدْتُهُ فِي كَذَا؛ أَي: أَعْتَنَهُ بِرَأْيٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

قال مكِّي^(٢): والاختيار الفتح؛ لأنه يقال: مددت في الشرِّ، وأمددت في الخير؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَسُدُّكُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. فهذا يدلُّ على قوَّة الفتح في هذا الحرف؛ لأنه في الشرِّ، والغَيِّ هو الشرُّ، ولأن الجماعة عليه. وقرأ عاصم الجَحْدَرِيُّ: «يُمَادُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ»^(٣).

وقرأ عيسى بن عمر: «يَقْضِرُونَ» بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف^(٤). الباقون: «يَقْضِرُونَ» بضدِّه، وهما لغتان. قال امرؤ القيس:

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَ^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيَاتِرٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهُمَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيَاتِرٌ﴾ أي: تقرؤها عليهم. ﴿قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهُمَا﴾ لولا بمعنى: هلاً، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً^(٦)، وقد

(١) في النسخ: مده. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في الكشف عن وجوه القراءات ١/٤٨٧ - ٤٨٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٢، والقراءات الشاذة ص ٤٨.

(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٩٣، والقراءات الشاذة ص ٤٨.

(٥) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: وحلَّت سليمي بطنَ قوِّ فعزَّعرا. وهو في ديوانه ص ٥٦: قال شارحه: سما لك الشوق أي: ارتفع وذهب بك كل مذهب؛ لبعد الأجابة عنك بعدما كان أقصر عنك وكفَّ بقرب من تحب دنوه منك، وقو وعزعر: موضعان.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٢.

تقدّم القول فيها في البقرة مستوفى^(١). ومعنى «اجْتَبَيْتَهَا»: اختلقتها من نفسك. فأعلمهم أنّ الآيات من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ^(٢)، وأنّه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه. يقال: اجْتَبَيْتُ الكلامَ، أي: ارتجَلْتُهُ واختلقتُهُ واخترعْتُهُ: إذا جثت به من عند نفسك^(٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: من عند الله، لا من عند نفسي.
 ﴿هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني القرآن، جمع بصيرة، وهي الدلالة والعبارة، أي: هذا الذي دللتكم به على أنّ الله عزَّ وجلَّ واحدٌ بصائرٌ، أي: يُستبصر بها.
 وقال الزجاج^(٤): «بصائرٌ» أي: طُرُقٌ، والبصائر: طُرُقُ الدَّمِ^(٥). قال الجعفي^(٦):
 راحوا بصائرهم على أكتافهم ويصيرتني يغدو بها عتدٌ وأى^(٧)
 ﴿وَهُدَىٰ﴾: رُشد وبيان. ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: ونعمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾
 فيه مسألتان^(٨):

(١) ٣٤٢/٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣٩٧/٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١٢١/٣. ونسبه الرازي ١٥/١٠١، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/٣١٢ للفراء.

(٤) معاني القرآن له ٣٩٧/٢.

(٥) في (م): الدين. وفي معاني الزجاج: طرائق الدم. قال في الصحاح (بصر): البصيرة من الدم: ما كان على الأرض. وقال الأصمعي: والبصيرة شيء من الدم يُستدل به على الرُمية.

(٦) هو الأسعر (بالسين المهملة)، الشاعر الفارس المشهور، كما ذكر الأمدى في المؤلف والمختلف ص ٥٨، ونقل عن ابن الكلبي أن اسمه مرثد بن أبي حمران... سُمي بالأسعر لقوله:

فلا يدغني قومي لسعد بن مالك
 إذا أنا لم أسعز عليهم وأثقب

(٧) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٢٣٨، ومعاني القرآن للزجاج ٢/٢٩٧، والصحاح (بصر)، واللسان (عتد، بصر، وأى). وفيه: فرسٌ عتدٌ، بفتح التاء وكسرهما أي: شديد تام الخلق، سريع الوثبة، مُعدٌ للجرى، ليس فيه اضطراب ولا رخاوة. وفيه أيضاً: الوأى من الدواب: السريع المشدد الخلق.

(٨) كذا في النسخ. ولكنه لم يذكر إلا مسألة واحدة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قيل: إنَّ هذا نزل في الصلاة؛ روي عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وجابر، والزُّهري، وعبيد الله بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن المسيب^(١).

قال سعيد: كان المشركون يأتون رسولَ الله ﷺ إذا صَلَّى، فيقول بعضهم لبعض بمكة: لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ وَالْعَوَا فيه^(٢)، فأنزل الله جلَّ وعزَّ جواباً لهم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٣).

وقيل: إنها نزلت في الخطبة؛ قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعمرو بن دينار، وزيد بن أسلم، والقاسم بن مُخَيَّمِرَة، ومسلم بن يسار، وشهر بن حَوْشَب، وعبد الله بن المبارك^(٤). وهذا ضعيف؛ لأنَّ القرآنَ فيها قليلٌ، والإنصاتُ يجب في جميعها؛ قاله ابن العربي^(٥). النقاش: والآية مَكِّيَّة، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة. وذكر الطبريُّ عن سعيد بن جبير أيضاً: أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهَرُ به الإمام، فهو عامٌ^(٦). وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآيةُ وغيرها من السنَّة في الإنصات^(٧). قال النقاش: أجمع أهل التفسير أنَّ هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة.

النحاس^(٨): وفي اللغة يجب أن يكون في كلِّ شيء، إلا أن يدلُّ دليلٌ على اختصاص شيء.

(١) أخرج هذا القول عنهم الطبري في تفسيره ٦٥٨/١٠ - ٦٦٠.

(٢) حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَنَا وَالْقُرْآنَ وَالْقُرْآنَ وَالْقُرْآنَ﴾ [فصلت: ٢٦].

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/٣١٢. وسعيد هو ابن المسيب.

(٤) تفسير الطبري ١٠/٦٦٤، والدر المنثور ٣/٣١٣.

(٥) في أحكام القرآن ٢/٨١٧.

(٦) تفسير الطبري ١٠/٦٦٦، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٢/٤٩٤، وما بعده منه.

(٧) المحرر الوجيز ٢/٤٩٤.

(٨) في إعراب القرآن ٢/١٧٣.

وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبُوا﴾: اعملوا بما فيه، ولا تجاوزوه^(١).

والإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة. أَنْصَتَ يُنْصِتُ إِنْصَاتًا؛ وَنَصَّتْ أَيْضًا؛ قال الشاعر:

قال الإمامُ عليكم أمرَ سيّدكم فلم تُخالف وأنصتنا كما قال^(٢)
ويقال: أَنْصِتْهُ وَأَنْصِتُوا لَهُ؛ قال الشاعر:

إذا قالتِ حذامٍ فأنصتوها فإنّ القول ما قالت حذام^(٣)
وقال بعضهم في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبُوا﴾: كان هذا لرسول الله ﷺ خاصًّا لِيَعِيَهُ عَنْهُ أَصْحَابُهُ^(٤).

قلت: هذا فيه بعدٌ، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، والتخصيصُ يحتاج إلى دليل.

وقال عبد الجبار بن أحمد^(٥) في «فوائد القرآن» له: إن المشركين كانوا يكثرون اللُّغَطِ والشَّغْبِ تَعْتًا وَعِنَادًا؛ على ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِنَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. فأمر الله المسلمين حالة أداء الوحي أن يكونوا على خلاف هذه الحالة، وأن يستمعوا، ومدح الجنِّ على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية^(٦) [الأحقاف: ٢٩].

(١) معاني القرآن له ٣٩٨/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤٩٤/٢.

(٢) لم تقف عليه.

(٣) الصحاح (نصت). وقال: ويروى: «فصدقوها». والبيت نسبة في اللسان (نصت) للحكيم بن صعب. قال: وحذام اسم امرأة الشاعر، وهي بنت العتيك بن أسلم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٢٣/٣.

(٥) القاضي أبو الحسن الهمداني، شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية. ولي قضاء القضاة بالرِّيِّ، مات سنة (٤١٥هـ)، من أبناء التسعين. السير ٢٤٤/١٧.

(٦) أحكام القرآن للكميا الطبري ١٤٣/٣ - ١٤٤.

وقال محمد بن كعب القرظي: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه؛ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا مثل قوله، حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة. فليث بذلك ما شاء الله أن يلبث؛ فنزل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فأنصتوا^(١). وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله ﷺ.

وقال قتادة في هذه الآية: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة، فيسألهم: كم صليتم؟ كم بقي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٢). وعن مجاهد أيضاً: كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجتهم؛ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣).

وقد مضى في «الفاتحة» الاختلاف في قراءة المأموم خلف الإمام. ويأتي في الجمعة^(٤) حكم الخطبة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ نظيره: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ وقد تقدّم^(٥).

قال أبو جعفر النحاس^(٦): ولم يختلف في معنى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أنه في الدعاء.

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٩٧٨) (تفسير)، بنحوه مختصراً، وابن أبي حاتم (٨٧٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٤٧، والطبري ١٠/٦٦٢.

(٣) أحكام القرآن للكلبي الطبري ٣/١٤٧. وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية ٩ منها، المسألة السابعة.

(٥) ٧/٢٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٣/١٢٣.

قلت: قد رُوي عن ابن عباس أنه يعني بالذكر القراءة في الصلاة^(١). وقيل: المعنى: اقرأ القرآن بتأمل وتدبر.

«تَضَرُّعاً» مصدر، وقد يكون في موضع الحال. «وَخِيفَةً» معطوف عليه، وجمع خيفة: خِوْفٌ؛ لأنه بمعنى الخَوْف؛ ذكره النحاس^(٢). وأصل خيفة: خِوْفَةٌ؛ قُلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها. خاف الرجلُ يخافُ خوفاً وخِيفَةً ومَخَافَةً، فهو خائفٌ، وقومٌ خِوْفٌ على الأصل، وخِيفٌ على اللفظ. وحكى الفراء أنه يقال أيضاً في جمع خيفة: خِيف^(٣). قال الجوهري^(٤): والخِيفَةُ الخوفُ، والجمع خِيفٌ، وأصله الواو.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ أي: دون الرفع في القول. أي: أَسْمِعْ نَفْسَكَ؛ كما قال: ﴿وَأَبْتَخِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بين الجهر والمُخافتة. ودلّ هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوعٌ؛ على ما تقدّم في غير موضع.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْإِصَالِ﴾ قال قتادة وابن زيد: الأَصَالُ: العَشِيَّاتُ. والغدُوُّ جمع غُدوة. وقرأ أبو مجلّز: «بِالْغُدُوِّ وَالْإِصَالِ» وهو مصدر أصلنا، أي: دخلنا في العَشِيِّ^(٥). والأصَالُ جمع أَصْلٌ؛ مثل: طُنْبٌ وأظناب^(٦)؛ فهو جمع الجمع، والواحد أصيلٌ، جُمِعَ على أَصْلٍ؛ عن الزجاج^(٧). الأَخْفَشُ^(٨): الأَصَالُ جمع أصيلٌ؛ مثلُ يَمِينٍ وأَيْمَانٍ. الفراء: أَصْلٌ جمع أصيلٌ، وقد يكون أَصْلٌ واحداً، كما قال الشاعر:

(١) الوسيط للواحد ٢/٤٤٠، والبغوي ٢/٢٢٦.

(٢) في إعراب القرآن ٢/١٧٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٣، ولم تقف على قول الفراء في معانيه.

(٤) في الصحاح (خوف).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٣. والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٨، وابن جنّي في المحتسب ١/٢٧١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٣.

(٧) في معاني القرآن له ٢/٣٩٨.

(٨) معاني القرآن له ٢/٥٤١. ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/١٧٣.

ولا بأحسنَ منها إذ ذنأ الأُصل^(١)

الجوهري^(٢): الأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أُصلٌ وأصالٌ وأصائلٌ؛ كأنه جمع أصيلة؛ قال الشاعر^(٣):

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَقْعُدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالْأَصَائِلِ
وَيُجْمَعُ أَيْضاً عَلَى أَضْلَانٍ؛ مِثْلَ بَعِيرٍ وَيُغْرَانُ؛ ثُمَّ صَغَّرُوا الْجَمْعَ فَقَالُوا:
أَصِيلَانٌ، ثُمَّ أَبَدَلُوا مِنَ النَّونِ لَاماً فَقَالُوا: أَصِيلَانٌ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ^(٤):

وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلَاناً لِأَسَائِلِهَا عَيْتٌ جَوَاباً وَمَا بِالرَّبِّعِ مِنْ أَحَدٍ
وَحَكَى اللَّخْيَانِيُّ: لَقَيْتُهُ أَصِيلَاناً.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: عن الذكر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة بإجماع. وقال:
«عِنْدَ رَبِّكَ» - والله تعالى بكلِّ مكان^(٥) - لأنهم قريبون من رحمته، وكلُّ قريب من
رحمة الله عزَّ وجلَّ فهو عنده؛ عن الزجاج^(٦). وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذُ
فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رُسلُ الله؛ كما يقال: عند الخليفة جيش كثير.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٧٣/٢. والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٠٧. وصدر البيت: يوماً
بأطيب منها نشر رائحة.

(٢) الصحاح (أصل).

(٣) هو أبو ذؤيب، والبيت في ديوان الهذليين ص ١٤١.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص ٣٠، وسلف ١/٤٦٠.

(٥) العبارة موهمة، وأهل السنة يقولون: إن الله عز وجل فوق السماء وعلمه في كل مكان.

(٦) معاني القرآن له ٣٩٨/٢. ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١٧٣/٢، وما بعده منه.

وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قريهم في الكرامة لا في المسافة^(١).

﴿وَيَسْجُدُونَ﴾ أي: ويعظمونه وينزّهونه عن كل سوء. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ قيل: يصلون. وقيل: يذُلون، خلاف أهل المعاصي^(٢).

الثانية: والجمهور من العلماء في أن هذا موضع سجود للقارى. وقد اختلفوا في عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل: خمس عشرة؛ أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العلق؛ وهو قول ابن حبيب وابن وهب - في رواية - وإسحاق. ومن العلماء من زاد سجدة الحجر؛ قوله تعالى: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ﴾ [٩٨] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. فعلى هذا تكون ست عشرة. وقيل: أربع عشرة؛ قاله ابن وهب في الرواية الأخرى عنه، وأسقط ثمانية الحجج؛ وهو قول أصحاب الرأي^(٣)، والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها؛ رواه ابن ماجه وأبو داود في سننهما عن عبد الله بن مُنِينٍ من بني عبد كلال، عن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن؛ منها ثلاث في المفصل، وفي الحجّ سجدتان^(٤). وعبد الله بن مُنِينٍ لا يُحتجُّ به؛ قاله أبو محمد عبد الحق^(٥).

وذكر أبو داود أيضاً من حديث عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفي سورة الحجّ سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدْهما فلا يقرأهما»^(٦). في إسناده

(١) نحوه في المحرر الوجيز ٤٩٥/٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٧٣/٢.

(٣) المفهم ١٩٥/٢.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٧)، وسنن أبي داود (١٤٠١). وأخرجه الحاكم في المستدرک ٢٢٣/١ قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٩/٢: حسنه المنذري والنوي، وضعفه عبد الحق وابن القطان، وفيه عبد الله ابن مُنِينٍ وهو مجهول، والراوي عنه الحارث بن سعيد العتقي، وهو لا يعرف أيضاً.

(٥) في الأحكام الوسطى ٩٢/٢.

(٦) سنن أبي داود (١٤٠٢). وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٣٦٤)، والترمذي (٥٧٨).

عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف جداً. وأثبتها^(١) الشافعي، وأسقط سجدة ص. وقيل: إحدى عشرة سجدة، وأسقط آخره الحج وثلاث المفصل، وهو مشهور مذهب مالك، وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم.

وفي سنن ابن ماجه: عن أبي الدرداء قال: سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل، ومريم، والحج سجدة، والفرقان، وسليمان سورة النمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم^(٢).

وقيل: عشرة؛ وأسقط: آخره الحج، وص، وثلاث المفصل؛ ذكر عن ابن عباس.

وقيل: إنها أربع: سجدة الم تنزِيل، وحَم تنزِيل، والنجم، والعلق. وسبب الخلاف اختلاف النقل في الأحاديث والعمل، واختلافهم في الأمر المجرد بالسجود في القرآن؛ هل المراد به سجود التلاوة، أو سجود الفرض في الصلاة^(٣)؟

الثالثة: واختلفوا في وجوب سجود^(٤) التلاوة؛ فقال مالك والشافعي: ليس بواجب. وقال أبو حنيفة: هو واجب. وتعلق بأن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب، ويقول عليه الصلاة والسلام: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ سَجْدَةً؛ فَسَجَدَ؛ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - فِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي^(٥) - أَمْرَ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ؛ فَلَهُ

(١) يعني ثانية الحج، وفي (م): وأثبتهما (يعني سجدتي الحج).

(٢) سنن ابن ماجه (١٠٥٦). وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٦٩٢)، والترمذي (٥٦٨) مختصراً. قال أبو داود عقب (١٤٠١): روي عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: إحدى عشرة سجدة. وإسناده واو ١٠٠هـ. ووقع في مطبوع ابن ماجه: والحج وسجدة الفرقان. وهو خطأ.

(٣) المفهم ١٩٥/٢. وما قبله منه.

(٤) في النسخ الخطية: سجدة. والمثبت من (م)، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٨٢٠/٢.

(٥) وقع بعدها في النسخ غير (ظ): ويقول عليه السلام إخباراً عن إبليس لعنه الله. والصواب ما أثبتناه، فهو حديث واحد؛ رواه مسلم عن ابن أبي شيبه وأبي كريب. ووقع في (ظ): ويقول عليه السلام: أمر ابن آدم... الخ. سقط منها: إذا قرأ ابن آدم...

الجنة، وأمرتُ بالسجودِ فأبَيْتُ؛ فلي النارُ. أخرجه مسلم^(١). ولأنَّ النبيَّ ﷺ كان يحافظ عليه. وعَوَّلَ علماؤنا على حديثِ عمرَ الثابتِ - خرَّجه البخاري^(٢) - أنه قرأ سجدة^(٣) على المنبر، فنزل فسجد، وسجد الناس معه، ثم قرأها^(٤) في الجمعة الأخرى، فتَهَيَّأَ الناسُ للسجود، فقال: أيها الناسُ، على رِسلكم، إنَّ اللهَ لم يكتبها علينا إلا أن نشاء. وذلك بمحضر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من الأنصار والمهاجرين، فلم يُنكر عليه أحد، فثبت الإجماعُ به في ذلك. وأما قوله: «أمر ابنُ آدم بالسجود» فأخبارٌ عن السجود الواجب، ومواظبةُ النبيِّ ﷺ تدلُّ على الاستحباب، والله أعلم.

الرابعة: ولا خلاف في أنَّ سجودَ القرآنِ يحتاجُ إلى ما تحتاجُ إليه الصلاةُ من طهارةٍ حَدِيثٍ ونَجَسٍ، ونيةٍ، واستقبالِ قِبلةٍ، ووقت^(٥). إلا ما ذكر البخاريُّ عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة^(٦). وذكره ابن المنذر عن الشعبي^(٧).

وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم؟ اختلفوا في ذلك؛ فذهب الشافعيُّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يُكَبَّرُ ويرفَعُ للتكبير لها^(٨). وقد رُوِيَ في الأثر عن ابن عمر: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا سجد كَبَّرَ، وكذلك إذا رفع كَبَّرَ^(٩).

(١) في صحيحه (٨١) من حديث أبي هريرة ؓ. وأخرجه أيضاً أحمد (٩٧١٣).

(٢) في صحيحه (١٠٧٧) بنحوه.

(٣) في (م): آية سجدة. والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٨٢٠/٢.

(٤) في صحيح البخاري وأحكام القرآن لابن العربي: قرأ بها.

(٥) المفهم ١٩٦/٢، وإكمال المعلم ٥٢٣/٢.

(٦) ذكره البخاري تعليقاً قبل الحديث (١٠٧١)، ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/٢، ومن طريقه ابن حجر في تليق التعليق ٤٠٨/٢.

(٧) ذكر ابن قدامة في المغني ٣٥٨/٢ عن الشعبي أن مَنْ سَمِعَ السجدة على غير وضوء سجد حيث كان وجهه.

(٨) المفهم ١٩٦/٢.

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٨٢٠/٢. وأخرج نحوه أبو داود (١٤١٣) من طريق عبد الله بن عمر، =

ومشهور مذهب مالك أنه يُكَبَّرُ لها في الخفض والرفع في الصلاة. واختلف عنه في التكبير لها في غير الصلاة، وبالتكبير لذلك قال عامة الفقهاء .

ولا سلام لها عند الجمهور، وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يُسَلَّمُ منها. وعلى هذا المذهب يتحقق أن التكبير في أولها للإحرام، وعلى قول مَنْ لا يُسَلَّمُ يكون للسجود فحسب. والأوَّلُ أَوْلَى؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وتحريمُها التكبيرُ، وتحليلُها التسليم»^(١). وهذه عبادة لها تكبير، فكان لها تحليلٌ كصلاة الجنائز، بل أَوْلَى، لأنها فعل، وصلاة الجنائز قولٌ. وهذا اختيار ابن العربي^(٢).

الخامسة: وأما وقته؛ فقليل: يسجد في سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنها صلاةٌ لسبب. وهو قولُ الشافعي وجماعة. وقيل: ما لم يُسْفِرَ الصُّبْحُ، أو ما لم تَضُمَّرَ الشَّمْسُ بعد العصر. وقيل: لا يسجد بعد الصبح، ولا بعد العصر. وقيل: يسجد بعد الصبح [ما لم يُسْفِرَ] ولا يسجد بعد العصر. وهذه الثلاثة الأقوال في مذهبنا. وسببُ الخلاف: معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتب عليها؛ لعموم النهي عن الصلاة بعد العصر، وبعد الصبح، واختلافهم في المعنى الذي لأجله نُهي عن الصلاة في هذين الوقتين، والله أعلم^(٣).

السادسة: فإذا سجد يقول في سجوده: اللَّهُمَّ احطط عَنِّي بها وِزْراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً. رواه ابن عباس عن النبي ﷺ؛ ذكره ابن ماجه^(٤).

= عن نافع، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مرَّ بالسجدة كَبَّرَ وسجد، وسجدنا معه. والحديث أصله في البخاري (١٠٧٥)، ومسلم (٥٧٥) من طريق عبيد الله بن عمر، وليس فيه: كَبَّرَ.

(١) أخرجه أحمد (١٠٠٦)، وأبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٣٨)، وابن ماجه (٢٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٨٢٠.

(٣) المفهم ٢/ ١٩٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٣). وأخرجه أيضاً الترمذي (٥٧٦) و(٣٤٢٤) وفي إسناده حسن بن محمد بن =

السابعة: فإن قرأها في صلاة؛ فإن كان في نافلة، سَجَدَ إن كان منفرداً أو في جماعة وأَمِنَ التخليط فيها. وإن كان في جماعة لا يأمنُ ذلك فيها؛ فالمنصوصُ جوازُه. وقيل: لا يسجد. وأما في الفريضة فالمشهور عن مالك النَّهْيُ عنه فيها، سواء كانت صلاة سرّاً أو جهر، جماعةً أو فرادى. وهو مُعَلَّلُ بكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة. وقيل: مُعَلَّلُ بخوف التخليط على الجماعة؛ وهذا أشبه. وعلى هذا لا يُمنع منه الفرادى ولا الجماعة التي يأمن فيها التخليط^(١).

الثامنة: رَوَى البخاريُّ عن أبي رافع قال: صَلَّيْتُ مع أبي هريرة العَتَمَةَ، فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد؛ فقلت: ما هذه؟ قال: سجدتُ بها خلف أبي القاسم رضي الله عنه، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. انفرد بإخراجه^(٢).

وفيه: وقيل لعمران بن حصين: الرجلُ يَسْمَعُ السجدةَ ولم يَجْلِسْ لها؟ قال: أرايتَ لو قعد لها؟ كأنه لا يُوجِبُه عليه. وقال سلمان: ما لهذا غَدُونًا. وقال عثمان: إنما السجدةُ على مَنْ استمعها. وقال الزُّهريُّ: لا يسجدُ إلا أن يكونَ طاهراً، فإذا سجدتَ وأنت في حَضْرٍ فاستقبل القبلة، فإن كنتَ راكباً فلا عليك حيث كان وجهك. وكان السائبُ [بن يزيد] لا يسجدُ لسُجُودِ القاصِّ^(٣). والله أعلم.

= عبيد الله، وهو مجهول، قال العقيلي في الضعفاء ١/٢٤٣، لا يُتابع على حديثه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(١) المفهم ١٩٦/٢.

(٢) صحيح البخاري (٧٦٦). ولم يتفرد بإخراجه؛ فقد أخرجه مسلم (٥٧٨): (١١٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧١٤٠)، وأبو داود (١٤٠٨)، والنسائي في المجتبى ١٦٢/٢ - ١٦٣، وفي الكبرى (١٠٤٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب سجود القرآن - قبل الحديث (١٠٧٧) وما بين حاصرتين منه. ووصل هذه الآثار ابن حجر في تعليق التعليق ٤١١/٢ - ٤١٢.